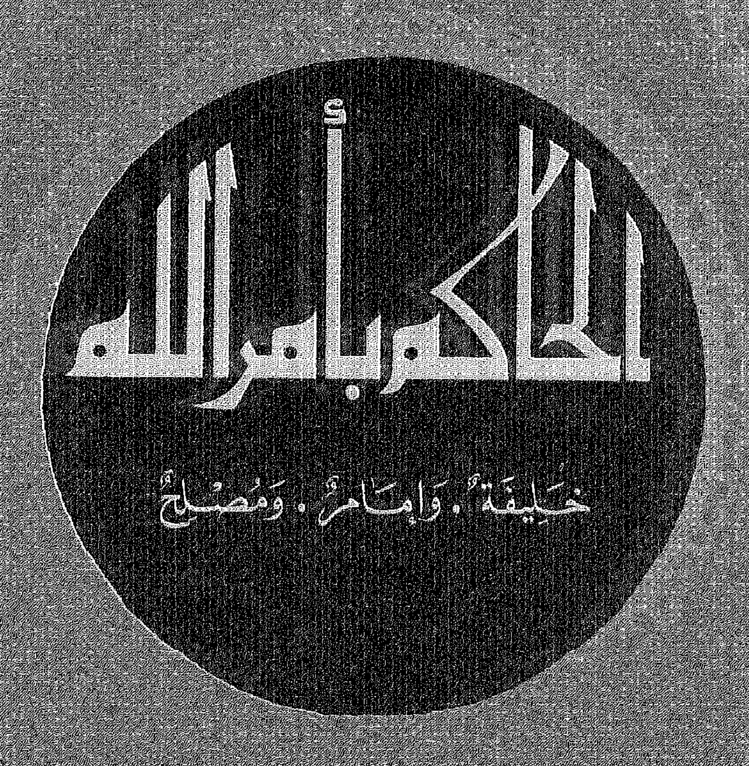


د. عارف تامر





الحاكم بأمر الله

خليفة . وإمام . ومصلح

تصميم الغلاف :
نجدت قلعجي

الحاكم بأمر الله

خليفة . وإمام . ومصلح

تأليف

عارف تامر

دكتور في الآداب

منشورات دار الآفاق الجديدة بيروت

الطبعة الأولى
١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م

هذا الكتاب

في كتابنا هذا عرضنا بالتفصيل سيرة شخصية تاريخية كبرى، صالت وجالت على مسرح العالم الاسلامي وتسنمت منصب الخلافة الاسلامية في القاهرة «المعزّية» بموجب التسلسل الخلافي الفاطمي، وتبوأت بالاضافة الى كل ذلك منصب الامامة الفاطمية، وهو اللقب الذي كان يميز ائمة هذه الاسرة عن غيرهم من الخلفاء الآخرين على اعتبار انهم ينحدرون من الامام علي بن ابي طالب، ومن السيدة فاطمة الزهراء ابنة الرسول الكريم محمد (ﷺ).

هذا الكتاب الذي كرسناه لتاريخ حياة الحاكم بامر الله الفاطمي ليس هو الأول او الوحيد. فقد سبق لغيرنا ان كتب وصنَّف ودبَّج عشرات الكتب، والمقالات عن الخليفة الحاكم، فكان بعضهم بارعاً باختراع القصص والأخبار، والأقوال عن الشخصية الكبرى الغريبة الاطوار التي اكتنف حياتها وموتها الغموض. امّا البعض الآخر فاكتفى بترديد ما قرأه في المصادر التاريخية القديمة.

فالحاكم بامر الله نُظر اليه كإله، وقديس، وامام، ووارث للنبوءة، وخليفة لكافة المسلمين، ونُظر اليه كطاغية، وظالم، ومجنون.

ونحن في كتابنا ضربنا صفحاً عن كل ما قيل بالامس، ويقال الآن، وما سيقال غداً، لان كل هذا في جملته لا يزيد او ينقص من اعتبارنا للامام الذي يمثل بنظرنا العبقرية الباصرة، والفلسفة المتيقظة، والحكمة المتجردة.

في كتابنا هذا توخينا انصاف شخصية تجنّى عليها التاريخ... ونحن عندما نضعها في مكانها الصحيح لا نطلب اجراً ، ولا نبغي جزاءً ولا شكورا .

«المؤلف»

تاريخ في سطور:

ـ الشيعة ـ هذه المجموعة الكبرى التي تألفت في عهد الخلافة الاسلامية الاولى من العناصر المعارضة ـ للحكم القائم، والتي ابت ان تستسلم للامر الواقع، وفضلت اللجوء الى كنف الامام علي بن ابي طالب، ومبايعته بالامامة ـ بعد فشله في المعركة الخلافية التي حدثت بعد وفاة الرسول الكريم محمد (ﷺ).

هذه المجموعة الكبيرة التي اقتحمت ميادين النضال والحروب، ورفعت اعلام المعارضة، وأنفت من الاستسلام للجهة الحاكمة، ظلّت على خطها ونهجها تتبع احفاد الامام علي واحداً بعد الآخر حتى الامام جعفر بن محمد «الصادق» وهو الامام السادس بنظر الشيعة الاثنا عشرية، والخامس بنظر الاسماعيلية التي رفضت وترفض الاعتراف بامامة الحسن بن الامام علي الأكبر لأسباب يطول شرحها.

هذه الشيعة بعد وفاة الامام جعفر الصادق ـ وحدث هذا في الفترة التي كانت الدولة العبّاسية في ذروة مجدها تقبض على ناصية الامور في العالم الاسلامي ـ انقسمت الى فرقتين رئيسيتين:

الاولى: نادت بامامة اسماعيل ابن جعفر الصادق الأكبر، وبامامة ولده محمد من بعده على اعتبار ان اسماعيل هو صاحب النص الشرعي، وانَّ موته في حياة ابيه لا يمنع انتقال الامامة الى ولده محمد... وهذه الفرقة هي: الاسماعيلية.

امّا الثانية فقد خالفت هذا الرأي وقالت بامامة موسى الكاظم ابن جعفر الصادق، وشقيق اسماعيل الاصغر، وهي الفرقة المعروفة بالاثنا

عشرية التي ظلّت على ولائها لأولاد موسى حتى الثاني عشر منهم وهو محمد المهدي المنتظر الذي استتر في سامراء سنة ٢٦٠ هـ .

وممّا تجدر الاشارة اليه ان الفرقة الثانية لم يتسنَّ لها اقامة دولة او كيان سياسي في تلك العهود ، بل ظلَّ نشاطها محصوراً ضمن نطاق القضايا الدينيَّة والعلمية ، في حين استطاعت شقيقتها الاسماعيلية تأسيس دولة كبرى في المغرب لم تلبث ان امتدت رقعتها الى مصر وسوريةْ والحجاز واليمن ، وكانت في كافة الظروف والأحوال تقف في وجه الدولة العباسية ، وتعكّر مزاجها وصفوها ، وتحرمها لذة الحياة والاستقرار .

ولمّا كان الحاكم بامر الله ـ وهو موضوع كتابنا ـ ينتمي لهذه الفرقة رأينا تتمة للفائدة ان نأتي على موجز من تاريخها في صفحات معدودة ، وهدفنا تعريف القارىء الكريم بحقيقتها وتاريخ نشوئها ونسبتها . واننا نضرب صفحاً عن ذكر المآسي والمظالم ، وما تعرضت له الشيعة عامة من ارهاب وتعسف شمل حتى تاريخها وعلومها وآدابها ، ممّا تضيق به صفحات الكتب ، ويعيد الى النفوس الآلام والذكريات .

دعوة ودولة :

لم يستطع امام الاسماعيلية محمد بن اسماعيل البقاء في مواطن ابائه وأجداده ، وانَّى له الاستقرار والتمتع بالحرية المطلقة ؟ فالعيون تلاحقه ، وترصد حركاته وسكناته ، والرقباء يحصون عليه الانفاس ، ممّا يجعل اقل وشاية مغرضة تذهب به ، وتلحقه بقافلة الشهداء والضحايا العديدين من ابناء عمومته ، وهذا ما اجبره على ترك الديار الحجازية ، والخروج تحت جنح الظلام متخفياً ومتنقلاً من مكان الى آخر ، حتى استقرّ في الكوفة ، ولكن الكوفة لم تكن احسن حالاً من المدينة ، فغادرها بسرعة ميمماً شطر فرغانة في فارس ، وبعد استقراره فيها فترة قصيرة غادرها الى نيسابور ، وهناك وصلت اخباره الى الرشيد العبآسي الذي امر عامله بالقاء القبض

عليه، وسوقه الى بغداد وعندما علم محمد بما عزموا عليه رحل الى الري، ومنها الى نهاوند حيث اقام في كنف اميرها ابي المنصور بن جوشن الذي زوّجه ابنته فيما بعد. وفي تلكَ الفترة كثر عدد اتباعه، وجاءه الناس من المناطق البعيدة والقريبة على السواء يعلنون ولاءهم، ويبايعونه بالامامة، ممّا حفز الرشيد على ارسال قوة كبرى للقبض عليه، ولكن اتباعه تمكنوا من الايقاع بهذه القوة وردها على اعقابها، على ان هذه الاحداث والملاحقات كوّنت لديه فكرة بانه لا فائدة له ترجى من البقاء في ارض سلّطت عليها الأنوار، فما كان منه الاّ ان غادرها متنكراً، وظلّ في سيره وتنقله حتى وصل في نهاية المطاف الى بلدة «تدمر السورية» فأقام فيها تحت اسم مستعار هو: «ميمون القدّاح» ومعنى القدّاح طبيب العيون.

وفي تدمر اخذ يمارس طبابة العيون تارة، والتجارة اخرى، ولكن بحذر ويقظة، وفي الوقت نفسه ينمي صداقاته، ومعارفه، واتصالاته مع الكبار وذوي الشأن، ولم تمض عليه بضعة سنين حتى اصبح شخصية مرموقة، وكانت الوفود من فارس تأتيه حاملة اليه الاموال والهدايا... وهكذا استقام امره، وعظم شأنه، وعرف باسم: ميمون القدّاح الفارسي.

ومن المؤسف حقاً ان تلك التسمية انطلت على المؤرخين، فظلّت معرفتهم لهذه الاسرة ضمن نطاق الاسرة القدّاحية الفارسية دون ان يجهدوا انفسهم بتميزها او معرفتها على حقيقتها.

بعد محمد بن اسماعيل الذي دفن في تدمر، تسلّم ولده الأكبر عبد الله شوؤن الامامة فهبط بلدة «سلمية ـ السورية» واتخذها مقراً، ومركزاً لنشاطه، وهذا الامام كان على مستوى رفيع من العلم، ففي عهده تمّ تأسيس الدعوة السرّية، وانطلق الدعاة الى الجهات يبشرون بقيامها، ويزرعون افكارها، كما انجز تأليف رسائل اخوان الصفاء وخلاّن الوفاء.

وبعد عبد الله جاء ولده احمد فأدخل على الدعوة نظماً وافكاراً جديدة، ووسّع رقعة انتشارها بحيث تخطّت الحدود، وألّف الرسالة الجامعة لاخوان

الصفاء، وهكذا ظلّ هذا الامام سائراً على نهج ابائه وأجداده يدعو الى امام مستور من نسل محمد بن اسماعيل، وهذه الدعوة لم يعرها العباسيون اي اهتمام، بل اعتبروها سحابة صيف لا تلبث ان تزول دون ان تبقي اي تأثير على خلافتهم وملكهم.

وبعد احمد جاء ولده الحسين، ثم علي، وهذا الأخير مات في سن مبكر تاركاً ولداً صغيراً دون سن الرشد هو القائم بأمر الله وهنا برز على مسرح الدعوة «سعيد الخير» او «عُبيد الله المهدي» وهو ابن عم القائم فتسلَّم شؤون الامامة كوصي وكفيل، واعلن على الملأ امامته.

هذه الفترة التي تمتد من عهد محمد بن اسماعيل حتى ظهور عبيد الله المهدي اطلقوا عليها اسم «دور الستر» وهي فترة غامضة اشد الغموض التبس امرها، واسماء ائمتها على المؤرخين، فلم يستطيعوا التمييز بينهم وبين دعاتهم واختلط حابلهم بنابلهم، وذهب بعضهم الى حد الطعن في نسبهم والقول: بانهم قداحيُّون فرس من اصل يهودي، والحقيقة فان امعان هؤلاء الائمة في ستر انفسهم وشخصياتهم، جعل اهل الدعوة انفسهم يختلفون فيهم ولا يعرفون التمييز بينهم وبين كبار الدعاة، لان الائمة سمُّوا بعض دعاتهم باسمائهم امعاناً في ستر هوياتهم، وانقاذاً لحياتهم وحياة دعاتهم وأتباعهم، وقد ظلَّ هذا الترتيب قائماً ومعمولاً به حتى تسنَّى لهم اتمام رسالتهم الكبرى، ونشر افكارهم ومبادئهم.

ومهما يكن من امر فان حياة عبيد الله المهدي تمثل عصرين مختلفين بالنسبة للاسماعيلية هما: «عصر الستر» وهي الفترة التي كان الائمة فيها مستورين عن الانظار، وأعين العباسيين خاصة... و (عصر الظهور) وهي الفترة التي اعلن فيها عبيد الله المهدي عن امامته، واعقبها ذهابه الى المغرب حيث تمَّ جلوسه على اريكة الدولة الفاطمية، وغير خافٍ انه نصَّ قبل وفاته على امامة القائم بامر الله وبذلك اعاد الامانة الى صاحبها الشرعي، وبعد القائم جاء المنصور بالله، ثم المعز لدين الله، ثم العزيز بالله، واخيراً الحاكم

بامر الله الذي نتحدث عنه .

اجل . . . لقد كان عصر الستر الذي ذكرنا عنه القليل، بالغ الغموض، وكيف لا يكون غامضاً والائمة الذين عاشوا تلك الفترة الطويلة اخفوا شخصياتهم وانسابهم حتى عن الكثير من دعاتهم، وبالرغم من كل ذلك فقد ازدهرت الدعوة، وكثر اتباعها، والمنتسبين اليها، وتفاني الناس في حب الائمة والانضواء تحت علمهم دون ان يتأكدوا من شخصياتهم، وذكر ان الاموال التي كانت تجمع لديهم تعادل ميزانية دولة كبرى كانت تنفق في سبيل الدعاية والتنظيم لتحقيق الهدف الأول وهو تأسيس الدولة المرتقبة .

الاسماعيلية ـ القرامطة ـ الفاطمية :

الفاظ ثلاثة لمعنى واحد . . . فالاسماعيلية هي الاسم الذي اطلق على المجموعة التي اتبعت اسماعيل بن جعفر الصادق وابنه محمد بعده كما ذكرنا، وفي عهد الستر عندما كانت الدعوة قائمة في«سلمية ـ سورية»ظهر عليها اسم القرامطة، وهذه التسمية القرمطية ظلّت تطلق على الاسماعيلية طيلة عهد الستر، وكان ظهورها قبل حمدان بن الاشعث المعروف بقرمط، ومن الواضح ان اعداء هذه المجموعة اطلقوا عليها هذا الاسم تحقيراً لها وانتقاصاً من قيمتها، وطعناً في كرامتها، ومن الجدير بالذكر انها انتقلت بسرعة الى اسماعيلية الخليج العربي وظلّت قائمة حتى آخر يوم من ايامهم .

اماً الفاطميّة فتسمية اعتمدها عبيد الله المهدي عندما اعلن عن قيام الدولة في المغرب، رغبة منه باسدال الستار على ذكريات القرامطة واعمالهم التي كانت تشكل الاستنكار والنقمة في الاوساط الاسلامية، ومن جهة ثانية رغبته بتثبيت نسب الاسرة التي تنحدر من علي بن ابي طالب ، والسيدة فاطمة الزهراء ابنة الرسول الكريم محمد (ﷺ)، فكلمة فاطمة كان لها اطيب وقع في نفوس المسلمين وخاصة في المغرب. وليس بخافٍ ان اسم الاسماعيلية عادٍ من جديد الى هذه المجموعة الشيعية بعد انقراض الدولة الفاطمية، ولا تزال التسمية قائمة حتى يومنا هذا .

حقائق من التاريخ:

ذكرنا في الصفحات الاولى ان الائمة الاربعة «المستورين» من نسل اسماعيل بن جعفر الصادق، وهم الذين عاشوا في تدمر وسلمية السوريتين، اخفوا شخصياتهم عن كل الناس، ولاذوا بكهف الستر والتقية، واعلنوا عن انفسهم انهم حجج لامام منتظر من نسل اسماعيل بن جعفر، فكانوا يدعون الناس للايمان بهذه الفكرة على اساس ان الامام على وشك الظهور، وبسرعة فائقة تمكنوا من استقطاب الكثيرين، وسارت دعوتهم في البلدان القريبة والبعيدة تعمل فتحاً في الافكار - وثورة في النفوس، وتكثيراً في عدد المؤيدين والانصار.

وكلمة امام منتظر كانت تشكل في تلك الفترة قاعدة من الأمل والاستبشار وخاصة في مناطق الخليج العربي والكوفة وسواء بغداد والشام، لأن الناس في هذه البلدان كانوا يقاسون انواع الظلم، والحكم التعسفي وامتهان الكرامة، والتعدي من قبل الفئة الارستوقراطية المتغطرسة، ناهيك عن الفساد المخيم على اجهزة الدولة العباسية، فكان من الطبيعي ان تتوق نفوسهم الى قائد روحي يأخذ على عاتقه مهمة انقاذهم من حياة الظلم والاستبداد، وايصالهم الى حياة افضل تقوم على اسس من العدالة والحرية والمساواة.

وهكذا استجابوا للدعوة الاسماعيلية، وانضووا تحت لوائها، وكان اكثرهم من الطبقة الفقيرة المتوسطة والمحرومة، ومن افراد القبائل العربية، وجماعة من الناقمين والطامعين، ولكن عندما تسلّم عبيد الله المهدي شوؤن الامامة والقيادة حدثت الاضطرابات، وتفاقمت الدعوات، وعصفت الرياح، وحدث ما لم يكن بد من حدوثه. فعبيد الله المهدي كان من الرجال العظام الذين امتازوا بالشجاعة والاقدام، والفكر النير، وبعد النظر، فقد رأى وخاصة بعد ان وصلت الدعوة الى الذروة، واصبح عدد

المنتسبين اليها لا يمكن احصاؤه، بانه من غير الجائز بقاء الدعوة سرية، وكان ان اعلن على الملأ امامته، ثم شمَّر عن ساعده وأخذ يصحّح الاوضاع، ويدخل على بنية الدعوة الافكار الجديدة، والتنظيمات التقدمية المتطورة، وهذه الاصلاحات لم ترضِ بعض الدعاة وكانوا قد اخذوا ينفردون بالرأي في المناطق التي يعملون فيها ويتصرفون تصرفات مخالفة لقوانين الدعوة دون الرجوع الى المركز الرئيسي، وبين عشية وضحاها فقدوا مبدأ التعاون بينهم وهبَّت رياح الحسد والبغضاء بشكل خطير وكل هذا حرَّك شعور عبيد الله فأصدر اوامره اليهم بالتزام الاوامر الصادرة اليهم باعتباره الامام المسؤول.

وعندما وصلت رسائله الى دعاة الاقاليم، قابلوها بالرفض والاستنكار، واستغربوا كيف اقدم على اعلان امامته في وقت كان اقطاب اسرته قد اعلنوا اكثر من مرة وفي كل المناسبات انهم حجج للامام المنتظر ليس الآّ.

اجل... في هذه الفترة... تحركت نفوسهم، وصحَت عزائمهم على الشر، واعتبروا ان ما قام به عبيد الله المهدي يعتبر استهزاءً بهم، وضحكاً على ذقونهم، فأعلنوا عن بطلان امامة عبيد الله المهدي، وقرروا حجب ثقتهم، والاستقلال عن مركز الدعوة في سلمية.

وتطوَّرت الاحداث، ووقع في نهاية المطاف ما لم يكن بد من وقوعه، فجهّز ابناء «زكرويه بن مهروبه» جيوشهم القرمطية واندفعوا باتجاه بلاد الشام يقتلون ويبيدون ويخربون، ولم تسلم منهم بلدة سلمية بالذات، فأبادوا اهلها عن بكرة ابيهم حتى اسرة عبيد الله المهدي البالغ عدد افرادها /٨٣/ شخصاً بين طفل وامرأة وشيخ لم يسلم منهم سوى عبيد الله وولي العهد القائم وبعض النسوة والخدم. وكانوا قد فروا الى المغرب قبل وصول الجيوش الغازية بأيام.

ومن الجدير بالذكر ان هناك سبباً آخر للخلاف لم نذكره، وهو ان

بعض دعاة القرامطة في العراق والخليج رأوا انه قد آن الأوان للاعلان عن ثورتهم، ووضعوا خطة للزحف على مركز الخلافة العباسية في بغداد ـ حدث هذا قبل اعلان امامة عبيد الله المهدي ـ ولكن عبيد الله ارسل اليهم من نصحهم بالاقلاع عن الفكرة، والتريث مدة اطول... ومما قاله لهم:

ان الثمرة لم تنضج بعد، وان العقول لم تصل الى حد الايمان، وتقبل الافكار الثورية الجديدة، وان كل انتصار او نجاح في هذا المجال مشكوك فيه، ومن جهة ثانية كان يرى ان الدولة العباسية تملك القدرات والامكانيات، وان باستطاعتها القضاء على اية حركة ثورية في اية جهة من جهات الدولة الكبيرة، وخلص الى القول لهم بضرورة التريث والعودة الى تنظيم الصفوف، وغرس التعاليم في عقول الشباب خاصة، وتهيئة الاجواء بصمت وسرية وحذر واعداد كل شيء للوقت المناسب.

وتبرز في واجهة الاحداث ناحية هي اهم من كل ما ذكرناه، وتتلخص بسريان معارضة عنيفة اعتبرت الاولى من نوعها في تاريخ الدعوة الاسماعيلية، وقد تبناها «زكرويه بن مهرويه» وأولاده، وهؤلاء زعماء القرامطة الذين صفا لهم الجو اخيراً، ومؤداها ضرورة احداث دولة تامة تخضع الى نظام رئاسي يقوم على اساس الشورى، والغاء كل حكم فردي او وراثي، وانتخاب ثلاث مجالس للدولة: واحد للشورى، والثاني للتشريع، والثالث للدفاع، وهذه المجالس الثلاث تقوم بانتخاب رئيس الدولة فاعتبر عبيد الله المهدي هذا هجوماً مباشراً على مقام الامامة، وتهديم جسورها واقتلاع جذورها، او بلغة اصح دفن مبادئها وصلاحياتها وتحويلها الى قاعدة دينيَّة مهملة لا شأن لها ولا تملك من المعنويات والمقدرات الاَّ الاسم.

هذه التحركات والاضطرابات عصفت ببنيان الدعوة، فوقع الانقسام المعروف الذي المحنا اليه، ثم تحوَّل الانقسام الى مصادمات انتهت اخيراً

بفرار عبيد الله المهدي من سلمية والتحاقه بالمغرب حيث اعلن عن قيام الدولة الفاطمية.

وفي هذه الكلمة لا بد من التنويه بان بعض المؤرخين ذكر بان التسمية القرمطية وقعت على اسماعيلية - العراق والخليج عند ظهور حمدان بن الاشعث الملقب بقرمط. والحقيقة فان التسمية وقعت قبل حمدان، وان حمدان تسمّى بها كما تسمّى غيره من الدعاة. فحمدان تمّ انتسابه للدعوة الاسماعيلية على يد الحسين الاهوازي، وتلقى تدريبه وتعليمه في بيت الدعوة بسلمية، وبعد ان تمّ له ذلك كلّف بمهمة رئاسة الدعوة في العراق والكوفة والخليج - وبالنظر لمكانته في قومه، واظهاره الورع والتقشف، وشجاعته واقدامه تمكن من نشر الافكار والمبادىء، وتحقيق الانتصارات الباهرة، وقد كان لاسلوبه العجيب بالاقناع والمناقشة، وقوة حجته الفضل الكبير بادخال الاعداد العديدة من الناس الى الدعوة، ومن المعروف عنه انه تمكّن سنة ٢٧٦ هـ، من تنظيم الكتائب المسلحة، واعداد الجيوش وتدريبها على حمل السلاح، وأساليب القتال، كما اوجد في محيط ثورة اشتراكية، ونهضة زراعية وصناعية منظمة تنظيماً دقيقاً حتى ذكر انه لم يبق احد في تلك المناطق الاّ هاب جانبه، وحسب له حساباً، وكان يساعده في عمله صهره عبدان الذي امتاز ايضاً بسعة علمه وفطنته وحذقه، فشاركه بالمسؤولية، وقدم الخدمات، واستقطب الرؤساء حتى ان ادخال الزعيم البحراني الكبير ابا سعيد الجنّابي الى الدعوة تمّ بواسطته، وابو سعيد يعتبر رأس الحركة القرمطية في البحرين التي لعبت دوراً عظيما فيما بعد، واستطاعت جيوشها ان تدق ابواب بغداد العباسية، والقاهرة الفاطمية.

ومن جهة ثانية فان عبدان استطاع ان يضم الى صفوف الدعوة دندان وهو فارسي، وكان من اكابر الاغنياء في منطقته، وذكر انه وضع ثروته تحت تصرف الدعوة، وموّل اكثر الحملات القرمطية العسكرية.

ويجب ان لا يغرب عن البال انه في تلك الفترة انضمّ الى صفوف

الدعوة ايضاً بفضل مساعي عبدان ايضاً «زكرويه بن مهرويه» وهو من زعماء سواء الكوفة، فبرز الى العمل بقوة، واعطي الصلاحيات الكافية مبكراً وكان عنيفاً جريئاً، حينما استأثر بالصلاحيات، وقاد قرامطة الشمال الغربي للعراق، وقرامطة بادية السماوة والشام وعرب بني عليم، وبني اسد، وكلب، وربيعة، والعليصّ، وغيرهم.

وفي الحقيقة فان ظهوره بهذه السرعة على المسرح حرَّك جماعة حمدان للوقوف بوجهه، وحمدان كما عرف عنه لم تصدر من طرفه اية مخالفة، او خروج على ارادة مركز الدعوة في سلمية، بعكس زكرويه الذي صمّم بعدما ثبّت اقدامه بازاحة حمدان واتباعه من طريقه، وهكذا اقدم على تنفيذ مخططه سنة ٢٨٩ هـ فقتل حمدان، وبعد فترة الحق به عبدان، وظلَّ يلاحق اتباعهم واحداً بعد الآخر، حتى تمكَّن اخيراً من تصفيتهم واعلن عن نفسه القائد العام للثورة القرمطية المستقلة.

ومن الغريب ان زكرويه بعد هذه الاحداث، اعتزل الناس، ولجأ الى حد الكهوف السرِّية مبتعداً عن الناس، ولعلَّ سبب ذلك خوفه من ملاحقة اتباع حمدان، وفي هذه الفترة تسلَّم القيادة العامة ابنه يحيى الذي اعدَّ جيوشه للفتح، فهاجم البلدان الشامية وخاصة دمشق حيث ضيّق عليها الحصار مماً اضطر طغج بن الاخشيد حاكمها من قبل الطولونيين الى الفرار، ولكن فراره لم ينقذ يحيى من المصير المحتوم، عندما كمن له جماعة من المحاربين الدمشقيين واغتالوه على ابواب دمشق، فانتقلت القيادة الى اخيه الحسين، ولكن العباسيين قتلوه ايضاً سنة ٢٩١، وهنا خرج زكرويه من مخبئه، وقاد المعارك بنفسه، ولكنه وقع قتيلاً بحراب العباسيين في خاتمة المطاف سنة ٢٩٤ هـ.

ان اسرة زكرويه بن مهرويه هي التي حملت لواء المعارضة والحرب ضد مركز الدعوة في سلمية وضد عبيد الله المهدي بالذات، وهذه الاسرة هي

التي هاجمت سلمية ودمرتها وقتلت جميع سكانها حتى اسرة المهدي كما ذكرنا.

امّا المهدي نفسه، وولي عهده القائم بامر الله وزوجة عبيد الله وبعض الاولاد والخدم فقد التحقوا بالمغرب بعد رحلة شاقة عجيبة، وهناك وقع عبيد الله اسيراً في مدينة سجلماسة بأيدي صاحبها اليسع بن مدرار، ولكن قائده المشهور أبا عبد الله الشيعي زحف واحتل المدينة وأخرجه من السجن، وذهب به الى القيروان حيث اعلن عن امامته وتسمّى اميراً للمؤمنين، وخليفة للمسلمين.

هذه اللمحة التاريخية كان لا بد من ايرادها... فبعد عبيد الله تسلّم القائم ثم المنصور ثم المعز ثم العزيز، وبعد العزيز جاء الحاكم بامر الله الذي هو موضوع هذا الكتاب.

من هو الحاكم بامر الله؟:

يعتبر الحاكم بامر الله من اغمض الشخصيات السياسية التي عرفها العالم، ولا نغالي اذا ما قلنا انه لغز القرون وسر العصور الذي لم يستطع الفكر سبر غوره وحل رموزه وجلاء حقيقته. ومن هنا اثيرت حول حياته ومماته الاقوال الخيالية، ونسجت الحكايات والاساطير خاصة حول طريقة حكمه والأساليب التي اعتمدها ابأن اضطلاعه بشؤون الخلافة، وكل هذا اتخذ منه البعض اداة للتندر ومادة للتسلية، وانه لمن الغريب ان يمدحه بعضهم ويرفعه الى ذروة المجد، بينما يتناوله الآخرون بالنقد والتجريح والطعن في نسبه وشخصيته وسلوكه بما يتنافى والآداب والاخلاق.

اسمه: الحاكم بامر الله، ولقبه: المنصور، وكنيته: ابو علي. ولد في القاهرة المعزّية سنة ٣٧٥ هـ.

والدته: هي «ام ولد» وتنحدر من اسرة نصرانية عريقة تذهب بنسبها الى الطائفة الملكية القبطيّة، وكان والده الخليفة العزيز بالله قد تزوجها،

مفتتحاً بذلك عهداً جديداً من التحرر الديني والطائفي والعادات والتقاليد خاصة، وان هذه الزوجة امتازت بثقافتها وأهليتها وجمالها ومكانتها في قومها.

تولّى الخلافة بعد وفاة والده العزيز بالله سنة ٣٨٦ هـ. مباشرة، وكان له من العمر احدى عشر عاماً.

قتل في ظروف غامضة سنة ٤١١ هـ. فتكون مدة حكمه /٢٥/ عاماً، وعمره /٣٦/ عاماً.

كل ما نعرفه عن صباه... ان اباه احسن تعليمه وتهذيبه، فأحضر له المعلمين الكبار الذين اعدوه ـ للمنصب الرفيع خاصة بعد وفاة شقيقه الأكبر الوحيد محمد، الذي مات في حياة والده، وكان قد سمّاه ولياً للعهد، وعندئذٍ استحق الحاكم الامامة والخلافة معاً.

كان والده الخليفة العزيز بالله في طريقه الى الشام على رأس جيشه الجرّار، وغرضه من الزحف التصدي للروم الذين دفعوا بجيوشهم الى تلكَ البلاد، فعاثوا فيها فساداً وخراباً. وتشاء الاقدار ان يصاب بمرض فجائي خطير ذُكر بانه «الحمّى» الدماغية في مدينة «بلبيس»، ولماّ عرف ان الاصابة مميتة، وان لا امل بالنجاة. امر باحضار ولده الحاكم من القاهرة لتوديعه الوداع الاخير، وعندما حضر نصَّ عليه بالخلافة على مسمع من كبار رجال الدولة والوزراء والقوّاد.

ويذكر المؤرخ المصري الامير المسبحي، وهو من اصدق الم ِخين، وأكثرهم دقة بايراد الاخبار والروايات وتحليلها، وكان صديقاً للحا كم بامر الله. قال:

ذكر لي الخليفة الحاكم بامر الله ما يلي:

استدعاني والدي العزيز بالله قبل وفاته الى بلبيس. وعندما وصلت استدناني وضمني اليه وقال:

ارجو ان لا يغمى عليكَ، ودمعت عيناه.. ثم قال:

امض وآلعب ولا تخف فأنا في عافية... وأضاف الحاكم:

فمضيتُ والتهيتُ بما يتلهّى به الصبيان من اللعب، الى ان نفذ امر الله سبحانه وتعالى بالعزيز بالله... وهنا بادر اليّ «برجوان» امين القصر وأنا في اعلى شجرة جميزة كانت في الدار وقال:

انزل ويحك.... الله... الله... فينا وفيكَ... قال:

فنزلتُ، وما كدتُ اطأ الارض، حتى وضع العمامة المرصّعة بالجواهر على رأسي... وقبّل الارض وقال:

السلام عليكَ يا امير المؤمنين ورحمة الله وبركاته... ثم اخذني بيدي وانا على تلكَ الهيئة الى الناس... فقبّل جميعهم لي الأرض، وبايعوني، وسلّموا عليّ بالخلافة.

وذُكر ان الحاكم بامر الله رغم صغر سنه لم يبكِ، او تنهار اعصابه امام الخطب الجلل، بل قابل الموت بمتانة اعصاب، مماً جعل الناس ينحنون امام عظمة هذا الصبي البالغ من العمر احدى عشر عاماً الذي لم يتوانَ، بل امر باتخاذ التدابير السريعة لنقل جثمان ابيه الى القاهرة. فسار على رأ س الموكب الكبير الذي شارك فيه جيش مصر بكامله، وكان يرتدي ثياب الخلافة متقلداً سيفه، وعلى رأسه المظلة، صابراً متجلداً، متهيباً جلال الموت.

وعندما وصل الموكب الى القاهرة، خرجت الجماهير الحزينة لاستقبال جثمان الخليفة العظيم الذي احبوه من كل قلوبهم، وكانوا يزرفون الدموع وينتحبون اسًى، ويندفعون وراء الجثمان بغية لمسه، او تقبيل النعش المحمول على الأكف.

وعند وصول الموكب الى القصر، امر الحاكم بامر الله قاضي القضاة محمد ابن النعمان بان يتولّى غسله والصلاة عليه، ثم دفن الى جانب والده المعز

لدين الله في احدى حجرات القصر وفق المراسيم التقليدية المعمول بها في الدولة الفاطمية.

وفي اليوم الثاني جلس الحاكم بامر الله في الايوان الكبير، وحوله كبار رجال الدولة يتقبل التعازي والمبايعة وكان اول بيان اذاعه على الرعية في انحاء دولته هذا:

«ان الامن موطّد... فلا كلفة ولا مؤونة، ولا خوف على النفس او المال، وعلى الناس ان ينصرفوا الى اعمالهم بحرية واطمئنان».

وهكذا جلس الخليفة الجديد على عرش الخلافة يعالج الامور، ويصارع الأحداث... وما اكثرها في تلك الفترة.

شكله وصفاته:

كان الحاكم بامر الله ذا بنية قوية متينة متناسبة طولاً وعرضاً... فمظهره يدل على انه من اولئكَ الجبابرة الأوائل... مبسوط الجسم... فارع الطول... بارز الصدر... مهيب الطلعة... له عينان كبيرتان سوداوان تمازجهما خضرة ذات نظرات حادة مروعة كنظرات الأسد، فلا يستطيع الانسان ـ اي انسان ـ التحديق او اطالة النظر فيهما... وله صوت جهوري قوي مرعب يحمل الروع الى سامعيه.

يقول التاريخ في وصفه:

كان منظره مثل الأسد... عيناه واسعتان شهل... اذا نظر المرء اليه يتملكه الرعب، ويرتعد هلعاً لعظم هيبته، وكان صوته مخيف كالرعد.
والحقيقة:

هو سليل اسرة من الجبابرة العرب الأقوياء الذين عاشوا في الصحراء الجبّارة يقارعون الاحداث والقوى الطبيعية، ويفيئون الى ظلال العزة والمجد والأنفة، ولكنهم مع كل اسف يذهبون في زهرة العمر وأبّان قوتهم

وشبابهم، فوالده العزيز بالله كان ايضاً عظيم القامة، عريض المنكبين، قوي التكوين وقد اشتهر باقتناص الاسود بمفرده، وهكذا جده المعز لدين الله.

اذن فالحاكم بامر الله ورث عنهما هذه الخواص الطبيعية البديعة، ومن الواضح انه لم يبددها في شهوات النفس، ومتطلبات الجسد التي ينغمس فيها الملوك والامراء وابناء القصور، بل حافظ عليها واستخدم بالاضافة الى كل ذلك القواعد الطبيَّة، والتقليل من المأكل والمشرب، ومما تجدر الاشارة اليه ان والده العزيز بالله مات وهو في الثالثة والاربعين. وجده المعز لدين الله في السادسة والاربعين، والمنصور بالله في الثانية والاربعين والقائم بامر الله في الخامسة والخمسين.

جاء في احد المصادر التاريخية:

ان رجلاً دفع لاغتياله. فتمكن من الدخول عليه، لان الحاكم بامر الله كان يفتح ابواب قصره للناس، ولا يحتجب دونهم... وعندما نظر اليه سأله عن حاجته؟

فاضطرب الرجل، وارتعدت فرائصه، ثم القى المدية من يديه، وشرع بالبكاء، مقراً بذنبه، معترفاً بجريمته.

اجل... ارتقى الحاكم بامر الله ذروة الفضائل، وغاية الشرف الكامل، وظهرت مثاليته، فيما اخذ به نفسه من زهد وتقشف بالرغم مماً ورثه من الملك العظيم والعز والجاه والنعيم، ومن المؤكد انه رفض هذا النعيم الذي آلى اليه من ابائه وأجداده، وتناسى حق نفسه، وحق شبابه واسرته عليه، فأعتق المماليك والعبيد، وملَّكهم امر نفوسهم، وأعطاهم تعويضات خدماتهم، وعاش كما يعيش اي فرد من رعيته، ولم يكتفِ بكل ذلك، بل تجرأ على والدته واخته وخواص نساء اسرته، فاستولى على املاكهن وعقاراتهن وحليهن ووضعها بتصرف الشعب والدولة.

كما ابطل ما كان يرتديه اسلافه من الثياب، بالرغم من انه في اول

عهده تزياً بزي ابائه، فارتدى الثياب المذهّبة، ووضع العمامة المجوهرة، وغير ذلك من الثياب التقليدية والاشارات الخاصة بالخلافة وعمد بعد ذلك الى لبس البسيط من الاثواب الغير مطرزّة، وجميعها من الملابس الخشنة ذات اللون الابيض مع العمامة الخضراء، واخيراً حوّلها الى السواد زيادةً في التقشف.

وألغى الحاكم بامر الله الحفلات العامة والمآدب الكبرى التي كانت تقام في قصر الخلافة في المناسبات والاعياد، وفي اواخر ايامه كان طعامه الخاص ومشربه مقتصراً على ما تدعو الحاجة اليه.

ومن المشهور عنه انه نهى عن تقبيل الارض بين يديه ولثمها، والانحناء، او السجود الى الارض كما الغى استعمال كلمة « مولانا » واكتفى بان يقال له:

« السلام على امير المؤمنين، ورحمة الله وبركاته »

وكذلك منع حرس القصر من اعلان مظاهر التكريم، وقرع الطبول، واداء التحية في ذهابه وأيابه.

ومهما يكن من امر، فان الحاكم بامر الله، لم يكن مثل الملوك، والخلفاء الآخرين يعمل على املاء خزائنه بالأموال، وتوفير الارزاق، والممتلكات لأفراد عائلته وخاصته، بل كان على العكس يأخذ ما تحتويه هذه الخزائن ليوزعها على الفقراء والمساكين والمحتاجين، وليتكرم بها على كل من يطلبها باستحقاق... فكان في خروجه اليومي يحمل في جيوبه بعض الاموال لتوزيعها على الفقراء والمحرومين الذين ينتظرون مروره، كما كان من عادته الجلوس في احد نوافذ القصر في وقت محدَّد، فيأتيه الفقراء الذين يعرفون وقت جلوسه، فيفرّق عليهم الصدقات والمعونات، ولم يكن يوزع المال وحده بل الكساء ايضاً، وذكر انه امر بصنع قماش شعبي للفقراء كان يسمّى « طراز العامة » وهو مخصّص لهؤلاء الذين عاشوا من هباته وعطائه.

ومما لا ريب فيه ان الحاكم بامر الله ورث هذا الكرم، وهذه الأريحية عن ابيه العزيز بالله، وقد ذكر انه قال مرة لعمه في حديث معه:

«ياعم... احب ان ارى النعم عند كل الناس ظاهرة، وأرى عندهم الفضة والذهب والجواهر، والخيل، واللباس، والضياع، والقصور، وان يكون ذلك كله من عندي».

ولكن الحاكم بامر الله، فاق اباه، فهانت لديه الاموال، وصغرت، ولم يقم لها وزناً، فكان يوزعها دون عد او حساب لا على اهل مصر وحدهم، وانما على اناس وفدوا من مشارق الدنيا ومغاربها الى القاهرة ليعيشوا من عطاآته واحسانه... وذكر ان ناظر المالية توقف مرة عن صرف الاعانات خوفاً من اختلال ميزانية الدولة، فكتب اليه يقول:

«الغربة مذلة الاعناق، والفاقة مرة المذاق، والمادة من الله الرزّاق، فأجرهم على عوائدهم في الانفاق... ما عندكم ينفذ، وما عند الله باق».

وعرف عن الحاكم بامر الله انه اعطى الضياع والعقارات والاملاك العائدة ملكيتها للدولة اولاً فأولاً من كان يلتمسها من الرعية، ويتعهد باصلاحها، ودفع الرسوم المترتبة عليها للدولة، كما امر بالتنقيب واستخراج الكنوز الدفينة من الآثار المصرية القديمة، لصرفها على الناس، والاستفادة من ثمنها، ويشهد له التاريخ بان يده لم تمتد طيلة حياته الى اخذ مال احد، او الاستيلاء على املاك احد، لا عدو، ولا صديق، او الاستهانة بأي انسان مهما كان.

ومما ذكر عنه:

ان احد ولاة الشام وهو «جيش بن الصمصامة» اوصى بتركته التي تزيد على المائتي الف دينار الى الحاكم بامر الله، فجلبها ابناؤه، ووضعوها امامه... فأخذ الحاكم الوصية وألقى نظرة عليها، ثم اعادها الى ابناء الوالي الراحل، وقال لهم بحضرة وجوه الدولة:

لقد وقفت على وصية ابيكم رحمه الله، وما وصّى به اليّ من عين ومتاع، واني قابل به، ولكني اتنازل عنه لمن هم احق مني... فخذوه هنيئاً مباركاً هدية مني.

كل هذا الى تخفيفه الضرائب عن الرعية، وسهره على راحتها، وابعاد الظلم عنها.... وكأني به كان يفعل ذلك ولسان حاله يقول:

اصبحتُ لا ارجو ولا اتقي   الاّ الهي ولــــه الفضــــلُ
جــدي نبيٌّ وامــامــي ابي   وديني الاخلاصُ والعــــدلُ

اجل... كان الحاكم بامر الله جواداً كريماً، والى جانب الجود والسخاء والزهد في المال، والاسراف الى حد السفه في العطاء يجانب الخمرة والنساء، ويحرمها على نفسه كما يحرمها على رعاياه، ولم يذكر التاريخ انه كان في حياته وابّان خلافته يتصف بما يتصف به معظم الطغاة الذين عرفهم التاريخ.

وعلى العموم... كان لغزاً يصعب استجلاؤه، وبحراً يستحيل سبر غوره، وعقلية متوقدة عسيرة الفهم... او قل فيلسوفاً على طريقته. وصفه العلاّمة الألماني «ميللر» فقال:

انه من اعجب واغمض الشخصيات التي عرفها التاريخ.... وزاد على قوله:

انَّ من يقرأ ما أورده المؤرخون المتأخرون من مختلف الاساطير والقصص عن الخليفة الفاطمي الامام الحاكم بامر الله يخرج بحقيقة هي:

انهم لم يفهموه، وانهم اعتبروه مجنوناً فقط. وقد جرى رأيهم فيه مجرى الحقيقة، ولكن توجد ثمة شواهد واضحة على ان هذا الامير هو اعجب من انجبت اسرته، فقد كان اشدهم اثارة للاساطير من حوله، وان حجاباً كثيفاً قد اسبغ على صورته، فلا نستطيع ان نظفر منها الاّ بلمحات.

ومن الواضح ان الحاكم بامر الله لم يكن شخصية وضيعة ساذجة، وانّما كان لغز عصره، وفيلسوف زمانه، وذهناً نيراً بعيد الغور، وافر الابتكار، جم العطاء، وعقلية سمت على مجتمعها وتقدمت عصرها، وكان عليها ان تتبوأ مكانها اللائق في التاريخ.

وقال المؤرخ المقريزي:

ان جملة القوانين التي اصدرها الحاكم بامر الله، جاءت بدافع الشعور الديني لاصلاح النفوس والاخلاق، وتطهيرها من رذائل المجتمع.

وقال ابن خلدون:

ان ما رقي به الحاكم بامر الله غير صحيح، ولا يقبله العقل السليم.

وقال الدكتور جمال الدين سرور وهو من المعنيين بالادب الفاطمي:

ليس هنالك ما يثبت ان الحاكم بامر الله ذهب في مقدراته الدينية الى حد الخروج على قواعد الاسلام.

وقال محمد عبد الله عنان دون ان يدري، وهو من الذين تهجموا على الحاكم بامر الله والفاطميين:

لقد ظلم التاريخ الحاكم بامر الله، كما ظلم غيره من المصلحين... لقد كان الحاكم مصلحاً على طريقته، وكان يرمي بما يصدره من قوانين واحكام الى غايات خفيت على العامة لانها تتعلق بسياسة الدولة العليا، ومن هنا كان الريب في حكمتها، وكانت القسوة في تطبيقها.

وقال عبّاس محمود العقّاد:

كان الحاكم بامر الله يمنع تقبيل الارض بين يديه، ولا يرضى ان تلثم يداه وركابه، وأمر الاّ يزيد الناس في السلام حين يدخلون عليه على قولهم: السلام على امير المؤمنين ورحمة الله وبركاته.... وهذه فضيلة قلّما شاهد العالم الاسلامي ما يماثلها لدى الخلفاء الآخرين.

وقال المؤرخ الالماني شتروطمان:

ان الحاكم بامر الله الفاطمي اعاد الى اذهان العالم الاسلامي بتقشفه، ولبس الخشن من الثياب، واقلاعه عن الملذات الجسدية، وسهره على راحة شعبه، سيرة الخلفاء الراشدين العظماء وخاصة جده الامام علي بن ابي طالب.

وقال الدكتور محمد كامل حسين استاذ الادب الفاطمي في جامعة القاهرة:

ما احوجنا الى حكم تتمثل فيه الجرأة في الحق، والعدالة والنزاهة والشدة في تطبيق القانون كحكم خليفة مصر الفاطمي الحاكم بأمر الله.

وقال العلاّمة المستشرق دوزي:

ان قوانين الحاكم بامر الله لم تك سخيفة كما صوَّرها لنا الرواة الذين دأبوا ان يقدموا لنا شخصية هذا الخليفة بغير حقيقتها... انما كان الحاكم اسطورة التاريخ الذي لم يستطع احد ان يفهم مقاصده، او ينفذ الى واقعه.

وحدثني المرحوم الدكتور طه حسين اثناء اجتماعي اليه سنة ١٩٥٨ في القاهرة:

ان التاريخ لم ينصف الحاكم بامر الله، وانه سيتخذ من سيرة حياته الشيقة الغريبة موضوعاً لكتاب سيكتبه عنه اذا ما امدَّ الله بعمره...

ومهما يكن من امر، فان الحاكم بامر الله، وباجماع اراء المؤرخين كان عظيماً من العظماء ويكفي ان تكون الدولة الفاطمية قد نعمت في ابأن حكمه بالرخاء والثروة الطائلة والازدهار الاقتصادي بما يفيض عما وصفه المؤرخون، وذلك لأن الحاكم خفَّف الكثير من المصروفات، واقتصد في النفقات بما الغاه من المراسيم والتقاليد، وبما منعه من البذخ والابهة.

انه في الواقع الخليفة المؤمن الذي احب البساطة في العيش، والذي كان يقصده ذوو الحاجات اثناء تجواله سواء في الليل او النهار لرفع الظلامات،

وقضاء الحاجات والطلبات االتي كان يقضيها بنفسه، مضافاً الى نثره العطايا والهبات على المحتاجين المستحقين.

وكان زاهداً متقشفاً في مظاهره العامة، دؤباً على الصلاة، والعزلة، والانقطاع. وفي حياته الخاصة اثبت انه احتقر المظاهر والرسوم والالقاب التي تقتضيها الخلافة، ومنصبها الرفيع.

ومن المشهور عنه: انه كان يكتفي عند خروجه من القصر بالركوب على فرس بسرج ولجام عادي محلّى بالفضة وبنود ساذجة، ومظلة بيضاء بلا ذهب، وعمامة دون جوهر.

وذكر عنه: انه ترك ركوب العمّاريات والخيل والبغال المسوّمة مدفوعاً بالبساطة.... وتارة كان يركب على فرس وتارة على حمار ابيض... وكان من طبعه ايضاً الاتصال بالشعب، والاختلاط به، وسماع شكاوى الرعية... لذلك ترك ابواب القصر مفتوحة لكل قاصد من ذوي الحاجات والمتظلمين.

وعلى العموم فان حياته الخاصة لم تكن تختلف عن حياته العامة، وعن مظاهره الرسمية.... انها الحياة الصوفيّة الفلسفيّة ذات الابعاد الروحية البعيدة التي تحتقر متاع هذه الدنيا، وتترفع عن المفاسد التي تسود المجتمع، وعن غرائزه وشهواته النفسيّة الوضيعة... انها حياة الفلاسفة والقديسين الذين ينقطعون في الاديرة والصوامع للعبادة والتأمل والعزلة عن الناس والتفرغ للمناجاة والتأمل وطلب المزيد من العلم والحكمة وتقديم الخير للانسانية.

ومن الواضح انه في آخر عهده جنح الى النسك المطلق والزهد والورع، وأضرب عن جميع الملاذ الحسيّة والنفسيّة، واقتصر في طعامه على ابسط ما تقتضيه الحياة من القوت المتواضع، فكان بذلك اميل الى النقاء في حياته الخاصة، والى الزهد في ذلك الترف الناعم الذي يفتّ في الاجسام والارواح القويّة...... فلبس الثياب الخشنة، وأطلق شعره، واحتذى النعل

الخفيف، فبدا وكأنه راهب يعيش في دير، او ناسك نذر نفسه لعبادة الله، والانقطاع عن عالم الكون والفساد.

والحقيقة:

فان شهرة الحاكم بامر الله غمرت الآفاق... فكان في حياته، وبعد موته حديث الناس، تثار الأقوال عنه في المجتمعات والاندية كالأساطير التي يضرب عليها الخيال نطاقاً واسعاً.... فالحاكم بامر الله لم يكن شخصية عادية يغمرها العدم والنسيان، ويسهل الوصول الى فهم ابعادها وأعماقها... لقد كان لغز العصر واسطورة الزمان، والشخصية التي لم تدرس او تعرَّف كما يجب ان تدرس وتعرَّف.

وصفه بعض الغلاة الخارجين على سنن الشرائع والقوانين الالهية، وهؤلاء قد بادوا وانقطعت آثارهم فوق مرتبة البشر، فأساءوا اليه، وقالوا: انه متصل بعالم الغيب، وان روح الله حلَّت به... فحاربهم، واستنكر زعمهم، وتبرأ منهم على رؤوس الاشهاد، نافياً عن نفسه بان تكون له هذه الصفات، واكد اكثر من مرة لهؤلاء الغلاة بانه لم يكن الاَّ اماماً للمسلمين... مؤمناً بالله، منقطعاً لعبادته، زاهداً في الحياة كما كان جده علي بن ابي طالب. وقد ذكر ذلك احد المؤرخين بقوله:

«ان امير المؤمنين قد اسبغ على الناس نعمه، ولم يوفّر شيئاً منها لنفسه، ولم يبخل على احد بجزيل عطائه، ولم يشاركهم في شيء من احوال هذه الدنيا.... ثم انه احيا سنن الاسلام والايمان... وبنى المساجد وشيدها وزخرفها، وأقام الحج والجهاد، وعمَّر بيت الله الحرام، وأقام دعائم الاسلام، وفتح بيوت امواله وانفقها في سبيل الله ومرضاته».

الدولة الفاطمّية قبل الحاكم:

مرَّ معنا ان الخليفة الفاطمي العزيز بالله، تسلَّم الخلافة من المعز لدين الله، وانه ظلَّ قائماً على امرها، مضطلعاً بمهامها احدى وعشرين عاماً،

وكنّا ذكرنا في اكثر من كتاب ومقالة ومحاضرة ان الدولة الفاطمية كانت تعتمد منذ نشأتها حتى آخر خلافة المعز لدين الله على تأييد القبائل المغربية ذات البأس والعصبيّة، وتصطفي زعماءها للمناصب الكبرى في الدولة، وللقيادات العليا في الجيش، لان هذه القبائل وخاصة «كتامة» ساندت الفاطميين في بدء تكوين دولتهم في المغرب، ووضعت مقدراتها بتصرفهم، وهدرت دماء شبابها في سبيل خلافتهم ودولتهم فليس غريباً بعد ذلك اذا ما حفظ لهم الفاطميون الجميل، وردُّوا لهم بعض ما عليهم من ديون.

ولكن هذا الامر قد طرأ عليه شيء من التعديل في عهد الخليفة العزيز بالله الذي رسم لنفسه ولدولته سياسة جديدة، وخطة حكيمة تقضي بالحد من نفوذ المغاربة، وكان قد بلغ درجة كبرى من التسلط والسيطرة على الرعية، لدرجة ان الشكاوى من اعمالهم وتصرفاتهم وصلت الى عنان السماء، هذا من جهة ومن جهة ثانية فان خطة العزيز بالله استهدفت ايجاد ما يشبه بالتوازن بين القوى المسيطرة وخاصة في الجيش والقيادات العليا والمناصب الكبيرة في الدولة، فاختار «المشارقة» وقربهم، ومحضهم ثقته، وهؤلاء عناصر مهاجرة وفدت الى مصر في ظروف مختلفة وأقامت فيها، واكثرها من بلدان البلقان وتركيا، كما ولّى بعضهم مراكز مهمة وحسَّاسة في الادارة والجيش وكل هذا ليجعل منهم قوة تستطيع الوقوف في وجه المغاربة، وافساد خططها وتسلطها، ففي اواخر ايامه ولّى «منجوتكين» التركي القيادة العامة في بلاد الشام، وولّى «وفاء الصقلبي» ولاية عكا، و «بشارة الاخشيدي» طبرية و «ربا» غزة، كما ولّى «برجوان» امانة القصر الخاصة، وهذه التدابير كان لا بد من ان تحدث قلقاً وسخطاً في نفوس المغاربة مماّ جعلهم يحشدون قواهم، ويتجمعون للوقوف في وجه هذا التيّار الجارف الذي طلع عليهم على حين غرّة، وليس بخافٍ ان الخليفة العزيز بالله بالاضافة الى ذلك اعتمد اصطناع النصارى واليهود واستخدمهم وقرّب بعض اعلامهم، كالوزير يعقوب بن كلس، وعيسى بن

نسطورس، ومنصور بن مقشّر طبيبه الخاص، وهؤلاء الثلاثة قدموا خدمات جلّى للدولة الفاطمية وامتازوا بالذكاء والعبقرية وبعد النظر في الشؤون الادارية والمالية والاقتصادية.... ويجب ان لا يغرب عن بالنا ان نفوذ النصارى في عهد الخليفة العزيز بالله بلغ الذروة، فاستولى الكتاب والرؤساء منهم على معظم اعمال الدولة، واستأثروا باكثر السلطات والنفوذ، وقد كان لهذا العمل الاثر السيء في المجتمع المصري خاصة ولدى المغاربة ايضاً، ولكن العزيز بالله قبل وفاته ادرك ان هناك نقمة شعبية عارمة من جراء هذه التصرفات وان الناس اخذوا يتهامسون بالسر والعلن ويتعرضون له بالانتقاد، فبادر الى تخفيف العديد من الاجراءات والتعيينات وسرح من وظائف الدولة من كان ملتمساً ومقرباً، وأخيراً قبض على عيسى بن نسطورس، وعلى بعض اعوانه، ولم يفرج عنهم الاّ بعد ان اخذ منهم العهود والضمانات التي تكفل الحد من اسرافهم في سياسة التمييز والاضفاء الديني والطائفي.

هذا بالنسبة لمصر اماّ الشام فان الخليفة العزيز بالله اولاها عنايته، وخصها باهتمامه، فعيّن لها اقرب المقربين اليه وهو غلامه منجوتكين التركي وقدّمه على الجيش بعد ان اشترط عليه فتح حلب وتخليصها من حكم الحمدانيين، وكان زعماؤها والمتقدمون فيها الناقمون على سياسة الحمدانيين قد كتبوا اليه مطالبين بالاسراع في نجدتهم.

سار «منجوتكين» الى دمشق، ودخلها بهدوء، ثم استقر فيها فترة قصيرة، واعاد اليها الاستقرار والأمن، وبعد ان تم له تجهيز جيشه، توجه الى حلب، وكان اميرها يومئذٍ «ابو الفضائل بن حمدان» حفيد سيف الدولة، فلماّ توغل الجيش الفاطمي في بلاد الشام، وظهر طموحهم بالاستيلاء على امارته الحلبية، هرع الى الروم وعقد محالفة مع «باسيل الثاني» امبراطور القسطنطينية قضت بخضوعه للروم، وقبوله اداء الجزية، وهكذا فيكون بذلك قد فضّل حكم الروم واستعمارهم على المحالفة مع

الفاطميين .

اجل . . . زحف الجيش الفاطمي من دمشق بقيادة منجوتكين ، ووجهته حلب ، وعندما اقترب منها ، استغاث ابو الفضائل ووزيره لؤلؤ بالامبراطور البيزنطي باسيل وكان في تلك الفترة يخوض حرباً طاحنة ضد البلغاريين، ولمّا كانت المعاهدة المعقودة بينهم تلزمه بالدفاع عن الامارة الحمدانية ، فانه ارسل الى قائده نقفورس الرجي وطلب اليه التوجه والوقوف بوجه الجيش الفاطمي، وانقاذ حلب خاصة منهم، فزحف قائد الروم من انطاكية والتقى بالفاطميين على ضفاف نهر العاصي في سهل الغاب ، وهناك نشبت معركة كبرى بين الجيشين دامت عدة ايام وانتهت بهزيمة الروم هزيمة منكرة، وفي خلال ذلك اوقع الجيش الفاطمي قائدهم نقفورس في الاسر وطاردوا فلول الروم وشراذمهم الهائمة على وجهها حتى انطاكية، وذكر ان عدد الضحايا من الروم كان بالغاً بحيث لم يتمكنوا من احصائه، وبعد ذلك عاد منجوتكين الى حلب، ولكنه لم يهاجمها نزولاً على نصيحة بعض قواده، وحجتهم ان الأقوات قد نفذت، وان الجيش اصبح بحاجة الى الراحة بعد المعارك ، ومن جهة اخرى فان اقتحام مدينة حلب يكلف الآلاف من الضحايا ، وهكذا ارتد منجوتكين الى دمشق، ولكن الخليفة العزيز بالله غضب لهذا التراجع وانّب قائده، ثم بعث اليه بالاقوات في البحر ملحاً عليه بفتح حلب،والقضاء على الحمدانيين حلفاء الروم مهما كانت النتائج، فزحف منجوتكين من جديد الى حلب وكان ذلك سنة ٣٨٢ هـ . وضرب حولها الحصار، فارتاع بنو حمدان لذلك، وأرسلوا الوزير لؤلؤ الى الامبراطور البيزنطي يستصرخونه، ويصورون له سوء العاقبة ، وما ينجم من اخطار على دولتهم فيما اذا سقطت حلب، وهنا خشيَ الامبراطور من تقدم الفاطميين نحو اراضيه، وخاف من ان يتخذوا من حلب قاعدة في المستقبل لشن هجماتهم على دولته . فسار بنفسه على رأس جيش قدر بمائة الف، وانحدر من انطاكية، وفي هذه الاثناء انضمّ اليه ابو

الفضائل ولؤلؤ وجيوشهما، فنزلوا على حصن شيزر وهو على مقربة من مدينة حماه، فانتزعوه من يد حاكمه الفاطمي، ثم اكملوا زحفهم الى حمص، فافتتحوها، وعاثوا فيها قتلاً ونهباً وتدميراً، ومن حمص ساروا الى طرابلس وحاصروها اربعين يوماً، ولكنهم لم يظفروا بفتحها. ومن الجدير بالذكر ان الفاطميين كانوا يلزمون خطة الدفاع، لان الروم يتفوقون عليهم بالعدة والعدد. واخيراً عاد «باسيل» الى القسطنطينية بعد اتمام مهمته، وبسط سلطانه على معظم بلاد الشام وخاصة المدن الكبرى التي اقام فيها الحاميات والحكّام.

هذه الانتصارات السريعة اقضّت مضاجع الخليفة الفاطمي العزيز بالله، فقرّر السير بنفسه الى الشام لمجابهة الروم والحمدانيين، وتصفية الحساب معهم، فحشد جيشاً قدر عدده بمائة وخمسين الفاً، بالاضافة الى جيوشه في الشام، وخرج من القاهرة «المعزيّة» الى بلبيس شرقي الدلتا، كما امر بتجهيز الاسطول الكبير الموجود في المقس، وهو المعروف باسطول المعز لدين الله، وكان يتألف من ستمائة مركب، ولكن في ظروف غامضة وفجأة احترقت بعض مراكبه، وعليها عدة الاسطول وسلاحه، وقد عرف ان جماعة من التجار الروم في القاهرة قاموا بهذا العمل التخريبي، ولكن العزيز بالله استقدم اسطولاً آخر من صقلّية، واعلن النفير العام في انحاء دولته حتى اجتمع معه من الجنود ما لم يجتمع من قبل، ولكن المرض الفجائي داهمه في بلبيس كما ذكرنا، واخيراً ادركه الموت سنة ٣٨٦ هـ.

هذه لمحة خاطفة كان لا بد من بسطها لبيان حالة الدولة الفاطمية في بدء ولاية الحاكم بامر الله اي بعد وفاة العزيز بالله، وفي تلك الفترة كان «برجوان» هو القائم بشؤون امانة قصر الخلافة.

هذا ومن الجدير بالذكر ان موت الخليفة العزيز بالله الفاطمي لم يوقف الحروب في بلاد الشام بين الروم والحمدانيين من جهة، والفاطميين من جهة اخرى، فقد كانت تحدث مصادمات عنيفة ومعارك شديدة ولكنها

موضعية، وليست على المستوى العام، فقد ذكر انه سنة ٣٨٨ هـ. افسد الجيش الفاطمي بقيادة منجوتكين محاولة لاحتلال مدينة صور من قبل الامبراطور باسيل الثاني، وفي نفس العام توغل منجوتكين في ارض الروم في منطقة الثغور، وقابل جيشاً بقيادة الدوقس، وفي هذه المعركة تمكَّن من قتل ستة الاف منهم بالاضافة الى قتل الدوقس المذكور وأسر أبنائه.

ومهما يكن من امر، فان بلاد الشام بالنسبة للفاطميين كانت الشغل الشاغل لهم، فمنها تنبعث الاضطرابات والثورات، وعلى ساحتها تدور المعارك والمؤآمرات، فالفاطميون لم يسجلوا فيها اي هدوء واستقرار، بل على العكس كانت سبباً لمتاعبهم،ومبعثاً لاقلاق راحتهم.

الخليفة الشاب امام

الأحداث:

لم تكن مصر الأولى في الدولة الفاطمية فحسب، بل كانت اسطع جوهرة في تاج هذه الدولة، وأعلى ذروة في بناء الامبراطورية الكبرى الشاسعة ذات الاطراف الممتدة من المحيط الاطلسي حتى حدود العراق. والحقيقة: فان بروز هذه الدولة الفتيَّة في هذه البقعة من الارض، وانتقالها من المغرب الى مصر يعتبر بداية عصر ذهبي جديد قام على دعائم من القوة والعزة والمكانة، فمصر في عهدها الفاطمي الجديد، اصبحت بخصبها، ونعمائها، وفيض مواردها اعظم دعامة لدولة الفواطم، بل اعظم قاعدة لهذا الصرح الباذخ المنيف الذي وصف بانه ازهى عصور مصر الاسلامية، هذا اذا لم يكن اسطعها جميعاً، غير ان هذا العصر الذهبي كثيراً ما كان مدعاة الى التفكير والتأمل.... فبينما نراه وضاءً واضحاً زاهراً في بعض نواحيه، اذ نراه مظلماً قاتماً في الجوانب الاخرى، وما ذلك الاَّ لان الخلافة الفاطمية كانت غامضة في كثير من مواقفها، ومترددة في بعض اعمالها، تتراوح بين القوة والضعف، والهجوم والدفاع ـ الشدة واللين ـ الانتقام والتسامح، مماَّ

صعب على المؤرخين استجلاء ذلك الغموض، وقد يكون سبب ذلك مواقف الخلفاء الفاطميين انفسهم وتربيتهم، وعبقريتهم، واجراآتهم الجديدة، او قل ثورتهم التي بدت غريبة على المجتمع، ومتقدمة على العصر، والحقيقة فان اعمالهم وتصرفاتهم وطريقة حكمهم مدعاة الى التساؤل. والتأمل، وسبباً في اشاعة الحكايات، واختراع الاساطير، وظهور المعارضة المحافظة والرافضة لكل جديد وصالح.

اجل... ان اغمض عهد شهدته مصر الفاطمية في حياتها القديمة والحديثة، وأكثره اثارةً وتفكيراً هو عصر الحاكم بامر الله الخليفة الفاطمي السادس خاصة، الذي ما زال العالم حتى في عصرنا الحاضر يوليه الجوانب الكثيرة من الاهتمام والعناية والتفكير.

فالحاكم بامر الله ولي الخلافة وله من العمر احدى عشر عاماً، وخمسة اشهر، وستة أيام، وكان مولده بالقصر الفاطمي الكبير في القاهرة المعزّية. وامه «ام ولد» وقد كانت حسبما ذكرت الروايات الكنسية القديمة والمعاصرة نصرانية من طائفة الملكية القبطيَّة، ومن المعروف عنها انها كانت ذات نفوذ بارز بعهد الخليفة العزيز بالله، ولها عطف خاص على النصارى، مّما مكنهم بواسطتها فيما بعد من الاستيلاء على مواقع النفوذ في مناصب قيادة الدولة، وغير خافٍ انه كان لها شقيقان هما: ارسانيوس، وأريسطيس، فالأخير كان بطريركاً في بيت المقدس سنة ٣٧٥ هـ. كما كان الأول مطراناً للقاهرة، ثم عين فيما بعد بطريركاً للاسكندرية سنة ٣٩٠ هـ.

ولد للعزيز بالله من زوجته ام ولد ولداً سميَ لولاية العهد باعتباره الأبن الأكبر، وكان يدعى محمد ولكنه توفي في حياة ابيه، وولد له ايضاً الحاكم بامر الله و «ست الملك» وهي التي لعبت دوراً مهماً في الاحداث وهذه الاميرة كانت حازمة وعاقلة، وقوية العزم، وبصيرة بالامور، وكان والدها العزيز بالله يحبها ويؤثرها ويستمع اليها، ويعمل بنصائحها في كثير

من الامور، وكان لها ايضاً بالاضافة الى كل ذلك اثراً بارزاً في توجيه سياسة الخليفة خاصةً نحو اخوالها النصارى، فكلما هبّت عواصف السخط والاضطهاد عليهم، تدخلت لتلطيف الاجواء، وازالة الظلم عنهم، وايجاد اجواء التسامح.

وهنا نرى من واجبنا انّ نعرض نقطة غامضة في تاريخ «ست الملك» فنقول:

ان اكثر من مؤرخ تحدث عنها، وأطال الحديث، فذكروا: بان هذه الاميرة ابنة الخليفة العزيز بالله ولكن من ام نصرانية، بينما الحاكم بامر الله من ام غيرها، وذكروا اسطورة ثانية فيها الكثير من المغالطات والجهل في التاريخ والحقيقة... كقولهم:

ان «ست الملك» ولدت في المغرب سنة ٣٥٩ هـ. وان والدها العزيز بالله جاء بها الى الديار المصرية عندما رافق والده المعز لدين الله اثناء رحلته من المغرب الى مصر... وحبذا لو ان هؤلاء المؤرخين عادوا الى صوابهم، وفكروا قليلاً قبل اقدامهم على تدوين وقائع التاريخ. فمن الواضح ان ولادة العزيز بالله حدثت في المغرب سنة ٣٤٤ هـ. وقدومه الى القاهرة المعزية حدث سنة ٣٦١ هـ. واني بعد هذا لا ادري متى تزوَّج، وكيف انجب «ست الملك» وهو في سن الخامسة عشرة، ومن جهة ثانية، فمن اين جاء بهذه الفتاة النصرانية القبطيَّة الى المغرب؟ وكلنا يعلم ان طائفة الاقباط لم يكن لها اي نشاط بارز في المغرب.

ان التاريخ الصحيح يرفض المزاعم التافهة السخيفة التي لا تقوم على اي دليل، والتي قصد منها اصحابها تشويه التاريخ الاسلامي، والتلاعب بحقائقه وواقعه. ونعود لنؤكد:

بان الحاكم بامر الله هو شقيق «ست الملك» من ام نصرانية مصرية، وليس في هذا اي خرق للمباديء الانسانية، او خروج عن دائرة الدين والآداب.

اجل... ان الخليفة الفاطمي الخامس العزيز بالله منح ولده الحاكم بامر الله ولاية العهد منذ ان كان صغيراً، اي بعد وفاة شقيقه الأكبر: محمد..، وتذكر المصادر الفاطمية ان العزيز بالله اوصى قبل موته بولي عهده الوحيد ثلاثة من كبار رجال الدولة هم:

برجوان الصقلبي امينه الخاص وكبير خزّانه، والحسن بن عمّار وزيره وأمير قبيلة كتامة المغربية، ومحمد بن النعمان قاضي قضاة الدولة. وقد عهد بالوصاية الفعليّة الى الأول، وهو برجوان وكان يلقب «ابا الفتوح» وهو خصيّ ابيض صقلبي من اواسط اوروبا، وهؤلاء وفدوا على مصر في فترات متقاطعة، وكانت مهماتهم تنحصر بالخدمة في قصور الخلفاء والامراء وكانوا يطلقون عليهم في مصر «الارقاء» وبرجوان هذا منهم ربّاه واصطفاه الخليفة العزيز بالله ثم ولاّه القصر في اخريات ايامه، وخلع عليه لقب الاستاذ، كما عهد اليه بمهمات كبرى، وأولاه ثقته وعطفه ومحبته.

امّا «الحسن بن عمّار» فكان رجلاً قوي الشكيمة، وافر العصبة، معتزاً بنفسه وبامارته على كتامة والمغربيين، ولكن برجوان بحكم ظروفه، وطبيعة منصبه في القصر كان اوثق اتصالاً بالخليفة الصبي، وأشد تأثيراً فيه، وقدرةً على توجيهه. فلم يلبث ان نشب الخلاف بين الرجلين، واشتدت المنافسة بينهما الى حد الاصطدام الكلامي في بعض الأحيان.

وكان الحسن بن عمّار وقتئذٍ يتبوأ منصب الوزارة الاولى، ويشرف على شؤون الدولة، فالعزيز بالله هو الذي اعتمده لهذا المنصب، ومنحه لقب «امين الدولة» وهذا اول لقب من نوعه في الدولة الفاطمية، وعند وفاة العزيز بالله ظنَّ ان الفرصة سنحت له، وان الجو قد خلا، فحصر مهمته باعادة نفوذ المغاربة المسلوب، وارجاع اعتبارهم الى سابق عهده وخاصة نفوذ قبيلة «كتامة» الذي تضاءل كثيراً بفعل تدابير الخليفة العزيز بالله، واعتماده قوة ثانية تعيد التوازن الى الدولة وهي «المشارقة» كما ذكرنا.

وفي تلك الفترة ظهر «ابن عمّار» بمظهر الطاغية المتجبر المطلق الارادة،

فكان يدخل القصر ويغادره وهو راكب على فرسه، وألزم جميع الناس بالترجل له، وتقبيل ركابه، وأغلق ابواب منزله ومكتبه الاّ على الخاصة والأكابر من بني قومه، كما اغدق الاموال والاعطية على كتامة خاصة، وولّى احداثهم وظائف الدولة، وقسّم بينهم سلطاتها، فعاثوا فساداً في شؤونها ومرافقها، وكثر اعتداؤهم على الناس، وعلى اموالهم.... كل هذا وابن عمّار يساعدهم ويمدهم ويغض الطرف عن اعمالهم وعبثهم، وامتدت يده اخيراً الى المشارقة فاتخذ قراراً سرياً بابعادهم واحداً بعد الآخر، بالرغم من ارادة ست الملك التي كانت تتبع سياسة والدها العزيز بالله بالابقاء على الحالة الراهنة والتوازن بين الفريقين بالنسبة للدولة.

ولكن برجوان ادرك ما يتهدده وجماعته من المخاطر، فكتب الى منجوتكين واستدعاه مع قواته من الشام للوقوف بوجه موآمرة ابن عمّار، والحد من تصرفاته، ومن جهته علم ابن عمّار بما اقدم عليه برجوان للايقاع به، فأذاع على الناس بياناً بان منجوتكين قد خرج على الخليفة الحاكم بامر الله، وقام بثورة انفصالية ضد الدولة الفاطمية، وان بلاد الشام لم تعد ترضخ للدولة الفاطمية، وانه في صدد الزحف الى مصر بعد اكمال استعداده، لذلك لا بد من تأديبه، وبالفعل جهّز جيشاً كثيفاً من المغاربة، ورحف قاصداً الشام، فالتقى منجوتكين في عسقلان ودارت معارك طاحنة بين الفريقين انهزم في نتيجتها منجوتكين وتمزقت قواته.... ولكن ابن عمار رضخ اخيراً لمداخلات ست الملك وأصدر امراً بالعفو عن منجوتكين واعادة الاعتبار اليه، وكانت خطة ست الملك الابقاء على هذا القائد المظفَر الذي انتصر في اكثر من معركة ضد الروم.

بعد هذا الحدث الرهيب اشتد ساعد كتامة وبالغ رجالها في الاستئثار بالسلطات، وكثر فسادهم وطغيانهم، وبادر ابن عمّار الى اعوان برجوان فعزلهم عن مناصبهم ومنهم «جيش بن الصمصامة» والي طرابلس في ذلك الوقت، وعرف الناس في تلك الأيام ان كفة «كتامة» قد رجحت، وان

نفوذ «برجوان» والمشارقة يتضاءل يوماً بعد يوم، ولكن الداهية «برجوان» صبر على المحنة، وقبع في مكانه لا يحرك ساكناً وفي الوقت نفسه كان ساهراً وحذراً يرقب ابن عمّار ويتلمس الفرص لأخذ الثأر، واسقاط مخططاته، وعندما سنحت الفرصة بدأ يدس الدسائس، ويؤلب زعماء الجند الناقمين، وخاصة المصريين، وهكذا لم يمض عام حتى تمكّن من تأليف جبهة قوية ضمّت منجوتكين وابن الصمصامة وغيره من الزعماء الناقمين المعارضين. واخيراً وقع الانفجار المنتظر.

فقد وثبت جماعة كبيرة من الجند والاهلين بتحريض من برجوان على الكتاميين في ظاهر القاهرة وكان ذلك سنة ٣٨٧ هـ. فأثخنوا فيهم، فاضطرّ ابن عمّار الى الخروج من القاهرة، والتخفي حيناً بعد فشله الذريع في اخماد الفتنة وانقاذ جماعته، تاركاً الميدان لمنافسه، وهنا قبض برجوان على زمام الامور، ولكنه خاف من العواقب، وحسب حساباً لعودة المغاربة الى المسرح من جديد، ففاوض ابن عمّار على الصلح، وعندما تمّ ذلك ردّ اليه اعتباره وولاّه منصبه، ومنحه امتيازاته الاولى، مصانعةً لكتامة، وضماناً لسكوتها، ونزولاً عند ارادة ست الملك، ولكنه في الوقت نفسه ظلّ مستأثراً بكافة السلطات داخل القصر وخارجه، وذكر انه في تلك الفترة اختار لمعاونته رجلاً نصرانياً يدعى فهد بن ابراهيم وقد عرف بذكائه ودهائه ومقدرته، ففوض اليه امر التوقيع، وحلّ قضايا الناس، بينما لزم هو الخليفة الحاكم بامر الله، وأقام معه بالقصر، يسهر على توجيهه، ويستأثر لديه بكل سلطة ونفوذ، واستبد بكل امر في الدولة، وقبض على الناصية بيد من حديد. ومماً تجدرالاشارة اليه ان الامور استقرت في تلك الفترة وساد الدولة جو من الهدوء والاستقرار.

اجل... استمر برجوان بحكمه يتبوأ ذروة القوة والنفوذ زهاء عامين ونصف، وفي خلال تلك المدة وقعت عدة ثورات وقامت بعض الاضطرابات في الشام، والمغرب، وحاول بعض الحكّام الاقليميين والزعماء

المحليين الخروج على الدولة الفاطمية، فسيَّر برجوان جيشاً الى الشام بقيادة جيش بن الصمصامة فقاتل الثوار في عدة مواقع، وأخضعهم تباعاً، واستعاد دمشق، كما اشتبك مع الروم البيزنطيين في عدة معارك في شمالي الشام، وكانوا قد انتهزوا فرصة الاضطرابات الداخلية في قلب الدولة الفاطمية، فأغاروا على الثغور بتأييد من الخارجين والحمدانيين، ولكن جيش هزمهم وردهم الى ما وراء الحدود.

وسيَّر برجوان جيشاً آخر الى برقة لقمع الثورة التي اضطرمت فيها من قبل بعض القبائل، فردَّ النظام اليها، وأخضع القبائل الثائرة، وولّى عليها يانس الصقلبي، كما عيَّن قواداً آخرين من المشارقة لحكم الولايات والثغور التابعة للدولة الفاطمية، مثل ميسور الخادم لطرابلس، ويمن الخادم لغزة وعسقلان، وهكذا فعل بالنسبة لمصر، فانه عيَّن العديد منهم في الوظائف الكبرى والادارات العامة وخاصةً في القصر.

وفي تلك الفترة جنح الروم بعد هزائمهم المتكررة الى السلم، وعقدوا معاهدة صداقة مع الدولة الفاطمية وقعها الامبراطور باسيل الثاني، وقد ذكر ان البطريرك ارسانيوس، وهو خال الخليفة الحاكم بامر الله لعب فيها دوراً بارزاً.

ونعود الى الخليفة الحاكم بامر الله - هذا الفتى الطري العود - فبعد مضي ما يقارب الاربعة سنوات بدأ يتفتح ويعي ما يجري من حوله، فكان موقفه من هذه الاحداث التي تجري في دولته بدافع من الطامعين والجشعين والمتآمرين، لا يخرج عن كونه موقف الصبر والتريث ومراقبة الامور بحذر ويقظة شديدين.... اجل... كان برجوان يحجبه عن الاتصال برجال الدولة المخلصين، ويخفي عليه الكثير الكثير من الشؤون العامة والخاصة، ويدفع به ما استطاع الى مجالي اللهو واللعب، اماَّ امه وشقيقته ست الملك فكانتا ترعيان الفتى وهو ينمو ويترعرع في ظل هذه الوصاية الخطرة، ولكنهن كنَّ عاجزتان عن اقصاء برجوان عن الوصاية، لانه حرَّم عليهن

التدخل في شؤون الدولة وحتَّى الاتصال بأحد من الرجال المخلصين للاسرة الفاطمية . . . ولكن الشاب النابه شعر اخيراً بخطورة الاحوال، ولم يلبث ان فطن الى موقف برجوان واستئثاره بالسلطة واستبداده بكل شيء، وفي هذه الفترة كان يتخطَّى سن الخامسة عشر، فأضحى شديد اليقظة والحذر، وأدرك في هذا العمر ان برجوان يذهب في طغيانه وتعسفه حداً بعيداً، ويثير حوله وفي داخل دولته الاضطرابات والقلاقل، وكل هذا يزيد في عدد خصومه في داخل البلاد وخارجها ويعدهم في النهاية الى تقويض سلطانه، وكيانه.

وبرجوان من جهته اعتقد ان الجو قد خلا له،وان الزمان قد صفا، فاستسلم للراحة وانكب على ملاهيه وملذاته، يقضي اوقاته في مجال الانس والطرب والغناء، ولم يفطن الى ما وقع في نفس الامير الفتى، وما طرأ عليه من التبدل والتطور، فاستمر يعامله معاملة الطفل المحجور عليه، ويبالغ في حجبه بحجة حمايته والحرص على راحته، وذهب في استهتاره الى حد اهانته في بعض المواقف واهماله والتنكر له والاستخفاف به، وكأني به قد نسي ان ست الملك هذه الاميرة القوِّية القابعة في القصر تراقب الاحداث بيقظة وانتباه وانها تأبى ان تجعل من شقيقها دمية يحركها برجوان، كما كان ابن الاخشيد في عهد كافور، وهنا اتخذت قراراً يقضي بقتله وتخليص الدولة من شروره وآثامه، فأوعزت الى شقيقها الحاكم بامر الله بان يستدعي «الحسين بن جوهر الصقلي» قائد القوات، ويعيده الى منصبه، وكان الحسين قد عينه العزيز بالله قائداً اعلى للجيش بعد وفاة والده القائد الكبير جوهر الصقلي، واصطفاه، وأولاه ثقته وعطفه، فلمَّا توفي الخليفة العزيز بالله ابعده برجوان عن القيادة وقلَّده ديوان البريد والانشاء، وعندما فعل الحاكم بامر الله ما طلبت منه ست الملك ادرك برجوان ان الامور انعكست ضده، وانه اصبح يعيش في ظل الاخطار.

نهاية الطاغية:

في مساء احد الأيام طلب الحاكم بأمر الله الى برجوان ان يركب معه في رحلة للنزهة، وانتظره في قصر اللؤلؤ، وهو منتزه للخلفاء الفاطميين شيَّده الخليفة العزيز بالله، وكان يقع على الخليج شرقي البستان الكافوري، وكانوا يصلون اليه من ممر تحت الارض متصل بالقصور الأخرى دون ان يراهم احد، وأخذ الحاكم معه ريدان الصقلبي حامل المظلة، وهو من اعدى اعداء برجوان.

وعندما وصل برجوان الى القصر تقدّم منه ريدان، فقبَّل يديه وركبتيه، واعتذر اليه عن انشغاله عنه، وكان في الوقت ذاته يتحسَّس ثيابه خوفاً من ان يكون لابساً درعاً من الفولاذ كما هي عادته، فلماً تأكد انه لا يلبس شيئاً رماه ارضاً وضربه بحديدة على قلبه، ثم طعنه طعنة مميتة في عنقه بسكين حادة وفي تلك اللحظات انقضَّ عليه جماعة كانوا قد اعدوا خصيصاً للفتك به، فأثخنوه طعناً بالخناجر، واحتَّزوا رأسه ودفنوه في المكان الذي قتل فيه وكان ذلك سنة ٣٩٠ هـ.

في تلك الساعة خرجت والدة الحاكم بامر الله وشقيقته ست الملك من القصر خوفاً على الحاكم، ولكنه طمأنهن بنجاح الخطة، وأمرهن بالرجوع الى القصر... ولمَّا عاد الى القصر كان خبر مقتل برجوان قد ذاع في كل مكان، فاضطرب الناس وجاءوا الى القصر يستفسرون عن الأمر، فأشرف الحاكم بامر الله على الجموع وخاطبهم قائلاً:

ان برجوان عبدي استخدمته فنصح، فأحسنت اليه، ثم اساء فقتلته... وانتم ما لكم ولهذا، وتوجه الى المغاربة وقال:

انتم شيوخ دولتي، وانتم الآن عندي افضل مماً كنتم فيه مماً تقدم... ثم التفت الى المشارقة وقال:

انتم تربية العزيز بالله، ومقام الأولاد، وما لأحد منكم عندي الاَّ ما

يؤثره ويحبه، فكونوا على رسومكم، وامضوا الى منازلكم. فدعوا جميعاً له... وقبلوا الأرض.

وبعد ذلك صاح ريدان بالناس:

من كان منكم في الطاعة فلينصرف الى منزله، ويبكر الى عمله.

وفي نفس اليوم اتخذ الحاكم بامر الله سلسلة من التدابير لتوطيد الامور، فاستدعى فهد بن ابراهيم وهدأ من روعه، وأقره في منصبه، كما صودرت اموال برجوان وكانت وفيرة طائلة... وهنا اختفى اصدقاؤه من المجال، وانطوت صفحة الرجل الذي تطاول وحدثته نفسه بما ليس هو اهلاً له.

وهكذا فان الحاكم بامر الله وبعد اربعة اعوام استطاع ان يطوي مرحلة الحداثة، وان يبدأ عهده الفعلي، فالحاكم في هذا السن اي الخامسة عشرة بدأ مضطرم النفس والاهواء، وافر الذكاء والجرأة والعزم فقرر تعيين قائد عام للجيش، ورئيس فعلي للدولة يأخذ صلاحيات برجوان، فوقع اختياره كما ذكرنا على الحسين بن جوهر الصقلي قائد القواد، فاستدعاه وخلع عليه وقلّده، واصدر امره ان لا تبلغ اليه المهام والظلمات الاّ في مكتبه في القصر، والاّ يقصد احد داره، والاّ يخاطب بغير لقبه الرسمي دونما تعظيم او تفخيم، والاّ يمنع احد من مقابلة الخليفة، او الاتصال به... وهكذا غدا الحسين بن جوهر وصهره عبد العزيز بن محمد بن النعمان الذي خلف اباه في منصب قاضي قضاة الدولة اعظم رجلين.

في هذه المرحلة، قبض الحاكم بامر الله بيديه على شؤون الدولة العليا، فنظّم مجلساً ليلياً كان يحضره اكابر الخاصة ورجال الدولة وقواد الجيش والمسؤولين عن المال والاقتصاد، وكانت الغاية منه دراسة وبحث الشؤون العامة للدولة والاحداث المستجدة على الساحة، وكانت هذه اول ظاهرة لهيام الحاكم بامر الله بالليل واتخاذه حجاباً لستر الاعمال والافعال وتقرير الامور، وفي تلك الفترة توفي جيش بن الصمصامة والي الشام، فعين مكانه

فحل بن تميم، ولماً توفي بعد حين عين علي بن جعفر بن فلاح القائد الذي فتح الشام بعهد الخليفة المعز لدين الله، وفي تلك الفترة ايضاً قرّر الحاكم بامر الله اقصاء المشارقة عن مراكز الدولة الهامة، وتمكين المغاربة من العودة الى مناطق النفوذ والحكم كما كانوا في عهد جده المعز لدين الله.

وهذه الخطوة الجريئة كان لا بد منها في مثل هذه المواقف خاصة، وذلك ليخلص له حكم مصر وحده وليستقل بالرأي دون ان يكون هناك من ينازعه الامر، واننا نراه يبعد انصار برجوان عن الجيش والقصر من جهة ومن جهة ثانية يخطط للقضاء على الحسن بن عمّار زعيم كتامة، وكان مثل برجوان مخرباً انانياً ظالماً لا يهمه الاّ نفسه، يساعد المجرمين ويستأثر باموال الدولة، ولماً كان الاتراك المشارقة يعتبرونه عدوهم الأكبر، فقد كمن له جماعة منهم في احد الطرقات وقتلوه.

هذه الحادثة اشاعت الرعب لدى الكتاميين، فتجمعوا واتوا الى القصر كاشفين رؤوسهم طالبين من الخليفة العفو والامان، متنصلين من اعمال الحسن بن عمّار، ومن افعاله وجرائمه، فقبل منهم الحاكم الالتماس وكتب لهم عهداً بذلك. وقد مرَّ معنا ان الحاكم بامر الله بعد مقتل برجوان، ولّى ابن عمّار الوظائف الرئيسية في الدواوين والولايات والادارات، فرجع الى سابق عهده، وقام بعزل المصريين من وظائف الدولة، كما قتل بعضهم وتوقف عن صرف الرواتب للمشارقة فضلاً عن اساءته معاملاتهم مماً اضطر اكثرهم للهرب الى الشام.

في المشرق والمغرب:

عصر الخليفة الفاطمي الحاكم بامر الله اعتبره المؤرخون عصراً غنياً بالاحداث والاضطرابات الداخلية العنيفة، فتارة في الشرق، وحيناً في المغرب، وآخر في الداخل هذا فضلاً عن الثورات والانتفاضات والحروب الدامية التي كانت تنبعث من حين لآخر وتهدد كيان الدولة، وقد تحدثنا في

الصفحات الاولى عن بعضها بايجاز، وها نحن نبسطها الآن كما وردت في المصادر التاريخية:

اجل... ترك الخليفة الفاطمي الخامس العزيز بالله لولده الصغير الحاكم بامر الله دولة واسعة كبرى مترامية الاطراف تشمل المغرب بتمامه ومصر والشام وغيرها من الامصار، ولكنها على العموم كانت بحاجة الى المزيد من السهر والعناية والتنظيم، وبذل الجهود في سبيل توطيد الامن والاستقرار، ففي الشام القرامطة والحمدانيين والقبائل التي تقف الى جانبهم من جهة، ومن جهة اخرى الدولة البيزنطية او روما الشرقية التي كانت في ذلك الوقت تحتل مركز القوة والعظمة وخاصة في عهد الامبراطور باسيل الثاني المعاصر للخليفتين الفاطميين العزيز بالله والحاكم بامر الله، فتلك الدولة البيزنطية انتهزت فرصة الاضطرابات التي اثارتها غزوات القرامطة المتكررة الى الشام وفلسطين، واضطراب احوالها، واصطدام الفاطميين برغبة الاهلين بعدم الرضوخ والاستسلام لدولتهم، وكان ان انحدروا الى بلاد الشام، ومدوا يدهم الى داخلها، وشجعوا كل حركة تقوم ضدهم كما تحالفوا مع اعداء الفاطميين التقليديين الحمدانيين، ونتج عن ذلك دخولهم في معارك وحروب ذكرنا بعضها في الصفحات الاولى.

اماً علاقة الحمدانيين بالفاطميين فكانت في كافة المراحل تتسم بالعداء والحقد على الرغم من ان الحمدانيين فرقة شيعية، ويبدو واضحاً الى ان كلا منهما كان يريد الاستئثار بالحكم، فالحمدانيون اخذوا على عاتقهم مهمة الحفاظ على امارتهم في حلب وما يجاورها، والفاطميون يهدفون الى السيطرة التامة على كل بلاد الشام وخاصة حلب لاتخاذها قاعدة لشن هجماتهم على العباسيين في بغداد من جهة، وعلى الروم من جهة ثانية، وعلى الرغم من ان الحمدانيين في بداية الامر تظاهروا برغبتهم في مساعدة الفاطميين، وعرضوا ذلك في كتاب ارسلوه الى القائد جوهر الذي ارسله بدوره الى الخليفة المعز لدين الله وكان في الغرب، ولكنه لم يقبل هذا

العرض، لانه يعرف نواياهم ويأنف من الاعتماد عليهم، وذكر انه كتب الى قائده جوهر كتاباً اوضح فيه موقفه من الحمدانيين بقوله:

« واماً ما ذكرت من ان جماعة من بني حمدان، وصلت اليك كتبهم، يبذلون الطاعة، ويعدون بالمسارعة في المسير اليك، فاسمع لما اذكره لك:

احذر ان تبتدىء احداً من آل حمدان بمكاتبة ترهيباً او ترغيبا، ومن كتب اليك منهم فاحسن اليه ولا تمكن احداً منهم من قيادة جيش ولا ملك طرف، فبنو حمدان يتظاهرون بثلاثة اشياء عليها مدار العالم وليس لهم فيها نصيب. يتظاهرون بالدين وليس لهم فيه نصيب، ويتظاهرون بالشجاعة، وشجاعتهم للدين لا للآخرة، ويتظاهرون بالكرم وليس لواحد منهم كرم في الله... فاحذر كل الحذر من الاستناد الى احد منهم. »

ومهما يكن من امر، فان الامارة الحمدانية في حلب ومنطقة الجزيرة كانت تشغل مركزاً استراتيجياً مهماً بين العباسيين والفاطميين، وهذه المواقع حرص الحمدانيون على الحفاظ عليها للدفاع عن امارتهم، اذ كانوا يعلمون ان الفاطميين يعملون على السيطرة على كل بلاد الشام وخاصة حلب، ومناطق الفرات، وهذا ما دفع الحمدانيين لمساعدة القوى المناوئة للفاطميين وخاصة القرامطة بعهد الحسن الاعصم، وافتكين التركي، وذلك ليحولوا دون نجاح الفاطميين في تحقيق اهدافهم.

وقد ثبت ان صداقة وثيقة قامت بين القرامطة والحمدانيين منذ عهد ناصر الدولة بن حمدان وتدعمت في عهد ولده ابي تغلب الذي لم يكتفِ بتقديم الاموال والمعدات للقرامطة، وانماً قدم اليهم الجنود، كل هذا ويجب ان لا يغرب عن بالنا اقدام الحمدانيين على عقد معاهدة مع البيزنطيين وفيها يتجلّى غضبهم على الفاطميين اذ انهم فضلوا ان يسلموا شؤون امارتهم ومقدراتها لدولة اجنبية مستعمرة على ان يروا فيها اي فاطمي من ابناء جنسهم وعقيدتهم.

ونعود الى ما نحن بصدده، فقد عرضنا في الصفحات الاولى تفاقم

الاحداث في الشام بأواخر عهد الخليفة العزيز بالله، واعتزام هذا الخليفة مباشرة الحرب بنفسه كما فعل لمّاً تصدّى لافتكين والحسن الاعصم لولا ان الموت عاجله في بلبيس وهو على راس جيشه كما ذكرنا، وبعد هذا الحدث الكبير لم يتمكن الحاكم بامر الله من اتمام مهمة والده، وكان من سوء حظ هذا الخليفة وقوعه تحت وصاية برجوان وابن عمّار وكان كل منهما يتزعم فريق جنده خاصة لمقارعة الفريق الثاني، ولم يكن يخطر ببالهما توطيد الامن في المناطق الخاضعة للدولة الفاطمية، بل كان هم كل منهما الانتصار وسحق عدوه، وقد رأينا كيف انتهى ذلك الصراع المرير الذي كلّف الدولة الكثير من الاموال والضحايا، وأضاع عليها الفرص لاتمام رسالتها بغزو بغداد والقسطنطينية معاً واقامة الامبراطورية الفاطمية الكبرى. اماً الوقائع التي وقعت في تلك الفترة فنلخصها بما يلي:

في سنة ٣٨٨ هـ. اضطرمت الثورة في صور ضد الحكم الفاطمي بزعامة بحّار مغامر يدعى «علاقة» فقبض على زمام الحكم فيها، وضرب السكة باسمه، ونقش عليها هذه العبارة: «عزٌّ بعد فاقة للأمير علاقة». وثار في الرملة في نفس الوقت زعيمها المفرج بن دغفل الجرّاح فأرسل برجوان الى فلسطين جيشاً كبيراً بقيادة جيش بن الصمصامة، وجيش هذا كان جندياً جريئاً باسلاً وقائداً مشهودا له بالذكاء والمقدرة، وهو من زعماء كتامة المغربية الذين انضموا الى برجوان ضد ابن عمّار الذي كان ينافسه. فسار الى الرملة واستولى عليها وأخضع ثوارها، وطارد المفرج وضيّق عليه حتى اذعن اخيراً لطلب الأمان، فعفا عنه وأمنه، ومن هناك توجه الى صور، وكان علاقة قد استنجد بالامبراطور البيزنطي باسيل التاني ووعده بتسليم صور اليه، فاستجاب اليه وارسل المدد في البحر، ولكن وحدة من الاسطول الفاطمي اعطيت الاوامر بالتصدي للبيزنطيين، فسارت الى صور بقيادة الحسين بن ناصر وفائق الخادم فحاصرا صور من البر والبحر، ونشبت بين الفريقين معارك عنيفة انتهت بانتصار الجيش والاسطول

الفاطمي، وسقطت صور في ايديهم واسر علاقة حيث ارسل فيما بعد الى القاهرة حيث اعدم، ومماَّ تجدر الاشارة اليه ان اكثر سفن الاسطول البيزنطي وقعت في اسر القوات الفاطمية، وكان ذلك سنة ٣٨٨ هـ.

اماَّ عن علاقة بني الجرّاح الفلسطينيين بالفاطميين فهي علاقة متقلبة لم تكن تثبت على حال... فتارة كانوا يقفون الى جانب الفاطميين ويساعدونهم في حروبهم، وتارة اخرى ينضمون الى اعدائهم، وسبب ذلك رغبتهم الحصول على المال باية طريقة كانت، ويجب ان لا ننسى ان زعيمهم حسّان بن الجراح رافق الحسن الاعصم القرمطي في هجومه على مصر، ولماَّ اغراه الخليفة المعز لدين الله بالمال ترك حليفه، وكان سبباً في هزيمته، ومن جهة فان هذه القبيلة استغلّت فيما بعد وفاة الخليفة الفاطمي الحاكم بامر الله، فهاجموا اطراف البلاد المصرية حتى وصلوا الى الفرما، وعاودوا الكرة مرة ثانية سنة ٤١٥ هـ. حين اختلفوا مع انوشتكين الذي جاء الى فلسطين كوالٍ من قبل الفاطميين فهاجموه واضطروه الى الهرب ثم زحفوا حتى وصلوا الى العريش.

لقد كانت العوامل العامة والخاصة هي التي تدفع بني الجراح الى الوقوف هذا الموقف اثناء حكم الفاطميين لبلاد الشام، فقاموا بثورات في الرملة وطبرية، وكانت علاقتهم بالفاطميين على وجه العموم تتأرجح بين العداء والصداقة فأماَّ ان يساعدوهم او يقفون في وجههم وينضمون الى اعدائهم،متبعين في ذلك ما تمليه عليهم مصالحهم الذاتية وخاصة المادية منها.

ومن الجدير بالذكر انهم في عهد الحاكم بامر الله لعبوا دوراً بارزاً على ساحة بلاد الشام، ولكن من الواضح انهم كانوا في اكثر الاحيان يخضعون لعامل المال، وقد ثبت ان الحاكم بامر الله استعان بمفرج بن دغفل بن الجراح في حروبه مع ابي ركوة في المغرب، وقد استجاب مفرج لهذا الطلب وأرسل اولاده الثلاثة على رأس اعداد كبيرة من العرب المحاربين قدر عددهم بستة عشر الف من الفرسان والمترجلين.

ونعود الى اتمام الحديث عن جيش بن الصمصامة، فانه سار من صور باتجاه دمشق، وكان عليها سليمان بن جعفر، الابن الثاني للقائد جعفر بن فلاح فاتح الشام بعهد الخليفة المعز لدين الله، وكان الحسن بن عمّار قد عينه عليها اثر انتصاره على منجوتكين واليها السابق، فنزعه جيش من الولاية وألجأه الى الفرار، ثم عمل على قمع الفتنة التي اثارها سليمان في دمشق قبل فراره، وبعد ان وطّد سلطة الدولة واصل سيره الى افاميا وهي بلدة على مقربة من مدينة حماه، وهناك التقى بالروم، فنشبت بينهما معركة كبرى هزم فيها الفاطميون اولاً ولكن كوكبة من الفرسان بقيادة بشارة الاخشيدي صمدت في وجه الروم، وفي تلك اللحظات تمكن احد الجنود الفاطميين الفدائيين من اختراق الصفوف والحواجز والوصول الى المعسكر البيزنطي، والوثوب على قائد جيشهم المسمّى «الدوقس» فقتله، وعلى اثر ذلك وقع الاضطراب وعمّت الفوضى صفوف الروم، فاتخذها الفاطميون فرصة سانحة لتعديل مواقفهم، وكان ان حملوا حملة بارعة عليهم ومزقوهم شر ممزق، وظلوا يطاردون فلولهم المشردة حتى ابواب انطاكية.وذكر ان ابناء الدوقس وكبار القواد قد اسروا في تلك المعركة، وارسلوا الى مصر وكان ذلك سنة ٣٨٩ هـ حيث افتدتهم حكومتهم بعد ذلك.

بعد هذه الانتصارات الحاسمة عاد جيش الى دمشق وعسكر في ظاهرها، وكانت خطته تتبع العصاة والمخالفين والقبض عليهم، وبالفعل تمكن من ذلك، وبسط حكم القانون على المدينة، بيد انه لم يلبث ان اضطر الى مواجهة خطر الروم البزنطيين مرة ثانيةً، وذلك ان باسيل الثاني، لمّا رأى ما حلّ بجيشه من الفشل والهزيمة، قرّر ان يسير الى الشام بنفسه، فجاء وعاث في ساحلها ما بين بيروت واللاّذقية فساداً وخراباً، وهنا استصرخ جيش الدولة القاهرة الفاطمية، فأرسلت اليه المدد من كل صوب. وكان باسيل قد قصد طرابلس رامياً احتلالها، ولكن جيش اعدَّ كل شيء للقائه، ونشبت بينهما معارك عنيفة في البر والبحر، ومن الجدير

بالذكر ان بوادر التفوق الفاطمي كانت تظهر جلية في الميادين بعد الخسائر الكبيرة التي كان يمنى بها الجيش البيزنطي اثر كل معركة، وتشاء الظروف ان تصل الى باسيل وهو في غمرة الصراع انباء مزعجة عن تحركات « بلغارية » على حدود دولته، مما اضطره الى الارتداد ميمماً وجهة الشمال، وفي تلك الفترة مرض جيش وتوفي وكان ذلك سنة ٣٩٠ هـ. وبذلك خسرت الدولة الفاطمية المع وأخلص قائد للفاطميين بعد جوهر الصقلي، وقد خلفه في ولاية الشام « فحل بن تميم » وساد الهدوء والامن والاستقرار الشام حيناً.

امّا برجوان فقد رأى ان يهادن الروم لكي يتفرغ لمعالجة الاحداث الداخلية، والقلاقل التي تفاقمت بسبب مواقف الحسن بن عمّار، فأرسل الى الامبراطور باسيل يقترح عليه عقد الصلح والمهادنة، فاستجاب لدعوته، وأرسل سفيراً من قبله الى القاهرة حيث انضمّ اليه بطريرك القدس اريسطيس منتدباً من قبل ابن شقيقته الحاكم بامر الله، وبعد اتمام المفاوضات والاتفاق على الشروط سافر البطريرك الى القسطنطينية للتوقيع على بنود المعاهدة مع القيصر، وهذه المعاهدة حددت مدتها بعشرة سنوات، امّا اريسطيس فأقام في عاصمة بيزنطة كسفير للفاطميين مدة اربعة اعوام حتى توفي فيها.

هذا في المشرق، اماّ في المغرب فقد عصفت بالدولة الفاطمية العواصف، وخاصة في طرابلس الغرب التي اعلنت الثورة على الدولة الفاطمية، فأرسل برجوان قوة كبيرة بقيادة « يانس الصقلي » لاعادة سلطة الخلافة الفاطمية، ومن الجدير بالذكر ان المغرب الادنى وهو طرابلس وبرقة وما يتبعهما كان في ذلك الوقت تحت حكم « باديس بن منصور الصنهاجي »، وغير خافٍ على متتبع التاريخ الفاطمي ان الخليفة الرابع المعز لدين الله، حينما ترك المغرب قاصداً مصر سنة ٣٦١ هـ. استخلف على المغرب « يوسف بن زيري الصنهاجي » او بلكين كما كانوا يسمونه، فقام

بمهمته على اكمل وجه، وساس امور الدولة بحزم، ووطّد سلطان الحكم، ولكنه في ايامه الاخيرة طلب من الخليفة العزيز بالله ان يضيفَ اليه ولاية طرابلس الغرب، وكان المعز لدين الله قد احتفظ بها، وضمَّها الى مصر، فأجابه العزيز بالله الى ملتمسه واستخلفه عليها، ولمّا توفي بلكين خلفه ولده المنصور فأقره العزيز بالله على ولايته الجديدة، ثم خلف المنصور ولده باديس سنة ٣٨٦ هـ. فبعث اليه الحاكم بامر الله بالعهد والخلع المعتادة، فجدد البيعة للحاكم، ولكن يبدو ان آل زيري طمحت نفوسهم وارادوا ان يستأثروا بالسلطة كاملة، وان يجعلوا الفاطميين في المغرب مجرد اسم لا صلاحيات ولا وجود له، ولمّا كانت طرابلس الغرب تجاور مصر من ناحية الغرب، فان الفاطميين خافوا عليها من اطماع اولئك البرابرة الاشداء الطامعين، ولذلك قرر برجوان استردادها وتحصينها واقامة فرقة من الجيش فيها حتى تصبح درعاً يقي مصر شر العدوان والغزوات المحتلة، فتفاهم مع حاكمها المغربي، وبعث اليها يانس الصقلي كما ذكرنا، ولكن باديس استراب من تلك الحركة المفاجأة وبعث الجند لمقاتلة يانس الذي لم يستطع الصمود، فانهزم في اول معركة وسقط قتيلاً في نهاية المطاف، وهنا اضطرَّ الحاكم بامر الله الى ارسال جيش آخر بقيادة يحيى بن علي الاندلسي، فخاض مع المغاربة عدة معارك، اضطرَّ في نهايتها الى الانسحاب وترك طرابلس، وبعد خطوب واحداث ومناورات، استطاع باديس ان يستعيدها، وان يبسط حكمه عليها.

عودة الى الشام:

بعد ان قبض الخليفة الحاكم بامر الله على زمام الامور في الدولة الفاطمية، توفي فحل بن تميم والي الشام،فعيَّن مكانه علي بن جعفر بن فلاح، ثم عين بعده تموصلة بن بكّار سنة ٣٩٣ هـ. فتوفي بعد مدة قصيرة، فخلفه مفلح اللحياني، وفي هذه الاثناء عاد الهدوء والاستقرار الى بلاد الشام وخاصة بعد عقد المعاهدة الفاطمية ـ البيزنطية كما ذكرنا، ولكن

في سنة ٤٠٠ هـ. عادت الاضطرابات من جديد، ففي تلك السنة نقم الحاكم بامر الله على آل المغربي وهم اسرة قوية من الاعيان والوزراء كان لها شأن يذكر في الدولة الفاطمية، ففرّ عميدهم الوزير ابو القاسم بن المغربي الى الشام، وكان كبيرهم ابو الحسن بن على المغربي قد خدم الخليفة العزيز بالله وزيراً في الشام ايضاً، كما اشترك في محاربة بني حمدان امراء حلب ولمّا تولّى الحاكم بامر الله الملك، كان ابو الحسن وولده ابو القاسم من جلسائه وخاصته، ولكن ثبت فيما بعد انهما اشتركا في مؤآمرة ترمي الى الاطاحة بالحكم، فحكم عليهما بالموت، ولكنهما فرّا قبل تنفيذ الحكم ولجآ الى حسّان بن مفرج بن الجرّاح زعيم عرب فلسطين، فأغروه بالخروج والثورة، وكان لآل الجرّاح مخططات ترمي الى التأييد تارةً والمعارضة احياناً بالنسبة للفاطميين، فثار حسّان وزحف على الرملة واستولى عليها وقتل واليها، كما عاث جنده فساداً فيها، واجتمع الخوارج انئذٍ واتفقوا على استدعاء الحسن بن جعفر الحسيني امير الحرمين، ونادوا به خليفة علوياً مكان الحاكم بامر الله، وسموه: امير المؤمنين الراشد لدين الله، وذكر انه نزع ما كان بالكعبة من ذهب وفضة، وضرب النقود باسمه وحرّض ابو القاسم المغربي ايضاً سائر القبائل الحجازية على خلع طاعة الفاطميين، وسار في جمع كبير منهم الى الرملة، وهنا اضطرّ الحاكم بامر الله الى ارسال الجيوش الى فلسطين بقيادة يارتكين العزيزي، فهزم واسر ثم قتل اخيراً، وبعد ذلك استفحل امر بني الجرّاح وبسطوا نفوذهم على جنوبي الشام، وحاصروا حصون السواحل، فرأى الحاكم بامر الله ان يأخذهم باللين والمصانعة، كما بعث اليهم الاموال والتحف والهدايا، فاستجابوا اليه، وعقدوا الصلح وعادوا الى الطاعة، اماّ الحسن بن جعفر الحسيني فعاد الى مكة خوفاً من سوء العاقبة بعد ان اعتذر الى الحاكم بامر الله، فقبل اعتذاره، ثم ان الحاكم بامر الله استمال آل المغربي اليه، وأصدر اماناً للوزير ابي القاسم، ولكنه آثر المضي والاقامة في بغداد . . . وهكذا عاد الهدوء والسكينة الى الشام .

ومماً يجب الاشارة اليه ان سقوط حلب في ايدي الفاطميين وزوال امارة بني حمدان يعتبر من اعظم الاحداث في عصر الحاكم بامر الله، فبنو حمدان كما ذكرنا استعانوا بالبيزنطيين للابقاء على امارتهم وسلطاتهم، واستمروا فترة يؤدون الجزية لامبراطور القسطنطينية بذل وخنوع مفضلين الروم الاجانب على الفاطميين، ومماً هو واضح ان حملات الفاطميين بعهد الخليفة العزيز بالله لفتح حلب لم تؤتِ ثمارها، واخيراً مهّد الصلح الذي عقده برجوان مع البيزنطيين على ارساء قواعد الهدوء واستتباب الامن في شمالي الشام، مع الابقاء على الحمدانيين في عاصمة امارتهم.

ومن الاحداث البارزة في ذلك العهد ان امير حلب، في اوائل عهد الحاكم بامر الله كان ابو الفضائل حمدان الملقب بسعد الدولة، وقد استمّر في حكمها بمعاونة وزيره المشهور لؤلؤ، ولماً توفي سعد الدولة وثب لؤلؤ على ولديه ابي الحسن، وأبي المعالي فانتزع الولاية منهما لنفسه، بعد ان حكم باسمهما مدة من الزمن، واخيراً طردهما من حلب، فسارا الى مصر والتجأ الى الحاكم بامر الله، وعندئذٍ استقل لؤلؤ بالحكم، ولكنه رأى ان يتقي خصومة الفاطميين، فاعلن الطاعة للحاكم بامر الله، ودعا له حيناً، ثم عاد فنقض العهد وعاد الى موقف الخصومة والمقاومة، ولماً قوي صالح بن مرداس الكلاّبي اخذ يتطلع الى حلب.

ففي سنة ٤٠٢ هـ. سار في قواته الى حلب، وحاول ان يدخلها، فردته قوات لؤلؤ واسرته اخيراً ولكنه لم يلبث ان فرّ من السجن، وذهب فجمع قواته، وحاصر حلب زهاء ثلاثين يوماً حتى ضاق اهلها ذرعاً واخيراً خرج لؤلؤ لقتاله فهزم واسر، ولم يطلقه صالح الاّ لقاء فدية كبيرة وبعد شروط تقضي برجوعه عن حلب وتركها للؤلؤ، وفي هذه الفترة نشب خلاف حاد بين لؤلؤ وغلامه فتح قائد القلعة، انتهى بان كتب فتح الى الحاكم بامر الله معلناً طاعته، ودعا له، واعلن الثورة على سيده وعاونه صالح بن على على استخلاص المدينة، ولماً لم يجد لؤلؤ سبيلاً الى الاحتفاظ

بسلطانه، غادر حلب الى انطاكية ونزل فيها على حلفائه الروم وتسلّم فيما بعد نواب الحاكم بامر الله حلب، ثم اختار لولايتها اميراً من امراء بني حمدان يدعى عزيز الدولة فاتكَ الملقب بامير الامراء فحكمها سنة ٤٠٧ هـ . واستمر في حكمها تحت طاعة الحاكم بامر الله حتى نهاية حكمه.

الثورة الكبرى:

ان اعظم حدث وقع في مصر الفاطمية بعهد الخليفة الحاكم بامر الله، وأشدها خطراً وتهديداً على كيان الدولة قيام ثورة «ابو ركوة» وغزواته لمصر تلك الغزوات التي كادت تزعزع اسس الدولة الفاطمية، وتقضي على الخلافة الحاكمية، والمطلعون على الاحوال كانوا يقولون:

ان ابا ركوة اعاد للاذهان ثورة ابو مخلّد بن كيداد الخارجي في المغرب الذي قام بها بعهد الخليفتين الفاطميين القائم بامر الله، والمنصور بالله.

ينحدر ابو ركوة من سلالة الامويين الاندلسيين، وذكر: بان سبب تسميته بهذا الاسم يعود الى ركوة ماء لوضوئه على الطريقة الصوفية كان يحملها دائماً.

اماً سبب مجيئه الى الشرق فغير واضح. فحينما حجر المنصور بن ابي عامر الملقب بالقائد والمتغلب على حكومة قرطبة على الخليفة هشام المؤيد بالله الاموي، وتتبع زعماء بني امية وفروعهم للتخلص منهم فرَّ «الوليد - ابو ركوة» فيمن فرَّ من اعضاء اسرته خوفاً من القتل، وكان عند مغادرته لقرطبة في نحو العشرين من عمره، فاجتاز المغرب الاقصى، وأقام بالقيروان حيناً يعلم الصبيان، ثم سار بعد ذلك الى مصر فدرس فيها الحديث، وبعد ان تجوّل حيناً في الحجاز واليمن والشام، عاد الى مصر، فدرس فيها الحديث مجدداً، ثم نزح الى برقة، واستقرَّ في بطون بني قرَّة اقوى قبائلها العربية، وهناك افتتح مدرسة لتعليم الصبيان، واتشح بثوب

من الورع والتقوى، واجتذب اليه الناس بما كان يظهره من النسك والوعظ وذلاقة اللسان، ونبل الاخلاق.

ومن الجدير بالذكر ان بعض المؤرخين يشك في نسبته للامويين، ويؤكد بانه من الخوارج او بقايا فروع ابو مخلّد بن كيداد الذي مرّ ذكره.

ولمّا قطع ابو ركوة مرحلة التجوال والدرس والاتصال رأى الفرصة سانحة للعمل والدعوة فحسر عن شخصيته، واظهر نسبته مدعياً انه ابن اخ هشام المؤيد الاموي، وزعم بالاضافة الى ذلك انه سيملك مصر، ويقيم الامامة على اسس من العدل والتقوى، ومن المعروف ان بلاد المغرب وقبائله الساذجة كانت دائماً وابداً مهداً خصباً لبث الدعوات الدينية والاستجابة اليها. فاستجاب اليه بنو قرّة والتف حوله البدو القاطنين في انحاء برقة، ومن المعروف ان بني قرّة كان قد اصابهم من المطاردة والضغط والارهاب بعهد الحاكم بامر الله الشيء الكثير، فقتل البعض منهم، وسجن البعض الآخر، فلمّا دعاهم ابو ركوة استجابوا اليه، وهرعت بطون برقة وقبائلها من سائر النواحي تستجيب لهم، وعندئذٍ عقدوا العزم على الجهاد في سبيل الله، واتفقوا ان يكون لأبي ركوة وانصاره ثلث الغنائم، ولبني قرّة وحلفائهم الثلثان.

في هذه الاثناء شعر والي برقة من قبل الفاطميين وكان نيال الطويل بخطورة هذه الثورة العارمة، فهمّ بقمعها قبل ان يستفحل شرها، ولكن الحاكم بامر الله امره بالكف عن محاربة الثائرين، واغفال شأنهم، وقد ظنّ انها ثورة عرقية شعبية تهب ثم تنطفيء، ولكن ظنه قد خاب فأبو ركوة لم يتوقف، بل بادر الى تعبئة قواته، وتزويدهم بكافة المتطلبات القتالية، وبعد ان اتمّ كافة استعداداته، زحف بجيشه على برقة، فخرج قائد حاميتها نيال للقائه، واقتتل الفريقان قتالاً ضارياً في موقع رمادة، وبالنتيجة هزم جيش نيال هزيمة منكرة واستولى ابو ركوة على خيولهم وسلاحهم، ودخل برقة ظافراً، وبسط حكمه عليها دون معارضة وكان ذلك سنة ٣٩٥ هـ.

اجل... احتل ابو ركوة برقة، وأقام في دار الامارة يأمر وينهي، مظهراً العدل والرفق، وكان اول شيء فعله قطع خطبة الفاطميين من المساجد، والطلب الى الخطباء بلعن الخليفة الفاطمي وابائه على المنابر، ولقب نفسه انئذٍ بالثائر بالله، ومن المعروف عن ابي ركوة انه كان فصيحاً، وخطيباً بليغاً يؤثر بالسامع، ويستحوز على مشاعره، حلو الحديث سريع البديهة ،يملك الخبث والدهاء،وأخيراً وبعد ان تمّت له هذه السيطرة ضرب السكة باسمه، وهرعت اليه الوفود من المناطق والاقاليم لتأييده، واعلان الولاء والمبايعة له.

ظلّ القائد نيال الطويل في جهات برقة مع بعض قواته التي تمّ انقاذها في المعركة الأولى، وكانت اخبار الانتصارات قد وصلت الى الحاكم بامر الله، فبادر الى ارسال المدد الى نيال وأمره ان يعود الى برقة للقضاء على الثائر العنيف الذي اعاد الى العالم الاسلامي مسبة «اهل البيت» على المنابر، كما اكد عليه ضرورة استرداد برقة مهما كانت التضحيات، فزحف نيال بعد وصول القوات الفاطمية، وعند وصوله الى قرب المدينة خرج ابو ركوة للقائه، والتقى الفريقان في وادٍ مقفر، وكان ثوار ابو ركوة قد طمسوا اباره، فأجهد العطش جيش الفاطميين، ووقع ما لم يكن يخطر على بال حيما اخذ عدد من الضباط المغاربة والمصريين الناقمين على حكم الحاكم بامر الله يتسللون الى جيش ابي ركوة معلنين رغبتهم بالانضمام الى قواته لمحاربة الفاطميين، فازداد بهم قوة على قوة، واخيراً دارت الدائرة على الجيش الفاطمي، وللمرة الثانية مزقوا شر ممزق، وفي نهاية المعركة اسر قائدهم نيال واعدم، بعد هذا عاد ابو ركوة الى برقة يجر اذيال النصر، وقد امتلأت يديه من الغنائم، واستفحل امره، وازدادت هيبته وسلطانه، وأخذ بعد تلك الانتصارات السريعة الحاسمة يتطلع الى امتلاك مصر، وشجعه على ذلك عدم استقرار الامور داخل الدولة الفاطمية، وفرار بعض القادة العسكريين والزعماء الناقمين على سياسة الحاكم بامر الله والتحاقهم

بقواته امثال « الحسين بن جوهر الصقلي » قائد قواد الجيش الفاطمي الذي فرَّ من القاهرة، ولجأ الى طرابلس الغرب في ظروف غامضة، وكان زعماء المغاربة في تلك الاثناء قد نزعوا ثقتهم من الحاكم بامر الله، وأخذوا يتربصون به الدوائر، ويخططون للقضاء على الدولة التي رعتهم، ووفرت لهم اسباب الحياة الراغدة. اماً بالنسبة لأبي ركوة فقد اتخذ من كل هذا مادة لبناء قواته، وفرصة سانحة لارسال سراياه الى الصعيد اولاً فعاثت فساداً في القرى والمزارع، ونهبتها وقتلت اهلها، علماً بانها لم تلق اية مقاومة، وفي وصوله الى هذه النقطة وجد ان الطريق الى مصر اصبح مفتوحاً وسالكاً، فاندفع بجموعه الثائرة نحو داخل الصعيد، وفي تلك الفترة اتفق مع شركائه على اقتسام تراث الدولة الفاطمية، فجعل من مصر دولة له، وخصَّ عرب بني قرَّة بالشام.

لم يهن الخليفة الحاكم بامر الله، ولم تضعضعه الاحداث، ووصول ابو ركوة الى صعيد مصر، وانماً هاله الخيانة الكبرى التي اقترفها قائد القواد الحسين بن جوهر وبعمله ضرب الرقم القياسي بالخيانة كما سبق لوالده ان ضرب المثل بالاخلاص للدولة الفاطمية.

ومهما يكن من امر فان زحف ابو ركوة على مصر، وتهديدها لم يكن اقل خطراً من زحف القرامطة امس على القاهرة، وهجوم الخوارج على المهدية بعهد الخليفة القائم بامر الله، ولكن من حسن الطالع ان القوى التلاث في كل مرة كان ينقصهم النظام والوحدة والتناسق في الرأي والعمل، والقيادة الحكيمة، وفقدان الهدف، مضافاً الى ذلك ان جيش ابو ركوة كان مزيجاً من البدو والمرتزقة والمتعصبين الذين لا تربطهم اية رابطة سوى رابطة النهب والسلب، وانتظار الغنائم والاسلاب.

هذا من جهة، ومن جهة اخرى، فان الحاكم بعد شعوره بخطورة الاوضاع، وفداحة الاحوال والمبادرات، عمل على استقدام الجيش الفاطمي الذي كان يتمركز بالشام، كما طلب من بني الجرَّاح الفلسطينيين امداده

بقوة من عربهم، وذكر انهم استجابوا لطلبه، وأرسلوا اليه ما يقارب الستة الاف فارس، حيث انضموا الى الجيش الفاطمي الذي عهد الحاكم بامر الله بقيادته العامة الى الفضل بن عبد الله، وهو من القواد المجربين فزحف سنة ٣٩٦ هـ. باتجاه كوم شريك وهي قرية تقع على مقربة من الاسكندرية، وهناك التقى بأبي ركوة فدارت بين الفريقين معارك طاحنة قتل فيها اعداد لا تحصى من الجانبين، ولماَّ رأى الفضل من كثرة جموع الغزاة وشجاعتهم ما هاله، لجأ الى الخديعة، ولوَّح بالاموال، وتفاهم مع بعض زعماء بني قرَّة بعد ان منحهم الاموال والعطايا بطريقة سرية ليكونوا له سنداً، وليتجنبوا القتال ما استطاعوا، واستمرَّت المعارك بين الفريقين ولم ينفع خروج ذلك العدد من بني قرَّة من الميدان، واخيراً رجحت كفة المهاجمين الغزاة وارتدَّ الفضل بجيشه صوب القاهرة، وعند وصول الاخبار الى العاصمة الفاطمية ذعر الناس وسرى الخوف وكان ابو ركوة حينئذٍ قد بلغ صحراء الهرم، وهنا ارسل الحاكم بامر الله جيشه الاحتياطي، وعهد بقيادته الى علي بن جعفر بن فلاح، ولكنه ومنذ المعركة الاولى لم يستطع الثبات امام الجحافل الزاحفة المندفعة، وعند عودته وكان الحاكم قد اعاد تنظيم جيش الفضل المنكسر، فأمر باعادته الى الميدان من جديد وتوقيف الزحف، وكان ابا ركوة قد ارتدَّ صوب صحراء الفيوم، فتبعه الفضل بقواته بعد ان نظمها كما ذكرنا وأعدها، وعززها بالمدد، فاستأنف القتال، ودارت رحى المعارك بضراوة، واخيراً كان لا بد لأبي ركوة من خوض المعركة الاخيرة التي اعدها وجهَّز لها الفضل كل شيء، وفي نهايتها هزم ابو ركوة، وتمزقت جموعه، وتناثرت قواته في البراري، ولكن الفضل لم يفسح لها المجال لاعادة تجمعها فتبعها وسد عليها منافذ الهرب، وفي تلك الفترة كان يرسل للقاهرة برؤوس القواد والزعماء الذين خانوا مصر الفاطمية، وفضلوا اللجوء الى الثوار.

اماَّ ابو ركوة فقد ارتدَّ جنوباً، ولكن الفضل ظلَّ يطارده حتى حدود

بلاد النوبة، وهناك قبض عليه، وحمل الى القاهرة.

بعد تلك الانتصارات الحاسمة التي حققها القائد فضل كان لا بد له من الرجوع الى القاهرة، فخلع عليه الخليفة الحاكم بامر الله، وغمره بعطفه، واقيمت الاحتفالات والمهرجانات في طول البلاد وعرضها، اماً بالنسبة لأبي ركوة فانه جيء به امام الحاكم بامر الله، وعندما وصل خَرَّ ساجداً وقبل الارض، والتمس الصفح وقدم اليه رقعة عليها هذه الابيات:

فررتُ فلم يغن الفرار ومن يكن ... مع الله لم يعجـزه في اللـه هـاربُ
والله مـا كـان الفـرار لحاجـةٍ ... سوى فزع الموت الذي انا شـارب
وقد قادني جرمـي اليـك بـرمتي ... كما هزَّ ميت في رجا الموت سارب
وأجمع كل النـاس انـك قـاتلي: ... فيـا رب ظـن ربما فيـك كـاذب
ومـا هـو الاَّ الانتقـام وينتهـي: ... وأخذك منه واجـب لـك واجـب

بيد ان الحاكم بامر الله لم تأخذه بالثائر اية رأفة، فأمر بمعاقبته والتنكيل به، على اعتباره كان سبباً بخراب العديد من المدن والقرى وتشريد سكانها، فضلاً عن الضحايا التي سقطت في ميادين القتال، مضافاً الى تكبيد الدولة الفاطمية الاموال ونفقات القتال، والانكى من كل هذا اعادة مسبة اهل البيت على المنابر، فطيف به في شوارع القاهرة، في هيئة زريَّة، ومن ورائه سعدان مدرَّب كانت مهمته صفعه كلما رفع رأسه، ولماَّ مرَّ الموكب بمنظرة الذهب حيث كان الحاكم بامر الله جالساً مع اركان الدولة لمراقبته استغاث ابو ركوة بالحاكم بامر الله، فلم يصغ اليه، وهكذا لم يصل الى ظاهر القاهرة الاَّ جثة هامدة، وقيل انه مات بالسكتة القلبية واخيراً قطع رأسه، وصلب في الميدان الكبير، واسدلت الستائر على الشخصية التي اقضت مضاجع الدولة الفاطمية.

ان تلك الثورة العنيفة اعتبرها المؤرخون من اعظم ما تعرَّض له الحاكم بامر الله في مدة خلافته، وقد قدَّر هؤلاء بان الانتصار الحاسم لم يتحقق

الاَّ بفضل ثبات هذا الخليفة وحزمه ورجولته ومتانة اعصابه، وصبره الطويل.. وكنا ذكرنا ان تلك الثورة لم يكن لها شبيه الاَّ ثورة الخوارج التي قادها مخلَّد بن كيداد بعهد الخليفتين الثاني والثالث القائم بامر الله والمنصور بالله في المغرب، وثورة القرامطة وأفتكين بعهد الخليفتين المعز لدين الله والعزيز بالله.

تعليقات وآراء:

مماَّ لا شك فيه، ان بلاد الشام منذ ان حطَّ الفاطميون فيها الرحال بعد افتتاحهم مصر، ونقل قاعدة ملكهم من المغرب الى القاهرة... هذه البلاد لم تهدأ... فالصعاب تنبعث من كل مكان والاضطرابات تذر بقرنها يوماً بعد يوم، فأهل الشام كما هو معلوم من سلالات عربية مختلفة كانت تتوزعهم قبائل كبيرة سكنت الشام قبل الفتح الاسلامي، مثل الطائيين والكلبيين، فضلاً عن القبائل الاخرى. التي جاءت مع القرامطة من العراق والخليج وعمان حينما غزوا الشام، ومصر، وفيهم فروع من سليم وبني هلال وغيرهم.

وحين نستعرض الاوضاع التي كانت سائدة في بلاد الشام قبل الفتح الفاطمي نرى ان هذه البلاد كانت اجزاؤها موزعة بين عدد من الدويلات والامارات القبلية، لان الدولة العباسية الحاكمة لها كانت تمر بفترة ضعف وانهيار

ومن الجلي الواضح ان الفاطميين لم يفعلوا عند محاولتهم فتح بلاد الشام الاَّ ما فعله قبلهم كل من قدر له ان يحكم بلاد الكنانة سواء في العصر القديم او في العصر الاسلامي. فحكام مصر على الدوام يرون ان تأمين حدود بلادهم لا يتم الاَّ باستيلائهم على بلاد الشام واتخاذها قواعد لرد الهجمات التي تأتي من ناحية الشمال، والفاطميون اتبعوا نفس الطريق وزادوا على ذلك بان رأوا ان لا بد لهم من السيطرة على بلاد الشام

كمرحلة ضرورية لتحقيق هدفهم الأول وهو القضاء على الدولة العباسية، ولكنهم في هذه المرحلة البدائية فشلوا في تحقيق هذا الهدف ذلك انهم عجزوا عن تحويل اهل الشام الى مذهبهم الفاطمي، كما ان القوى التي تجندت لمناوئتهم كانت عديدة ذات اهمية وفاعلية، اماً القوى الخارجية كالعباسيين والبيزنطيين فانهم بذلوا كل امكانياتهم لمنع الفاطميين من تحقيق حلمهم، وتأتي القوى المحلية المتمثلة في القبائل العربية، وكانت قد استيقظت من سباتها العميق، وبرزت الى ميدان الاحداث تأخذ دورها، بعد ان حالت القوى الحاكمة من العباسيين وغيرهم دون وصولهم الى اهدافهم.

ومن الجدير بالذكر ان القائد الفاطمي الأول جعفر بن فلاح الذي فتح بلاد الشام حاول ضرب القبائل العربية ببعضها البعض، وافتعال الخلافات بينها، فحرَّض قبيلتي مرة وفزارة على العقيليين مماً دعاهم الى الفرار من وجه الفاطميين، وقد اضطرَّ زعيمهم ظالم بن موهوب العقيلي الى الفرار الى البحرين حيث انضمَّ الى القرامطة وزيَّن لهم الهجوم على بلاد الشام.

ويجب ان لا ننسى دور اهالي دمشق ووقوفهم في كافة الاوقات ضد الفاطميين وكل ذلك بسبب الخلاف الديني، وبقاء رواسب الاحقاد الكامنة، ومن المعروف ان دمشق اشعلت عدة ثورات ضد الفاطميين، وفي كافة الاحوال كانوا يستعينون بقوى اجنبية احياناً.

وفي شمالي الشام حيث وجدت «الحمدانية» وهي اسرة ارستوقراطية من العرب العدنانية وهم بطن من تغلب بن وائل اعظم بطون ربيعة بن نزار. وكانت تغلب تقيم في بادية الشام، فلماً ضاقت البادية بالقبائل التي نزلت فيها اضطرَّت تغلب على تركها والنزوح الى ديار ربيعة في الجزيرة العربية بجهات سنجار ونصيبين، وديارهم هذه تعرف بديار ربيعة في الجزيرة الفراتية، بينما نزل بنو بكر في شمالي المنطقة بمكان يعرف بديار بكر، وقد اعتنق بنو تغلب الديانة النصرانية وغلب عليهم ذلك لمجاورتهم الروم، وعلى

الرغم من ذلك فان بعض رجالهم اعتنق الاسلام بعهد الرسول الكريم محمد، (ﷺ) ولكن ظلّت غالبيتهم على مذهب النصارى ولذلك حاربوا في صفوف البيزنطيين، ولكن تغلب ما لبثت ان شعرت بواقعها واصلها العربي فحاربت في صفوف العرب وشاركتهم في فتح العراق، كما شاركت المثنّى ابن حارثة في حربه ضد الفرس، وهكذا بالنسبة لسعد بن ابي وقّاص، وفي عهد الامويين عرف عنها مشايعتها ومشاركتها في حروبهم، امّا في اوائل العصر العباسي فقد ضعف امرها، ولكنها استعادت اعتبارها واستيقظت وأقامت الدولة الحمدانية تحت ظل العباسيين، ولكنها ايضاً ظلت تحافظ على مبادئها الشيعية الباطنيّة الاثنا عشرية، وانحصرت مهمتها بحماية الحدود وثغور المسلمين من البيزنطيين، ولها في هذا المجال حروب ومعارك طويلة، ولكنها في نهاية المطاف ارتمت في احضانهم وفضّلت استعمارهم على الرضوخ للفاطميين كما ذكرنا.

ومهما يكن من امر فان هؤلاء الحمدانيين لم يستطيعوا المحافظة على عهودهم للدولة العباسية واغتنموا فرصة ضعف خلفاء هذه الدولة فجنحوا الى الاستهتار والانغماس في حياة الترف والنعيم، فبنوا القصور المنيفة وجهزوها بالرياش والاواني والحدائق، وجلبوا لها الجواري والمغنيات والقيان من بلاد الروم وافسحوا المجال لهنّ لقضاء الليالي العابثة والقصف والغناء مقلدين في ذلك العباسيين في طريقة حياتهم ومماً يجب ان يذكر ان سيف الدولة الحمداني حوّل نهر قويق الى قصره، وجلب له الاواني والتماثيل من بلاد بعيدة، وعلى الرغم من هذا فان هذا الامير كان شاعراً وعلى جانب كبير من الادب والثقافة، وقد ازدهر الشعر في عصره، وراج سوق العلم، فقصده العلماء والفلاسفة والشعراء من كل مكان، وهو بدوره عطف عليهم، وأجرى الارزاق، ومنحهم العطايا مماً لم يسبق لغيره من الملوك والامراء.

ونعود الى اتمام الحديث عن ابي ركوة وثورته فنقول:

بدأ ابو ركوة اعماله التورية في منطقة برقة، بعد ان جمّع عناصر من البربر ومن العرب، وشارك في ذلك الزناتيون المغاربة المعروفين بعدائهم التقليدي للفاطميين، فاستولوا على عدد من القرى والمدن، ثم اتجهوا الى قرنه، فحاول اهلها الدفاع عنها، ولكن القبائل البربرية الجائعة اقتحمتها، وقتلت كل من فيها، ثم ساروا بعد ذلك نحو برقة نفسها، فقاتلهم عسكرها قتالاً شديداً، ودفعوهم عن المدينة في باديء الاخر، وفي اثناء ذلك برز الى الساحة عسكر من البربر المغاربة اللواتيين وهؤلاء من المؤيدين للفاطميين، فأسرع ابو ركوة الى الاشتباك معهم، ووقع بينهما قتال شديد، اضطر اللواتيون الى الهزيمة والتفرق في الشعاب، وهنا عاد ابو ركوة من جديد وفرض على برقة حصاراً شديداً، وكان اهلها قد بنوا سوراً حولها وخندقاً، واعتصموا بالاسوار وقاتلوا قتالاً شديداً ولم يستطع ابو ركوة اقتحام الاسوار بالرغم من استعماله المنجنيقات لدك الاسوار، وذكر انه ضيّق على اهلها الحصار، فاشتد بهم الجوع، حتى ماتت المواشي والخيول، وبقيت برقة عدة شهور تحت الحصار.

وعندما جهّز الحاكم بامر الله جيشاً من المشارقة بقيادة نيال الطويل التركي، نادى ابو ركوة بالرحيل ورفع الحصار عن برقة، وجاء نيال الذي لم يكن يعرف طبيعة الارض التي يحارب عليها فتبع ابو ركوة وقصده الدخول معه في معركة، ولكن جيشه ضلّل نيال، فسار بين تلال عالية وأودية سحيقة وممرات ضيقة واعتصم القسم الاكبر فيها، فتبعهم نيال وعندما توغل هو وجيشه في هذه الاراضي العسيرة قطعوا عليه الطريق وحصروه في وادٍ ضيق وكانوا يلقون عليه الصخور من اعلى التلال، واخيراً قادوه الى موقع يعرف بعيون النظر، وهناك اجهز جيش ابو ركوة على الجيش الفاطمي، اماً قائده نيال فوقع اسيراً، وذكر انه عندما جيء به الى ابي ركوة امره بان يلعن الحاكم بامر الله كشرط للافراج عنه، فبصق في وجهه، وهنا امر ابو ركوة بقتله وتقطيعه اربا ارباً.

بعد هذا الانتصار الساحق سلمت برقة لابي ركوة، فلما دخلها قتل كل من كان فيها من الفاطميين واتباعهم، كما اعمل فيها نهباً وسلباً، في هذه الاثناء ارسل الحاكم بامر الله جيشاً اخر بقيادة فاتك ولكنه هزم ايضاً في موقعة الحمام.

واخيراً زحف ابو ركوة وكان قد سكر بخمرة النصر باتجاه الديار المصرية، وفي قواته عرب بني قرَّة الذين كانت مواطنهم في البحيرة وقرب الاسكندرية. فجهَّز الحاكم بامر الله جيشاً فاطمياً قوامه الترك والديلم والسودان، وعرب بلاد الشام، فهزم ابو ركوة بعد سلسلة من المعارك في الفيوم، وعندما اراد تغطية فشله بالذهاب الى الجيزة قاومه اهلها وهزموه، فعاد الى الصعيد وكان جيشه حينئذٍ يقدر بسبعين الف مقاتل، ولكن في معركة راس البركة وهي آخر معركة دارت الدائرة عليه، فانهزم الى بلاد النوبة، ولكن ملكها روفائيل قبض عليه وسلَّمه الى القائد فضل الذي جاء به الى القاهرة حيث لقي مصيره.

ومما تجدر الاشارة اليه ان آل الجرَّاح وهم من عرب فلسطين ابلوا البلاء الحسن بالقتال، كما انهم ساهموا في القبض على القائد الحسين بن جوهر الذي ذكرنا خبر فراره من الجيش الفاطمي، والتحاقه بجيش ابي ركوة، وبعد ان لقي ابو ركوة مصيره وفشل في ثورته خاف الحسين على نفسه فهرب الى الشام حيث اعتصم في منازل آل الجرَّاح وكان في الوقت ذاته يدبر امر الهرب الى باسيل امبراطور الروم، فكتب الى والي انطاكية يستأذنه في المجيء اليه ولكن الحاكم بامر الله سمع بما يخطط له ابن جوهر فكتب الى ابن الجرَّاح واغراه بمائتي الف دينار اذا هو نجح في القبض عليه، فجاء ابن الجرَّاح وبالاتفاق مع حاكم دمشق وقبض عليه، ولم يسلمه للحاكم بامر الله، ولكنه ارسل اليه راسه.

وننتقل بعد هذا العرض الى المغرب لنرى موقف حكامها من قبل الفاطميين آل زيري الصنهاجيين، فهؤلاء لم يذكر انهم تحمسوا للفاطميين

وخاصة للحاكم بامر الله اثناء ثورة ابي ركوة، بل كان .موقفهم فيه الغموض والتريث وأغلب الظن انهم كانوا يرغبون ويتمنون سقوط دولة الحاكم بامر الله وذلك ليصفو لهم جو المغرب ، ومن جهة ثانية فانهم في تلك الفترة لم يخفوا امتعاضهم من معاملة الخليفة الفاطمي للمغاربة خاصة. فقد ذكر ان باديس بن زيري لمّاّ وصل الى القاهرة سنة ٣٩٦ هـ. وكان في طريقه الى الحج، وكانت في تلك الفترة ثورة ابي ركوة على اشدها، وفي مجلسه مع الخليفة الحاكم بامر الله سأله الحاكم رأيه في ابي ركوة؟ فعظّم باديس حاله وذكر قواته وكثرة جموعه... وكان الحاكم بامر الله خلال ذلك يصغي اليه وهو صامت لا يرد... وعند اوبته من الحج اخَّره الحاكم بضعة ايام في القاهرة ليشهد الافراح التي اقيمت بمناسبة الانتصار على ابي ركوة، وليرى بعينه مصير هذا الثائر المتعصب، وقصد الحاكم بأمر الله من ذلك ان يدخل الرهبة الى قلبه، وان يعطيه درساً مبطناً عن مصير كل من تحدثه نفسه الخروج على ارادته وعصيان اوامره.

ومهما يكن من امر، فان المغرب بقي مرتبطاً برباط الود التقليدي بالدولة الفاطمية، ففي سنة ٤٠٠ هـ. زحف باديس الى طرابلس الغرب، وأخرج منها قبيلة زناته، وفي سنة ٤٠١ هـ. ارسل الحاكم بامر الله هدية الى باديس وابنه المنصور، فتلقوها بالبنود والطبول، وفي سنة ٤٠٤ هـ. وصلت سجلات من الحاكم بامر الله باضافة برقة وما يجاورها الى باديس. وفي سنة ٤٠٥ هـ. ارسل باديس هدايا للخليفة الحاكم بامر الله، كما ارسلت اخته هدية ثمينة الى الاميرة ست الملك، وكل هذا يدل على ان آل زيري ظلوا على عهدهم بالحفاظ على سلطة الفاطميين فيما يتعلق بالمغرب.

اماّ صقلية فحافظت ايضاً على ولائها للدولة الفاطمية بفضل سياسة الكلبيين وخاصة بعهد يوسف وابنه جعفر، وكان الحاكم بامر الله قد منح يوسف لقب ثقة الدولة، وولده جعفر تاج الدولة، ولماّ اسقط الحاكم بامر الله جميع الألقاب في الدولة الفاطمية، ابقى على هذين اللقبين.

ومن الجدير بالذكر انه سنة ٤٠٥ هـ. قام المغاربة في صقلية بثورة، فتغلب عليهم جعفر، ولكنهم عادوا ثانية واشترطوا على يوسف ابعاد ابنه جعفر الى مصر، فأرسله الى الحاكم بامر الله، وولّى بدلاً عنه ابنه الثاني احمد المعروف بالأكحل، وقد ظلّ على ولائه للفاطميين، ولم يتغيّر حتى آخر حياته.

النظم الادارية والقوانين في الدولة الفاطمية:

امتازت الدولة الفاطمية وخاصة في عهد الحاكم بامر الله بنظمها الجديدة الفريدة والغريبة على المجتمع، وهذه النظم التي سبقت عصرها ابتدعها الخلفاء الفاطميون الذين عرفوا بثقافتهم الواسعة وبعد نظرهم وتطلعهم الى تطبيق مبادىء الرقي والتطور والتقدمية، فتلك النظم كانت جديدة ومبتكرة في قواعد الحكم والادارة. فالشعب المصري لم يشاهد مثلها او يسمع بها من قبل، ومن الواضح ان مصر عاشت في ظلها زهاء قرنين كاملين.

فمما لا ريب فيه ان الدولة الفاطمية نشأت باديء ذي بدء في قفار المغرب كدولة عسكرية ساذجة بدائية تقوم على مجموعات من القبائل، ولكن لماً اتسعت رقعتها، وعظم سلطانها بافتتاح مصر والشام ادرك الخلفاء الذين يحكمونها بحاجتهم الى التوسع في النظم السياسية والادارية التي يقوم عليها هذا الملك الواسع، ولم يكتفوا بالاعتماد على الخطط العسكرية والدينية والمدنية المعروفة والسائدة في المجتمع، بل جعلوا اعتمادهم على النظم والاصول والخطط الدستورية التي تعتمدها الامم الراقية، واضعين نصب اعينهم الحاجة الماسة ووضع البلاد، وحالة المجتمع، والاهداف، والتطلعات، فكانت الوزارة وهي اول رتبة اوجدها الفاطميون في عهدي المعز لدين الله، والعزيز بالله، وقد عرف بان الخليفة كان يتولّى بنفسه ادارة جميع الشؤون الادارية والمالية والعسكرية، دون مساعدة احد الاّ

بعض رؤساء الدواوين، ومن المعروف ايضاً ان اول وزير في الدولة الفاطمية اخذ صفة الوزارة الرسمية هو يعقوب بن كلس وذلك سنة ٣٦٨ هـ.، ومن ذلك الحين قامت خطة الوزارة، بيد انها كانت تأخذ اسماء اخرى، فتارة يسمّى رجل الدولة الأول بعد الخليفة وزيراً، وتارة وسيطاً، واخرى سفيراً، وفي بعض الاحيان اميناً او قائداً. اماّ الصلاحيات فواحدة، وهي لا تخرج عن كونها مهمة يضطلع بها كبير رجال الدولة، والمرجع الأعلى، وصاحب الحق بالتوقيع عن الخليفة، والبت في جميع الشؤون الهامة على يد مختلف الكتاب واصحاب الدواوين.

وفي اواخر عهد الحاكم بامر الله اعيدت صفة الوزارة فتولاها لأول مرة علي بن جعفر بن فلاح وذلك سنة ٤٠٨ هـ. ولقب وزير الوزراء ذو الرئاستين الأمير المظفَّر قطب الدولة، واستمرت خطة الوزارة على حالها حتى اواخر عهد الخليفة الفاطمي الثامن المستنصر بالله، وعلى الغالب كان يتولاها رجال مدنيون او اصحاب اقلام الاّ في الظروف الاستثنائية فكان يعهد فيها الى رجال السيف مثل برجوان، والحسين بن جوهر الصقلي قائد القواد والحسن بن عمّار، وعلي بن صالح الروزباري.

والى جانب الوزارة، وهي خطة الحكم العليا كانت ثمة عدة مناصب عسكرية وادارية عليا ومنها: وظيفة صاحب الباب، او حاجب الحجاب، وهذا يلي الوزير الاول في المرتبة وكان له صلاحية النظر في المظالم، وهذا المنصب لم يكن موجوداً الاّ في ظل الوزارة المدنية، اماّ في وزارة اصحاب السيف فكان الوزير الأول هو الذي يتولّى النظر في المظالم.

ومنها وظيفة الاسفهسلار وهو القائد الاعلى للجيش، وكان منوط به النظر في امر الجند، وجميع الشؤون العسكرية كتنقلات الضباط والقواد واعداد الكتائب وتوزيعها في المناطق، وتهيئة الحملات الحربية وغير ذلك.

وهناك مجموعة من الموظفين المختصين بخدمة الخليفة خاصة مثل: حامل المظلة، وحامل السيف، وحامل الرمح، ويتبع هؤلاء حملة السلاح او

الركابية وصبيانهم، وهم فرق من الحرس الملكي، وكان هناك ايضاً ولاية القاهرة، وولاية مصر (الفسطاط) وهذان المركزان مرتبطان مباشرة بالوزير الأول.

واماً الدواوين فهي تمثل مختلف الوزارات في عصرنا، فقد كانت تشمل:

ديوان الانشاء والمراسلات، ويتولاها اشخاص من ذوي المكانة والامانة فضلاً عن ان المفروض فيهم القدرة على الكتابة وامتلاك ناحية اللغة العربية، ولهؤلاء الكتاب رئيس يعرف بكاتب الدست الشريف، وينعت بالأجل، ومهمته النظر في المكاتبات الصادرة والواردة والرد عليها بعد عرضها على الخليفة واستشارته في كتير منها، ويعاونه عدد من اكابر الكتاب منهم:

صاحب التوقيع بالقلم الدقيق في المظالم، وهو يلي الرئيس في المرتبة، وله عند الخليفة مكانة خاصة لانه جليسه وقارؤه ويأتي بعده صاحب التوقيع بالقلم الجليل ومهمته الاشراف على تنفيذ ما يوقع به صاحب القلم الدقيق. وكانت المظالم ترفع اولاً الى صاحب القلم الدقيق فيوقع عليها بما يقتضيه امر الخليفة او الوزير الأول، او بما يراه هو، ثم تحمل الى صاحب القلم الجليل فيفصل فيها بما اجمله الأول، وبعدئذٍ تحمل الى الخليفة فيوقع عليها ثم تسلم الى اربابها، تمهيداً لتنفيذ ما فيها.

وهناك ايضاً ديوان الجيش، والرواتب، ولا يتولاه سوى المسلمين المقربين جداً من الخليفة، وصاحبه يكون مرجعاً لشؤون الجند، والخيل، والاقطاعات، ويلحق به ديوان الرواتب، وهو مختص بالنظر في الارزاق والجرايات، وديوان الاقطاع وهو المختص بالنظر في شؤون الاقطاعات، وديوان الجهاد ويقال له: ديوان العمائر، ويختص بالنظر في امر الاساطيل البحرية الحربية والمدنية وانشائها وتسييرها والانفاق على رجال البحر. ومن المعروف انه كان للدولة الفاطمية عناية خاصة بانشاء الاساطيل وحماية

الثغور ولا سيما سواحل بلاد الشام التي كانت عرضة للغزوات البيزنطية .

وبعد هذا يأتي ديوان المجلس، وهو مرجع الدواوين كلها ، وفيه عدة كتاب يختص كل منهم بمجلس منفرد ويتولّى صاحبه التحدث في شؤون الاقطاعات والارزاق لدى الخليفة مباشرة، وديوان النظر، وهو ديوان المال، ويتولاه عادة وزيرٌ ثقة تعود اليه صلاحية النظر في شؤون الاموال العامة للدولة، وضبط الداخل والخارج، والمحاسبات، وديوان التحقيق ويختص بالمقابلة على الدواوين الآخرى ، ومراجعة اعمالها ، والتحقق من انتظامها كما يدل على ذلك اسمه ، وديوان الاحباس او الاوقاف ويختص بالنظر في شؤون الأحباس العامة والخاصة ، والاشراف على غلتها ، وانفاقها في وجوهها الشرعية، وديوان المواريث ويختص بشؤون المواريث وضبط احكامها . وكان في الدولة الفاطمية ايضاً ثلاثة دواوين ادارية لها اهميتها وهي :

ديوان الصعيد، وديوان اسفل الارض، او الوجه البحري، وديوان الثغور، ويعنى كل منها في شؤون الاقاليم الادارية التي تدخل في اختصاصه ، واماً الوظائف الدينيَّة فكان اهمها واعظمها قدراً :

منصب قاضي القضاة.... فقاضي القضاة هو اعظم زعيم ديني في الدولة، فاليه مرجع الاحكام الشرعية في المعاملات والعبادات والحدود، واعني بذلك الشؤون الدينية والمدنية والجنائية والنظر في شؤون السكة = دار المضرب = فضلاً عن شؤون المساجد وأئمتها وموظفيها وسائر المتصرفين فيها ، وكان اختصاصه يشمل مصر والشام والمغرب والحرمين، ومركزه العام في القاهرة المعزّية، وله نواب يختارهم للقضاء في الاقطار الاخرى، وعادة يصدر مرسوم تعيينه من الخليفة بالذات هذا اذا كان الوزير من رجال القلم، اماً اذا كان من وزراء السيف، فان مرسوم تعيينه يصدر من الوزير مباشرة .

ومن الوظائف الدينية الهامة منصب المحتسب واختصاصه الامر

بالمعروف والنهي عن المنكر على قاعدة الحسبة، ويدخل في اختصاصه الاشراف على الآداب العامة، ومراقبة اماكن اللهو والنساء العابثات وضبط شؤون المكاييل والموازين ومراقبة احوال المطاعم والمشارب العامة ومطابقة اسعارها ونظافتها، والسهر على نظافة المساجد وانارتها وحمايتها من غشيان الباعة والمتطفلين، وتنفيذ السجلات الخاصة بالذميين وفيما فرض عليهم، وتأديب المخالفين وزجرهم، وله نواب في سائر الاقاليم يقومون عنه بمثل هذه المهام وكانت اعمال الحسبة تسند احياناً الى متولي الشرطة، والظاهر ان نظام الحسبة يشبه في كثير من الوجوه نظام النيابة العامة في عصرنا، فالمحتسب يشبه في مركزه واختصاصاته في بعض الوجوه مركز النائب العام.

وهناك ايضاً وايضاً وكالة بيت المال، ويتولاها ثقة من رجال الاختصاص، ويفوض اليه الخليفة النظر في شؤون المالية، وبيع ما يرى بيعه، ويرى ما يرى ابتياعه من المتاع، والنظر في شؤون الرقيق، وانشاء ما يحتاج اليه الخليفة من الابنية والسفن وما يختص به.

وكان الى جانب كل هذه المناصب والاختصاصات، مناصب تختص بخدمة الخليفة والقصر وقد اشرنا اليها . . . وأهمها :

حامل المظلة والسيف والرمح بيد ان اهمها وظائف الاساتذة «المحنكين» ومنهم صاحب المجلس وهو الذي يتولّى الاشراف على المجلس الذي يجلس فيه الخليفة، واخطار رجال الدولة بحضوره وهذا المنصب يشبه الى حد ما منصب مدير المراسيم في عصرنا، ثم صاحب الرسالة وهو الذي يتولّى ابلاغ رسالة الخليفة الى الوزير او غيره من كبار رجال الدولة، ثم متولي القصر وهو الذي يشرف على شؤون القصر بوجه عام، وصاحب الدفتر المعروف بدفتر المجلس، وهو المتحدث على الدواوين الجامعة لشؤون الخلافة، وحامل الدواة - اي دواة الخليفة، ومتولي زمام الاقارب وهو المشرف على شؤون الاسرة الفاطمية، واعضائها، وزمام

الرجال وهو المختص باعداد طعام الخليفة، والنظر في شؤون الخدم ومستخدمي القصر وعبيد الخليفة، وهناك الطبيب الخاص ويعاونه عادة اطباء آخرين ينتقيهم بنفسه ويكونون تابعين له، ثم قرآء الحضرة وهم الذين يقرأون القرآن بحضرة الخليفة، اماّ الشعراء فيتبعون ديوان الانشاء.

وقد انشئت في عهد الخلافة الفاطمية ولأول مرة هيئة رسمية خاصة مهمتها النظر في شؤون الاسرة العلوية التي تنتسب الى « آل البيت » وعرفت هذه الهيئة يومئذٍ اي بعهد الخليفة الحاكم بامر الله « بنقابة الطالبيين » وفي العصور المتأخرة عرفت « بنقابة الاشراف » ولا تزال قائمة في بعض البلدان الاسلامية حتى يومنا هذا، وكان يتولّى النظر بشأنها احد اكابر شيوخهم وأجلهم قدراً، ومهمته تنحصر بالسهر على صحة الانساب والتصديق عليها، ورعاية شؤون افراد الاسرة وقضاء مصالحهم وعيادة مرضاهم، والسير في جنائزهم، والعمل على توثيق اواصر الوفاق والمحبة فيما بينهم.

النهضة العلمية في
عهد الحاكم بامر الله

قامت الدولة الفاطمية في المغرب وفي مصر على دعائم من العلم والثقافة والعقل. وعندما نعود الى الوراء ونستعرض مابناه وحققه اباء وأجداد الحاكم بامر الله في مجال العلم نقف خاشعين مقرين بهذا التفوق وتلك الرغبة التي كرسوا لاجلها حياتهم ووجودهم.

ولاغروَ فان العلوم والثقافة ازدهرت ازدهاراً كلياً في مطلع القرن الرابع الهجري، ففي تلك الفترة رفع البويهيون والحمدانيون لواء العلم والادب في المشرق، كما ساهم العباسيون والاندلسيون في ذلك ولكن الفاطميين كانوا اكثر رغبة واندفاعاً في هذا السبيل، وما ذلك الاّ لانهم كانوا يعتقدون بان كل نهضة علمية، لا يمكن لها ان تصل الى مستوى السبق والازدهار الاّ اذا تولتها ايدي احفاد الرسول الكريم محمد (ﷺ).

هذا ومن جهة تانية فان الاسماعيليين كانوا يعتقدون ايضاً بان الامام هو مصدر العلم والعرفان، وانه هو «المعلم».

هذا .... ومن الجدير بالذكر ان الخليفة الفاطمي التالث المنصور بالله اشتهر بسعة اطلاعه، ولم تشغله مهام الخلافة واعباء الحكم عن البحث والتأليف، وقد تبت انه كثيراً ما كان يحتم على ابنه وولي عهده المعز لدين الله بان يتوفر على الدرس والتحصيل والتزود من العلم، وليس هذا وحدهُ بل حرص على حث العلماء على الاستزادة من العلوم ومواصلة البحث والدراسة.

ومن الواضح ان مكتبة الفاطميين التي كانت في المنصورية بالمغرب ثم انتقلت الى القاهرة المعزَّية كانت زاخرة بالكتب ومفتوحة الابواب لكل طالب وراغب، ومن المشهور عن الخلفاء انهم كانوا يعقدون المجالس العلمية، والندوات الثقافية، فيحضرها رجال الدولة والعلماء والادباء فيظهرون مقدرتهم والمامهم بالفلسفة وعلم التأويل والفقه والحديث والطب والهندسة وعلم الفلك، ومن جهة اخرى يستحثون الرعية على التزود من العلم وفقاً لطريقتهم ومبادئهم التي تنص بانه من الخير لهم ان يحكموا شعباً مثقفاً وان تنالهم من ذلك المتاعب على ان يحكموا شعباً جاهلاً متخلفاً.

وشجعوا العلماء وقربوهم واجروا عليهم الاموال والارزاق، وفتحوا مكتباتهم في القصور للعلماء ولطلاَّب العلم، وأباحوا لهم الاطلاع على الكتب ودراستها واستنساخها والتفقه فيها، كما اباحوا لهم سماع المحاضرات من كبار العلماء في القاعات والمساجد التي هيأوها لهذا الغرض، وبالاضافة الى كل ذلك فقد كان لهم مجالس خاصة خارجة عن هذا النطاق، وتسمَّى مجالس الحكمة وهي خاصة بتعاليم الدعوة الاسماعيلية، ففيها كان الدعاة يتولون شرح ما غمض من كتب الباطن والتأويل والفلسفة والالهيات، حتى ان هذه المجالس كانت جزءاً من مخططات الدولة، وكان لها اثرها البارز في سير الدعوة في الاقطار الاسلامية بحيث كان يختار للاضطلاع بها دعاة

من العلماء الأذكياء. وبهذا نستطيع القول بان الفاطميين قد ضربوا بسهم وافر في تنظيم شؤون دعوتهم فنمت نمواً مطرداً، وانجبت رجالاً افذاذاً سبقوا عصورهم وقدموا للعالم الاسلامي اروع النتائج الفكرية، واغزر الثمرات العلمية.

اجل... لقد كانت مصر نصيرة العلوم والآداب وخاصة في عهد الدولة الاخشيدية، ولكن الفاطميين جاءوا ليضيفوا الى ذلك اهتمامات اوسع مدى، فلما قامت دولتهم في مصر شغلت باديء ذي بدء بتوطيد ملكها الفتي، فكان اهتمامها بالحركة العلمية محدوداً، ولا يشكل كبير عناية... بيد ان الحركة الفكرية لم تلبث ان لاقت ازدهارها في قيام الجامعة الفاطمية الكبرى «الأزهر» التي بناها بأمر الخليفة المعز لدين الله القائد جوهر الصقلي، ثم انشئت فيما بعد بعهد الخليفة العزيز بالله الحلقات الدراسية التي استحالت الى محاضرات جامعية، كما نظمت مجالس الحكمة في القصر، وفي جامعة الازهر ايضاً، وأنشأ الخليفة الحاكم بامر الله جامعة دار الحكمة وهي اول مجمع علمي او اكاديمية تأسست في العالم، بحيث كانت تلقى فيها المحاضرات على الطلاب من مختلف المذاهب، ولم تقتصر على النواحي الدينية، بل تعدتها الى النواحي العلمية والفلسفية والادبية والعلوم والفنون الاخرى.

ويجب ان لا يغرب عن بالنا ما كان للوزير يعقوب بن كلس من اثر بارز في توجيه الأزهر الى مصيره الجامعي، وقد ادرك الحسن بن زولاق المصري عميد الحركة الادبية في عصر الاخشيديين اثر الدولة الفاطمية، فأخذ بقسطه في زعامة تلك الحركة، وتولّى رعايتها في عهد الخليفتين المعز لدين الله والعزيز بالله، ومما يجب ان يذكر ان المعز لدين الله اولاه عطفه وتقديره، وابن زولاق عرف بانه وضع كتاباً عن المعز لدين الله، ولكن هذا الكتاب فقد مع كل اسف، ولم يعثر له على اثر.

وفي عصر الخليفة الحاكم بامر الله ازدهرت الحركة الادبية والعلمية في مصر، وقامت دار الحكمة والى جانبها دار العلم الذي كان يضم المكتبة الفاطمية الكبرى، وهذان المركزان كانا يغذيان الحركة العقلية الى جانب الازهر وجامع عمرو، وقد كانت تلك الحلقات العلمية والادبية عنصراً دائماً بارزاً في تكوين الحركة الادبية لذلك العصر.

ومن جهة ثانية... فان الحاكم بامر الله اولى الحركة العقلية قسطاً كبيراً من اهتمامه ورعايته فأجزل المخصصات لدار الحكمة وزوَّدها بخزائن الكتب القيمة، وعقد مجالس المناظرة للعلماء والادباء، وغمرهم بصلاته، وقرَّب اليهم عددا من اقطاب المفكرين والادباء المشهورين في ذلك العصر امثال: الامير المسبحي، ومحمد بن القاسم بن عاصم شاعره وجليسه، وكان من اشعر شعراء العصر، وابي الحسن علي بن محمد الشابشتي صاحب كتاب الديارات وغيرهم.

ولا بد لنا ونحن نتحدث عن الحركة العلمية في عهد الحاكم بامر الله من الوقوف قليلاً امام العلاَّمة الرياضي والمهندس الكبير «الحسن بن الهيثم» الذي اشتهر بكتابه علم المناظر في البصريات، وهذا الكتاب ترجم الى اللاَّتينية وصار كتاباً مدرسياً في اوروبا، ومن المعلوم ان ابن الهيثم كان يعيش في دمشق، فسمع الحاكم بامر الله عنه كلاماً مؤداه:

لو سمح لي الخليفة الحاكم بامر الله الفاطمي لعملت في النيل عملاً يغني مصر، فبعث الحاكم بامر الله بطلبه، ولمَّا جاء الى مصر زوَّده بكل ما يحتاج اليه وأرسله الى موقع الشلالات في اسوان، وهناك اجرى دراسات واسعة، ثم عاد الى القاهرة حيث عكف على دراسة موازنة الدولة الفاطمية وقدراتها المالية، وعندما متل امام الحاكم بامر الله اعلن له بصراحة استحالة نجاح المشروع، وقدَّم له البيانات عن تكاليف المشروع وعن ميزانية الدولة التي لا تسمح بالتورط في متل هذا العمل العظيم. فشكره الحاكم بامر الله على صراحته، وأبقاه في مصر قريباً من دار الحكمة مشمولاً برعايته وعطفه.

ويجب ان لا يسهى عن بالنا بان الحاكم بامر الله طلب الى عامله في حلب ان يرسل اليه ابا العلاء المعري الشاعر الفيلسوف، ولمّا اعتذر بسُبب مرضه، امر بان يترك له ريع الدولة من بلدة معرة النعمان السورية طيلة حياته.

وأرسل بطلب الفيلسوف الكبير احمد حميد الدين الكرماني الذي كان يعيش في العراق، وعندما حضر حصر مهمته بالقاء سلسلة من المحاضرات في دار الحكمة لتعريف خصائص الامامة ومعرفة مرتبة الأئمة ومحاربة القائلين بالالوهية والمغالاة والالحاد ، فقام بالمهمة كما وضع في مصر رسالة باسم البشارات والرسالة الواعظة ، وهي تهدف الى الاعتدال بالاعتقادات الفاطميه، والى سلوك الطريق الصحيح،والكرماني هذا هو حجة العراقين ومن اعظم الفلاسفة الذين انجبتهم الدعوة الاسماعيلية، فكتابه راحة العقل بالالهيات اعظم كتاب انتجته المدرسة الفلسفية الاسلامية.

ومن العلماء البارزين في دلك العصر علي بن يونس الفلكي المشهور، وفد ذكر ان الحاكم بامر الله قرّبه ومحضه عطفه، وكان والده العزيز بالله فد اقام له مرصداً على جبل المقطم حيث تمكن من ان يرصد منه كسوفين للشمس، ولهذا العالم كتاب الزيج الحاكمي، وقد كتبه تخلبداً لذكرى الحاكم بامر الله، ومن الجدير بالذكر ان ابن يونس هو اول من اخترع بندول الساعة وليس غاليلو كما دكر.

ومن الامور التي تستدعي النظر علاقة الحاكم بامر الله بابن سينا ووالده الذي كان من دعاته، وهذا ما سنوضحه بكتابنا عن ابن سينا.

اذن وحلاصة القول يمكننا ان نضيف: بان الحاكم بامر الله قد رعى العلم، وقرّب العلماء ورعى النهضة الفكرية التي وصلت بعهده الى الذروة.

الانشاءآت والعمران:

لم تشغل الخليفة الفاطمي الحاكم بامر الله الاحداث الجسام،

والاضطرابات التي كانت تعصف في دولته من حين لآخر سواء في الداخل او في الخارج، عن الاعمال العمرانية، والمآثر الخيرية الجليلة، وتجميل عاصمة ملكه القاهرة المعزية. فقد عنى بتجديد الجامع الأزهر، وادخل عليه الاصلاحات والتحسينات الضرورية كما انشأ جامعة دار الحكمة ودار العلم الشهيرة بالاضافة الى مسجده المعروف بجامع الحاكم او الجامع الأنور وكان والده العزيز بالله قد بدأ بانشائه ولمّا يتمم بناءه، ولمّا فرغ الحاكم بامر الله من بنائه عنى بغرسه وتأتيته عناية كبرى، وزّينه بالستور الفخمة والتنانير الفضيّة، وذكر انه صلّى فيه لدى افتتاحه، وكان يوماً مشهوداً من ايام مصر الخالدة.

وأنشأ جامع راشده، وأشرف بنفسه على تأثيثه وتزيينه ايضاً كما صلّى فيه لدى افتتاحه، وخطب في الناس وهكذا بالنسبة لجامع المقس، وبنى في جبل المقطم مصلى عرف بمصلّى العيد، وكان يختلف اليه من حين لآخر عندما يؤثر العزلة والانقطاع للعبادة والتأمل.

وفي سنة ٤٠٣ هـ. امر الحاكم بامر الله باحصاء المساجد التي لا مورد لها، فوجد ثمانمائة وثلاثين مسجداً في جميع انحاء مصر، وهنا اصدر امره بان ترصد لها النفقات الضرورية، كما اجرى فيها الشعائر، وفي سنة ٤٠٥ هـ. وقف عدة مزارع وقرى واراضي على القرآء والفقهاء والمؤذنين وموظفي المساجد وحفاري القبور والعاملين في المصحات العامة والمستشفيات، كما وقف على الازهر ودار الحكمة قسما من املاكه الخاصة، وخصها ببعض ما كان يرد اليه من الجهات الاخرى وهي اموال الزكاة الخاصة.

ومن مآثر الحاكم بامر الله انه اغدق المنح على الاساتذة الموظفين بدار الحكمة، وخصص لهم ما يكفل لهم الحياة. امّا قصر اللؤلؤ على الخليج فكان قد بناه والده العزيز بالله وجعله منتجعاً خاصاً وعندما جاء الحاكم بامر الله ادخل عليه التحسينات اللازمة.

وزراء الحاكم بامر الله:

في هذا الفصل، رأينا ان نأتي على اسماء الوزراء الذين عملوا في دولة الحاكم بامر الله الفاطمية، مع لمحة قصيرة عنهم، وذلك لكي لا تفوت القاريء الكريم شاردة او واردة من تاريخ الدولة الفاطمية في عهد ذلك الخليفة الكبير .

١ ـ على بن عمر العدّاس :

مغربي الأصل، كان ضمن القائمين على امور الخراج، وفي ايام الخليفة المعز لدين الله ضمن كورة بوصير سنة ٣٦٤ هـ .وبعد ذلك ولاّه الخليفة العزيز بالله الوساطة وقد جاء هذا بعد وفاة يعقوب بن كلس، ولم يلقبه بالوزير، وقد مكث في منصبه هذا مدة عام كامل .

كان ينظر في شؤون المالية، ويشرف على العمّال، وامر ان لا يصرف شيء الاّ بتوقيعه. ظلّ في عمله بديوان الاستيفاء ايضاً في خلافة الحاكم بامر الله .

٢ ـ جعفر بن الفضل بن فرات :

اختلف المؤرخون على المدة التي قضاها في الوزارة بعهد الحاكم بامر الله، كما اختلفوا على الشخص الذي خلفه في الوزارة، ولكن من المؤكد انه عزل من وظيفته في اول شهر تولّى فيه الحاكم بامر الله شؤون الخلافة .

٣ ـ الحسن بن عمّار :

لقبه الحاكم بامر الله بأمين الدولة... هو شيخ قبيلة كتامة وسيدها دون منازع، وأول من اعطيَ لقباً من رجال الدولة الفاطمية... كان مستبداً وظالماً، وقام بتصرفات شاذة منتهزاً صغر سن الحاكم بامر الله.... « ذكرنا اخباره » .

٤ ـ برجوان ابو الفتوح :

خصي ابض من الصقالبة البلقانيين، تربّى في قصر الخلافة، وصار وصياً على الحاكم بامر الله . وقف بوجه ابن عمّار وخاض معه جملة معارك حربية وسباسية . انتهى نهاية مؤثرة . . . (ذكرنا اخباره) .

٥ ـ الحسين بن جوهر.

هو ابن القائد الكبير جوهر الصقلي فاتح مصر والشام . . . لقبه الحاكم بامر الله بقائد القوآد . . . واعطاه صلاحيات مطلقة للحكم ولكنه انحرف وفر حيث ساهم بثورة ابي ركوة . . انتهى نهاية ذكرناها في الصفحات السابقة .

٦ ـ صالح بن علي الروزباري :

عراقي الأصل . . التحق بخدمة الفاطميين، وتقلّد ديوان الشام، ثم تولى الوساطة بعد عزل الحسين بن جوهر. لقبه الحاكم بامر الله بثقة ثقات السف والقلم

٧ ـ منصور بن عبدون :

نصراني تولى ديوان الشام . اتهم بالاختلاس تولّى الوزارة بعد عزل صالح بن علي، ثم عزل بتدبير من الحسين بن جوهر.

٨ ـ احمد بن محمد القصوري :

احد كتاب الدولة البارزين، والاغلب انه عراقي . بقيَ في الوزارة عشرة ابام .

٩ ـ زرعة بن عيسى بن نسطورس :

هو ابن الوزير عيسى بن نسطورس، وهو من النصارى القلائل الذين ظلوا في منصبهم بعد وفاة الحاكم بامر الله .

١٠ ـ الحسن بن طاهر الوزاّن :

كان متولياً بيت المال، ثم لقب بأمين الامناء، وتسلّم مسؤولية الوزارة

وكان حريصاً على اموال الدولة .

١١ ـ الحسن وعبد الرحمن ابناء ابي السّد :

اقامهما الحاكم بامر الله معاً في الوساطة بعد ان ضمنا اموال الدولة، وحرصا عليها ، ولكنهما لم يبقيا في عملهما سوى اثنتين وستين يوماً .

١٢ ـ علي بن جعفر بن فلاح :

من اجلّ الوزراء الكتاميين المغاربة، ومن اشهر قواد الدولة الفاطمية هو وأخيه سليمان، وهما نجلا جعفر بن فلاح القائد الكتامي المغربي الذي فتح الشام بعهد الخليفة المعز لدين الله ، وكان ابن عمّار قد ارسلهما الى الشام لحرب منجوتكين عندما ازمع الحضور الى مصر بتحريض من برجوان، وقد ظلاّ يديران شؤون بلاد الشام حتى قوي ساعد برجوان فحرّض عليهما الجند .

استعان الحاكم بامر الله بعلي في اقرار النظام في الشام بعد فتنة آل الجرّاح، ثم قلّده فيما بعد الوساطة، واضيفت اليه ولاية الاسكندرية وتنيس ودمياط والشرطتين العليا والسفلى والحسبة . قتل اغتيالاً اماّ سليمان فانتهى نهاية غامضة .

١٣ ـ صاعد بن عيسى بن نسطورس :

ثالث شخص من آل نسطورس تولّى الوساطة .

١٤ ـ المسعود بن طاهر الوزّان :

حلّ محل اخيه في ولاية بيت المال فترة قصيرة، وبعده حلّ عمّار بن محمد .

١٥ ـ عمّار بن محمد :

اختاره الحاكم بامر الله للتوقيع وذلك سنة ٤١١ هـ . اخذ البيعة للخليفة الظاهر لاعزاز دين الله ابن الحاكم بامر الله، كما دبّر شؤون الخلافة

بتفويض من الاميرة ست الملك بعد وفاة الحاكم بامر الله .

امام المجتمع الفاسد :

كان الحاكم بامر الله ـ وقد اتفق المؤرخون جميعهم على ذلك ـ مولعاً بالتجوال وحيداً ، ومغرماً بالسير منفرداً في شوارع عاصمة دولته القاهرة المعزّية ، وعبر ازقتها وأسواقها وساحاتها في الليل واحياناً في النهار وغرضه من ذلك دراسة احوال الشعب وطريقة معيشته وحياته ، والوقوف على غذائه وكسائه وما يمكر فيه ، فمثل هذا التجوال والتفقد يزيح النقاب عن شعبه وما تشكو منه الطبقات وخاصة الطبقة الفقيرة المحرومة .

واننا عندما نراه يصدر اوامره بتعليق المصابيح على ابواب الحوانيت والدور والامكنة العامه الاخرى في عاصمة دولته ، فلكي تبدو المدينة في الليل ، وكأنها شعلة مضيئه ، مما يسهل عليه الاستطلاع والمراقبة والاطلاع على كل ما يجري على ساحة بلده ، سيما ومن خصائص الظلام انه يحجب الناس ، ويحمي المؤامرات والتجمعات .

وقيل ان الحاكم بامر الله خرج مرة متخفياً تحت جنح الظلام ، فطاف بين المنازل ، وشاهد حلقات الرقص ، وما يمارس من الخلاعة والفجور . وزار الحمامات العامة فرأى الرجال والنساء معاً ، وفي الشوارع كانت الجرائم الاخلاقية ترتكب على قارعة الطريق وفي الزوايا دون وازع ، اما السكارى فكانوا يترنحون في الشوارع ، وبعضهم يسقط إعياءً في الوحول وعلى الارصفة

لقد كان الشعب المصري في ذلك العصر اي عصر الحاكم بامر الله يعيش حياة الرغد والرفاهة والبسطة في العيش ، فالدولة الفاطمية سهرت على راحته وأمنت له الرخاء والعمل وضمان الازدهار والحياة الأفضل وشاركت الطبيعة في العطاء بان منحت الارياف والاراضي كل ما تتطلبه من المياه ، فأعطت المواسم الجيدة وتوفرت الخيرات واصبحت الحياة العامه

تسير على عاية ما يرام. لهذا اتخذ الناس من المصابيح في اللىل فرصة للخروج الى مواطن اللهو والسمر والقصف والغناء وقصاء السهرات العائلية الصاخبة في المنازل حيث كانت اجواء المرح والبسط الدي عرف به الشعب المصري هي المهمنة. وهكذا سطعت ميادين القاهرة المعزّية بالوقود والزينات، وغصت بصنوف اللهو والمرح، وانفقت في هذا السبىل الاموال الوفيرة في المآكل والمشارب والسماع واحتساء الخمرة، وظهرت النساء في المجتمعات بكترة، وهب نيأر المجون والغواية والفجور صاخباً عاتياً فجرف اكتر الناس، وأصبحت القاهرة المعزَّيه بانوارها الساطعة، ومناظرها الخلاَّبة، وملاهيها العابتة وكأنها من مدن الفجور التي وصفت في التواريخ تسير بخطى حثيتة نحو مهاوي الانحلال.

هدا ويجب ان لا ننسى وفود الافواج التي لا تعد من الغرباء سواء من المشرق او من المغرب الى القاهرة للعيش فبها ومشاركة اهلها حباتهم وأرزاقهم، ومن الجلى الواضح انهم وجدوا امامهم الحرية المطلقة تعطى لكل الناس، فعاتوا فساداً، ومارسوا السرقات والنهب وارتكاب الجرائم، وعلموا المصريين الكتير الكثير من دروس الفساد والمجون وتدني الاخلاق.

وفي هذه الصفحات سأتخطَّى حدود التاريخ، ولىسمح لي القاريء ان اخرج عن النطاق المألوف وارمي جانباً الصفحات التي كتبت عن الحاكم بامر الله، لان هذه الصفحات جاءت كما نرى خالىة من اية دراسة موضوعية او تحليل مفيد عن هذا المصلح الاجتماعي الذي ضرب الرقم القياسي بخدماته لامته واصلاحاته للمجتمع الذي عاش فبه، تلك الاصلاحات التي سبقت عصره، وفاقت كل ما كان قبلها، وما جاء بعدها.

ومهما يكنْ من امر، فهدا حال كل مصلح اجتماعي يأتي لأمة غبر امنه، ولعصر غير عصره، وخاصة عندما يكون المجتمع في مجال النخلف، وامام رياح الفجور والفساد، وفي كنف ظلام القرون، ورواسب النعصب

البغيض .

لقد كان الحاكم بامر الله عالماً وطبيباً وفيلسوفاً وقديساً، وكان رجل دولة وسياسي ماهر ومخطط بارع لا يعادله احد في عصره، ولا بعد عصره، ولكن ومع كل اسف لم يقدره المجتمع الغارق في عالم الجهل، ولم يفهمه الشعب الذي اولاه محبته وعطفه، وهكذا التبس عليه، وضاع في متاهات الظلام، وكل ما فعله اقطاب ذلك المجتمع انهم راحوا يستنبطون الافكار والخيالات، ويخترعون الروايات والأساطير عن هذا العبقري الخارق الذي كانت حياته اطرف ما قرأناه وسمعناه، كما ان في موته كل ما يثير النفوس ويوقظ الشعور، ويجعل الانسان في موقف الحيرة والاستغراب لا يعرف كيف يقوّم الحوادث والاحداث، ويهتدي الى الحقيقة المحتجبة وراء سجف الغيب .

المصادر التاريخية ذكرت :

بان الحاكم بامر الله منع اكل « الملوخية والجرجير والترمس والتوكلية » وعادت هذه المصادر فذكرت :

بان سبب هذا المنع قضايا دينيّة ورواسب عائلية قديمة كان الحاكم بامر الله حريصا على الأخذ بها وتطبيقها وتتلخص بان. عائشة زوجة الرسول الكريم محمد (ﷺ) كانت تحب الجرجير، وان معاوية بن ابي سفيان كان يحب الملوحة... الخ... وما اشبه ذلك من الأقوال التافهة الرخيصة التي نجل الحاكم بامر الله عن ان ينحدر الى حد التفكير بها او مجرد التحدث عنها، او جعلها اداة للانتقام بعد مضي مئات الاعوام. واني لا ادري الاسباب التي حملت المؤرخين على اللجوء الى ترديد مثل هذه الاقوال السخيفة في كتبهم، كما اني حتى الآن لم اعثر على مصدر يذكر ان عائشة كانت تحب الجرجير او ان معاوية كان يفضل الملوخية .

اجل... حبذا لو ان هؤلاء عادوا الى رشدهم وضمائرهم، واتعبوا

انفسهم بالمفتش عن الحقيقة... اذن لكانوا قدموا لمجتمعهم الخدمات الجلى، وأثبتوا للامم الاخرى بانهم من امة متحضرة عريقة تدرك الحقائق، وتسير في سبل الرقي والحضارة والتطور.

مساكين هؤلاء... اقولها ثانيةً مساكين... فقد فاتهم ان الحاكم بامر الله كان طبيباً وعالماً بعلم النبات، فقد ادرك ان الاكثار من اكل هذه المواد يزيد من كميات الدم في جسم الانسان، ويقوي الغريزة الجنسية، ويغير الوافع النفسي، ويضفي قابليه النزوع نحو الشر - وكان الشعب المصري يفضل هذه النباتات على كل غذاء خاصة عندما يتناولها خضراء. وهذا الرأي ايده الاطباء العالميون المعاصرون، وقد تطرق احدهم الى ذكره عندما بحث هذا الموضوع. اذن فعندما نقول ان الحاكم بامر الله كان طبيباً، وان تدبيره ذاك كان لمصلحة شعبه، فنكون قد انصفنا هذا الخليفة واعطيناه حقه، وأقل من حقه، فنحن حتى الآن لم نستطع ان نفكر اليوم بما فكّر فيه هذا الخليفة منذ الف عام

ومنع الحاكم بامر الله اكل «الدلينس» وهو نوع من الصدف الصغير الموجود بكثرة على شواطيء الانهار، وكانوا يأكلون ما بداخله نيئاً ومملحاً، وقد ثبت انه يورث الدودة الوحيدة في الامعاء، وهذا المرض شاع وكثر في الديار المصرية بذلك العصر.... اذن فالحاكم بامر الله لم يكن مجنوناً او جاهلاً عندما حرَّم اكله، والاتجار فيه.

ومنع الحاكم بامر الله ذبح الابقار السليمة الآ في ايام عيد الاضحى... لماذا؟ اليس من حق هذا الخليفة الساهر على مصالح رعيته ان يحافظ على هذا الحيوان الاهلي الأليف الذي يؤدي اجل الخدمات للمزارعين في مجال حراثة الارض، فضلاً عن امداد الاهلين بالطاقة الكبيرة من الحليب والسمن والألبان؟

فأين هو الجنون ايها التاريخ، بل اين الظلم الذي طبعت به هذا الخليفة العادل؟ وماذا على الحاكم بامر الله ان يفعل وهو امام مجتمع متخلف غارق

في بحار الجهل، ايقف مكتوف الايدي امام الاثم والفجور والاجرام، ايبيح شرب الخمور، ويحلل البغاء، ويطلق العنان للنساء بان يخرجن عاريات الى الشوارع والساحات؟ وماذا يبقى بعد ذلك في اكبر عاصمة اسلامية، ثم من هو المسؤول عن كل هذا، ومتى كانت قوانين وشرائع الاسلام تتيح ذلك؟

اجل... لقد حرَّم الامام الحاكم بامر الله شرب الخمر وبيعه والاتجار به، كما منع الفقّاع وهو المسكر المعروف في ذلك العهد، ولكن الناس لمّا يرتدعوا، وعندئذٍ بادر الى اتلاف الكروم، ومصادرة خوابي العسل، وكافة المشتقات التي تستخدم في صناعة الخمرة، وكل ذلك في سبيل القضاء على الداء الوبيل الذي استفحل في تلك الايام، وتحكّم بالمجتمع، وعصف بجوانبه، وجرده من كل فضلة وقيم واخلاق.

وحرَّم صيد السمك الذي لا قشر له، وكذلك بيعه... والمعروف ان هذا النوع كان في طريقه الى الانقراض في ذلك العصر، علماً بانه من الانواع المرغوبة والنادرة.

امّا القوانين الاصلاحية الاخرى التي اصدرها الخليفة الحاكم بامر الله بشأن النساء واستئصال البغاء، واشاعة الآداب العامة في المجتمع، فقد كان يقصد منها ازالة الطابع السيء عن اكبر عاصمة للعالم الاسلامي، واظهارها للغرباء وللسواح بانها تمثل المدينة الفاضلة، وقاعدة الآداب الاسلامية، وكل هذا امتاز بالحكمة والعقل، والمحافظة على القيم والتراث.

فمن القوانين التي اصدرها في هذا الصدد: تحريم دخول الحمّامات العامة لأي انسان بلا مئزر، وحرَّم ايضاً على النساء كشف الوجه في الطرقات العامة، او خلف الجنائز، والتبرج والتزيين عند خروجهن، كما حرَّم عليهنّ البكاء والعويل وراء الموتى وزيارة القبور، ومنعهنّ من دخول الحمامات العامة منعاً مطلقاً، او الخروج من منازلهن في الليالي مهما كانت الأسباب.

فهل هذه القوانين صدرت عن رجل في عقله مس من الجنون... وهل يستحق الحاكم بامر الله ان ينال بشأنها اللوم والانتقاد والاتهام بالزندقة او الجنون ؟

اجل... لقد حرَّم الحاكم بامر الله مزاولة البيع والشراء في الليل وذلك خوفاً من التلاعب باصناف المواد والأوزان، ومنع على التجار اقفال حوانيتهم، وأبواب الخزانات والدروج، وذلك لكي يقول للسارقين وللصوص ان قانون الاعدام ينتظر كل من يقبض عليه وهو يقوم بالسرقة... وشدَّد على ازالة بيوت الخمَّارين... وهذه القوانين بمجموعها رآها البعض غريبة، ولكن قلة من الناس ادركوا ابعادها ومنفعتها واعتبروها صادرة عن ضمير حي ووجدان طاهر.

وأمر الحاكم بامر الله بقتل الكلاب الشاردة اينما وجدت الاَّ كلاب الصيد، وهكذا طوردت وأعدمت حتى خلت منها جميع الطرق والساحات، كما امر بقتل جميع الخنازير التي في مصر وخاصة في الامكنة التي تتواجد فيها النصارى... وامر بمنع صيد الطيور بالشرك والحفر والنحيل وخاصة الصيد الجماعي = هذا منذ الف عام ونيف =... فهل يذكر هؤلاء الذين اتهموا الحاكم بامر الله بالجنون ان الدول المتحضرة بعد الف عام سارت على خطته وتبنَّت نظريته، واصبحت مدينة له بهذه الافكار ؟

وعندما تعرضت مصر في اواخر عهده الى الجفاف، ونقص في مياه النيل... وعندما وقع الغلاء والاحتكار بادر الحاكم بامر الله الى اصدار الأوامر القاسية الجريئة التي تحرم خزن اية مادة غذائية او تموينية تزيد عن الحاجة، وحدَّد اسعار القمح خاصة، وبعدها المواد التي يحتاج اليها الشعب، وعاقب المخالفين بالاعدام في حالة اقدام اي منهم على الاستغلال او التلاعب بالاسعار او الاتجار بقوت المواطنين... واي جريمة ارتكبها حينما حرَّم لعب الشطرنج الذي كان شائعاً بكثرة، واعتباره من التسلات التي تعوق المواطن عن العمل النافع لامته وبلاده، وهكذا بالنسبة لصناعة التنجيم

التي يتفرع منها التدجيل . . . . . وهل كان الحاكم بامر الله غبياً وظالماً عندما شدّد على الجزّارين وألزمهم بلبس البياض وتطبيق النظافة، وتغطية اللحوم بقماش ابيض شفاّف كي لا يغط عليه الذباب، او يلحق به الغبار.

فهل نلام بعد كل هذا اذا ما اعتبرنا الحاكم بامر الله مصلحاً اجتماعياً، قلّما شهد العالم الاسلامي من يماثله عقلاً وفكراً وتقدمية؟ وشخصية فريدة ومن اعجب ما عرفه التاريخ... او انها الطاقة التي اسبلت عليها الحياة ستور الخفاء، ومن هنا اثيرت الدهشة، ومن هناك انبثقت الحيرة والاستغراب في كل تصرفاتها واعمالها في حياتها وبعد موتها.

لقد كان الحاكم بامر الله ونقولها ثانية: دنيا من الاساطير والعبقرية والابداع والذهن الحاضر الهائم المضطرم الذي يظهر في بعض الحالات حاملاً المزيد من التطرف والجرأة المقرونة بالحكمة والسمو والتقدير والتأمل، وعلى العموم فان هذه الشخصية استطاعت ان تفيض وتعطي من افكارها كل خير وفضيلة وجمال وان تقبض على المجتمع بكلتي يديها، وان تطبعه بطابعها العجيب.

ان الحاكم بامر الله عندما فكّر وخطط وقصد اصلاح ذلك المجتمع، بل عندما ادخل عليه التعاليم الغير مألوفة والافكار السابقة لعصرها، في ذلك الزمن البعيد ادرك انه سيتعرض للانتقاد وسيصل الامر الى حد اتهامه بالجنون، ولكنه لم يبال . . لانه كان على علم بان المجتمع المريض اي مجتمع لا بد له ان يصحو يوماً من الايام على الحقائق ويبادر الى تقدير خدماته واعماله. ولعمري انها صفة ملازمة للشعوب المتخلفة الغارقة في الظلام والتي لا تفرق بين الخير والشر، وبين الخطأ والصواب.

في الواقع... لم يكن ينقص الحاكم بامر الله شيء من امور الحياة... كان امبراطوراً لا تغيب عن ممتلكاته الشمس، وكان معروفاً بانه ينحدر من اعرق بيوتات العرب حسباً ونسباً، والى جانب ذلك كان يملك الشباب الناضر، والعلم والقوة والرجولة، وكانت الحياة تبسم له وتدعوه الى الأخذ

بأسبابها وافراحها ومسراتها... ولكنه بادر الى طلاقها وآثر الحياة البسيطة، وسهر الليالي، وارتداء الخشن من الثياب، والتطواف على حماره الابيض وحيداً دون حراسة او موكب او ابهة... يتفقد الرعية ويتأكد من تطبيق القوانين، ويحسن على الفقراء والمحرومين... والى جانب كل هذا كان يختلط بشعبه ويسمع شكاياته، وينصف المظلومين، ويعطي كل ذي حق حقه، ويصدر الأوامر بشأن الترفيه عنه واسعاده فأين هو الجنون... واين الظلم والتعسف من كل هذا؟

لقد كان عصر الحاكم بامر الله، من اغرب عصور التاريخ... كان عصراً مظلماً ضاعت في طياته الحقائق، وطمست الوقائع... عصراً قام على الفساد في الحكم ومبدأ الاغتيالات، والنهب والسرقات والفسق والفجور والتعدي على الآمنين .. فماذا كان على الحاكم ان يفعل حيال هذه المفاسد والرذائل وهو خليفة للمسلمين؟

لقد كانت الاغتيالات ترتكب في الظلام، فيضيع فاعلها ومدبرها، وفي نهاية المطاف يأتي اعداء الحاكم بامر الله فيوهموا الناس بانه هو وراء جرائم القتل التي كانت تقع في كل يوم، وكانت مقاصدهم وغاياتهم اظهاره للناس بانه سفاح وطاغية ومفطور على سفك الدماء وقتل الابرياء. وصدق الناس ذلك... ولكن لا ادري كيف نصدق ذلك نحن وقد عرفنا الحاكم وآباءه واجداده وسيرتهم مع الرعية وحكمهم العادل، وهل يكون طاغية من اقام دار الحكمة اول اكاديمية للعلوم في العالم، وكيف نصدق اخبار الظلم عن عالم كان يقضي اوقاته في مجالسة الفلاسفة ورجال العلم والشعراء، وعن مسلم جعل دأبه اقامة المساجد والاحسان على الفقراء والمحتاجين وانصاف المظلومين، وزهد في المال والدنيا، وكره مظاهر الابهة والعظمة، وانقطع للصلاة والعبادة، واكتفى بالقليل من الطعام؟

باعتقادي ان كل هذا جدير بالدراسة والتأمل... وحبذا لو ان المؤرخين والباحثين حللوا هذه الامور ودرسوها على ضوء العقل والمنطق

والضمير، قبل ان يدونوا الصفحات الطويلة العريضة عن الرجل العظيم .

نحن لا ننكر بان الحاكم بامر الله امر بقتل بعض الوزراء والقواد والعمّال الكبار ممن تبت عليهم التلاعب وسرقة اموال الدولة والاثراء غير المشروع، وسلب اموال وممتلكات الناس، او ممن اشتركوا بثورات ومؤامرات ضد الدولة .

لندع كل هذا جانباً . . . فنحن هنا لسنا في موقف الدفاع عن الحاكم بامر الله كونه خليفة فاطمياً وانما يهمنا ان تقال كلمة الحق والحق وحده بعد الف من السنين، وكم يحز في النفس ان تتضافر القوى ويبرز الجهل والتعصب فيخيم على الحقيقة ويطمس معالمها، ويبرز الزور والبهتان والافتراء ليحل مكان الحقيقة في عصر المدنية والنور والاكتشافات والتقدمية .

لقد ذكرت بعض المصادر:

ان الحاكم بامر الله مارس الضغط على الذميين - اليهود والنصارى - وفرض عليهم قيوداً صارمة، وخرَّب كنائسهم ودمَّر اديرتهم دونما سبب . فلماذا يفعل الحاكم بامر الله كل هذا مع رعاياه النصارى واليهود، وما هو المقصود من هذه التدابير الصارمة؟ في حين من جهة اخرى نراه يستخدم بعضهم في مناصب عالية، اماَّ تدمير كنائسهم واديرتهم فلا اعتقد انه اقدم عليها، وقد مرَّ معنا انه اباح الحريّات الدينية في دولته، واعطى هذه الحريأت لكافة اصحاب المذاهب والاديان دونما استثناء لممارسة طقوسهم وعباداتهم، وخاصة النصارى الذين يعتبرون اخواله ومن اقرب الناس اليه .

لقد كان اعداء الخلافة الفاطمية في عهد الحاكم بامر الله يقترفون الجرائم ضد النصارى واليهود فيعتدون عليهم وعلى مقدساتهم، وغايتهم من ذلك زعزعة اركان الدولة واظهار الحاكم بمظهر الطاغية بالنسبة للعالم المسيحي او العاجز عن حماية الاقليات الدينية التي تعيش في دولته، وحتى الآن لم نتوصل الى معرفة غرض الحاكم بامر الله من تدمير الكنائس والأديرة، وما

الذي دعاه الى ذلك، بينما المواطنون النصارى واليهود لم يخرجوا على النظام، ولم يعبثوا بالامن؟ اما وضع الاشارات المميزة على صدورهم فربما كان الغرض منها تميزهم عن غيرهم من بقية الطوائف ومعرفة العناصر التي كانت ترتكب الجرائم وتلصقها بهم ظلماً وعدواناً، فحامل الاشارة في هذه الحالة يكون منظوراً من قبل رجال الامن ومعروفاً، فلا يمكن لاحد ان يلصق به التهمة.

هذا من جهة، ومن جهة اخرى ففي عهد الحاكم بامر الله انقسم النصارى الاقباط في مصر الى فرقتين: الملكانية وكانت على مذهب بيزنطة، واليعقوبية و النسطورية وهما صاحبتا كنيسة مستقلة عن بيزنطة لا سيما اليعقوبية او الارثوذكسية وهي ملة غالبية الاقباط المصريين.

وفي عهد الحاكم بامر الله ازداد نفوذ الملكانية لان والدة الخليفة الحاكم بامر الله كانت من هذه الطائفة وهكذا الاميرة ست الملك ابنتها من الخليفة العزيز بالله، وقد مرّ انه في عهد الحاكم بامر الله تمّ تعيين اريسطس بطريركاً على بيت المقدس، وأرسانيوس شقيقه بطريركاً على القاهرة ومصر، ومن الجلي الواضح انه في تلك الفترة مارست الطائفة الملكانية ضغوطها وحملاتها على الطائفة الثانية.

من هنا يصبح بالامكان القول: ان المصادمات الطائفية، والصراعات الداخلية الدامية بين الفريقين كانت تحتدم ويستعر اوارها من حين لآخر حتى تصل احياناً في عنفها وضراوتها الى حد الهجمات على الكنائس والاديرة واشعال النيران فيها، ونهب محتوياتها، وكانت الملكانية هي المتغلبة في اكثر الاحيان لان عدداً غير قليل من افرادها كان يستخدم في الجيش والشرطة ووظائف الدولة العليا، وازاء هذه الاحداث لم يسلم الحاكم بامر الله من السنة الفريق الثاني فكانوا يتهمونه بالتحيز لاخواله وامدادهم والانتصار لهم في اعمالهم التدميرية العنيفة.

لقد قرأنا في كتب التاريخ العربي والاسلامي صفحات طافحة بالمدح والاطراء للخليفة الحاكم بامر الله، وقرأنا في كتب غيرها عبارات الذم والنقد، وهذه المتناقضات تجعلنا مضطرين الى عدم تصديق كل ما ذكر عن هذا الخليفة العظيم . . . فكيف يكون ظالماً من نصب نفسه وكرسها لانصاف المظلوم ومعاقبة الظالم؟ وكيف ننسب الجنون الى انسان متفوق بعلمه وعبقريته وعباداته واصلاحاته للمجتمع؟

في الحقيقة: لم يمر في التاريخ، ولم نسمع ان اسرة من الاسر تعرضت في حياتها الى ظلم المجتمع وتحامل الناس، مثل هذه الاسرة الفاطمية . . . وفي يقيني ان سبب ذلك تفوقها على الآخرين في كافة مجالات الحياة، ووقوفها في الطليعة في كل سبيل يهدف الى الرقي والحضارة والتقدم .

اجل . . . لقد اتهموا الحاكم بامر الله بكل شيء . . . اتهموه بالجنون . . . بالظلم . . . بالطغيان وذهبوا الى حد القول بانه ادّعى الالوهية . . . كما قالوا: انه اغرم بشقيقته ست الملك . . . فهل بقي شيء في جعبة هؤلاء المتزمتون المجردون من الشرف والضمير والاخلاق الاّ صبوه وافرغوه في عالم هذا المصلح الاجتماعي الكبير ؟ .

واتّنا عندما نستعرض سيرة حياته ومواقفه مع رعيته وتسامحه مع الفرق الاسلامية الاخرى نقف بوجوم لنقول لهؤلاء: سامحكم الله . . . فان الحقيقة لا بد لها من الظهور مهما طرأ عليها من ظلام، وان للباطل جولة ثم يضمحل . . . فالحاكم بامر الله لم تبدر منه اية بادرة اثناء حكمه تنم عن ترغيب او تشويق لاخراج احد عن دينه، وله قول مأثور في هذا الصدد:

« ان كل واحد في دولتنا، حرّ في اختيار مذهبه، واظهار ما في ضميره، وممارسة طقوسه، ولا اكراه في الدين » .

وقد ذكر في اكثر من مصدر تاريخي، انه سمح لاتباع مذهب مالك بان يدرسوا اصول مذهبهم في دار الحكمة، واعتبر ذلك من مآثر الحاكم

وبعد نظره .

وهذا المصدر يؤيد ما ذهبنا اليه ، من ان الحاكم بامر الله لم يكن متعصباً لدين من الاديان ، وكان متسامحاً مع الفرق الدينية الاخرى الاسلامية وغير الاسلامية ، ويجب ان لا يغرب عن بالنا بانه :

عيّن في رئاسة القضاء بمصر قاضياً سنياً هو « ابن ابي العوام » وعندما قال بعض خاصته :

انه ليس على مذهبك ، ولا على مذهب من سلف من ابائك . . . .
اجاب :

يكفي انه ثقة ومأمون ، ومصري ، وعارف بالقضاء وبأهل البلد ، وليس في المصريين من يصلح لهذا الامر غيره ، وعرف عن الحاكم انه اصدر تحريماً بمنع سب اعداء المذهب في اي مكان جرياً على سنة ابائه الحميدة ، كما حرّم اللعن لدرجة القتل ، وللحاكم مرسوماً بذلك نبسطه هنا :

﴿بسم الله الرحمن الرحيم .﴾

من عبد الله ووليه « ابي علي » الحاكم بامر الله امير المؤمنين . . . . الى كل حاضر وباد . . . اماً بعد :

فان امير المؤمنين يتلو عليكم آية من كتاب الله المبين « لا اكراه في الدين » .

مضى امس بما فيه ، وجاء اليوم بما يقتضيه الصلاح والاصلاح بين الناس اصلح ، والفساد والافساد بينهم مستقبح الاّ من شهد الشهادتين ، احق ان لا تنفك له عروة ، ولا توهن له قوة يحي على خير العمل يؤذن المؤذنون ـ ولا يؤذنون ، ويخمس المخمسون ، ويربع المربعون في الصلاة على الجنائز ، ولا يعترض اهل الروّية فيما هم عليه صائمون ، ولا يشتم السلف ، ولا يبغي الخالف على من قبله خلف ، تلك امة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ، ولا تسألون عماّ كانوا يعملون .

معشر المؤمنين .

نحن الائمة ، وانتم الامة ... عليكم انفسكم لا يغركم من ضلّ اذا اهتديتم الى الله مرجعكم جميعاً فينبئكم بما كنتم تعملون .

والحمد لله رب العالمين وصلواته على رسوله سيدنا محمد (ﷺ) وآله الاكرمين .

ومن مآثر الحاكم بامر الله وتدابيره واصلاحاته ، انه شدَّد على مراقبة التجار واصحاب الحرف والصناعات مراقبة دقيقة لمنع الغش والتلاعب بالاسعار ، وكان يعاقب المخالف عقاباً صارماً ، ومن قوانينه انه الغى جميع الالقاب في الدولة بدءاً بنفسه .

ومهما يكن من امر ... فقد عرفنا ان الفاطميين عندما جاءوا الى مصر ، اطلقوا للشعب الحرية المطلقة بتناول حياتهم كما يريدون ، فكانوا يشربون الخمرة بكثرة ، وفي ذلك الوقت اشتهرت مصر بصنع البيرة المسمّاة « الفقّاع » والنبيذ المسمّى « المزر » وعندما اصدر الحاكم اوامره باضاءة الشوارع والاسواق والحوانيت بمصر ، والقاهرة ليلاً اتخذ الناس ذلك سبباً لمبالغة الفرح والسرور ، فخرجت النساء في الشوارع والطرقات ، وكان الناس يشربون الخمرة في الشوارع والحوانيت ، كذلك امتلأت بيوت الفساد والفجور والبغاء وساد مصر نوع من الاباحية العلنّية .

فماذا على الحاكم بامر الله ، وهو خليفة المسلمين ان يفعل ؟ وهو يرى هذه العواصف المدمرة تجتاح رعاياه فتصيبهم في اخلاقهم وشرفهم ... الا يجب عليه ان يضع حداً لهذا المجون المتفشي في كل مكان من انحاء دولته ... اليس هو المسؤول عن صيانة الاخلاق والآداب ؟ وكان ان منع شرب الخمر وصنعه وعندما فعل شربه الناس في السر ، وازداد تعلقهم فيه ، فما كان منه الاّ ان حرَّم كل ما يدخل في صناعته فقطعت كروم العنب ، وديس العنب في الطرقات ، وكسرت جرّات العسل ودنانها ، ومنع بيع

الزبيب، ومع كل هذا فان بعض المؤرخين الذين دأبوا على السخرية والطعن بالحاكم بامر الله.. ادعوا انه لم يحرم الخمر تنفيذاً لأوامر الله وانماً حرمها على الناس، وأباحها لنفسه... فيا للتجني الظاهر، ويا للتحايل البغيض، وهكذا قلْ عن الحمّامات العامة، فقد تأكد انها تحولّت في عهد الحاكم بامر الله الى مواخير، وكانت مختلطة من الرجال والنساء، وبدون مئزر، فمنعها منعاً باتاً تحت طائلة العقوبات الصارمة، ومماً يجب ان يذكر ان الحكاّم الذين جاءوا بعده وضعوا قيوداً صارمة على دخول الحمّامات، ونظموها وجعلوا بعضها للرجال وبعضها للنساء، فكانوا بقوانينهم مقلدين للحاكم بامر الله، ... واخيراً:

فقد سبق ان ذكرنا انه ضرب بيد من حديد على العناصر الفاسدة في دولته ووضع حداً للهو، واصدر اوامره بازالة المواضع التي كانت لأهل الفجور والفساد، كما تتبع النساء العابثات الخارجات على سنن الفضيلة والآداب، ومنع الجلوس في المقاهي والحوانيت ولعب الشطرنج وذلك رغبة في ان يتحول الشعب عن اللهو ويتفرغ الى العمل المثمر النافع.

اضطراب الدعوة وظهور الكفر والالحاد:

هذا الفصل يعتبر من الاهمية بمكان بالنسبة لموضوع كتابنا، لانه يتعلق باضطراب الدعوة الاسماعيلية في عهد الامام الحاكم، وما نتج عن هذا الاضطراب من ظهور دعوة الكفر والالحاد التي كانت السبب في هدم بعض الجسور والبنايات، واشاعة الخوف، وانحلال حبل الامن والاستقرار، وعندما نأخذ على عاتقنا معالجة الاسباب والمسببات، نرى انه لا بد من الذهاب بعيداً والرجوع الى المصادر الفاطمية نفسها. فنقول:

ان الخلفاء الفاطميين الذين اتخذوا لانفسهم صفة الخلافة لعموم المسلمين، كانوا يضطلعون الى جانب ذلك بمهمات الاسماعيلية. فهم بحكم

طبيعة مركزهم مسؤولين عن الخلافة والامامة، وبلغة اصح عن الظاهر والباطن . . . عن التنزيل والتأويل . . . عن العبادتين العمليّة والعلميّة . . . عن العامة والخاصة .

فالخليفة الفاطمي لم يكن نشاطه موقوفاً على نشر الثقافة العامة وحدها، بل تجاوزه الى نشر المباديء الاسماعيلية، فكان عليه ان يضع نظاماً دقيقاً لتمثيل هذه المباديء في عقول المستجيبين والمؤمنين من الاسماعيلية، والاجتماع اليهم، وتفقد شؤون حلقاتهم ومراكزهم في عموم الاقطار، وقراءة المحاضرات عليهم في عقائد المذهب وفلسفته، وكل ما يتعلق بتنظيم الدعوة وحسن سيرها .

والواقع ان الخلفاء الفاطميين منذ ان كانوا في المغرب، عنوا بنشر تعاليم الدعوة الاسماعلية، ولم تلهيهم شؤون الخلافة ومتطلباتها وسياستها العامة عن النظر بقضايا الدعوة الخاص فقد ذكر الخليفة المعز لدين الله :

ان اباه المنصور بالله كان يشرح له بعض كتب الباطن ذات الرموز الخاصة، فالمنصور بالله كان يولي تدريس هذه الكتب اهتماماً خاصاً حتى انه كان يقول لولي عهده المعز لدين الله :

« كنت اتمنى ان اعش لك اكثر مماً عشت لأفيدك وأزيدك » . ولماّ ولي المعز لدين الله الخلافة اصبح نشر الدعوة الاسماعيلية جزءاً من سياسة الدولة، فقد حتّم على الرعية قبول تعاليمها وفلسفتها وتطبيق سننها وأحكامها، وسار الخلفاء الذين جاءوا بعده على هذا المنهاج، فخصصوا اوقاتهم ا، اكثرها لأخذ العهود على المستجيبين، ولم يرضوا ان ينوب عنهم دعاتهم في هذه المهات، وانماّ كانوا يرمون من وراء ذلك الى اثارة حماسة اتباعهم وجعلهم يلتفون حول ائمتهم وخلفائهم، ومن تم اخذ الدعاة والمستجيبون من مشارق الارض ومغاربها يفدون عليهم، وكانوا يرون الفخر والتواب بالجلوس معهم والاستماع اليهم وهم يلقون عليهم المواعظ

والدروس .

ولم يقتصر هذا النشاط عند هذا الحد، بل تجاوزه الى انهم اخرجوا لهم من خزائنهم كتب الباطن وأعدوا لهم الامكنة الخاصة لقراءتها على دعاة متمرنين وضالعين، وقد كانت هذه المجالس تسمَّى مجالس الحكمة وكان حضورها مقتصر على المستجيبين فقط الذين لم يكن يسمح لهم بالدخول الاَّ بعد التأكد من شخصياتهم وبعضهم كانوا يأتون من المشرق والمغرب يحملون الاموال والتحف والطرف، لذلك حرص هؤلاء الخلفاء على ان يختاروا للبلدان الاسلامية دعاة من العلماء الاذكياء، وكانوا اذا وجدوا في دعوتهم داعياً متخلفاً عن كبار علماء عصره همّوا بعزله وتوليه غيره، وهذا يعلل لنا نجاح هذه النهضة العلمية التي راجت وطبقت شهرتها الآفاق، وأقبل عليها الناس ينهلون من علومها وفلسفتها وآدابها .

وقد رسم الخلفاء لهؤلاء الدعاة الصورة الواضحة المطلوبة منهم في تلقين مبادىء الدعوة،فكان عليهم ان يسيروا بخطى وئيدة حتى لا يضعوا البذور في ارض غير صالحة، فينعكس القصد، وينحرف عن السبيل، وتصاب الدعوة بالخيبة والخذلان. وقد اوضح احد كبار الدعاة الاسماعيليين عن علاقة الدعاة بمدعويهم في هذه العبارة :

ينبغي للداعي اختيار امر من يدعوه، وتعرف احوالهم رجلاً رجلاً، وتميز كل امرىٍ منهم ومعرفة ما يصلح له ان يؤتى اليه،ويحمله عليه من امر الله وامر اوليائه ومقدار ما يحمله من ذلك ومدى قوته وطاقته ومتى يوصل ذلك اليه، وكيف يفدوه به، وامتحان الرجال، وتعرف الاموال ومقدار القوى ومبلغ الطاقات، وعلم ذلك هو افضل ما يحتاج اليه الدعاة في باب السياسات والرياضيات .

وليس هذا كل ما حددته كتب الدعوة في تنظيم العلاقة بين الداعي ومدعويه، فقد رسمت للدعاة الخطوط الرئيسية التي يجب ان يسلكوها مع

مدعويهم، فأبانت لهم وجوب الظهور بمظهر الوقار والاجلال، ليكون ذلك مدعاة الى تفاني المدعوين في الالتفاف حولهم، وان يكون مصدر هيبة الداعي، ووقاره:

حسن الصمت، وخفض الجناح ولين الجانب، وحسن العشرة وجميل المخالفة من غير تجبر عليهم ولا تكبر، بل يكون للتواضع سيماه وللوقار همته.

لذلك وضعت رئاسة الدعوة الاسماعيلية للدعاة نظما للحكم بين المدعوين، وقررت لهم مباديء لا تقل صراحة عن تلك المباديء الفقهية التي يصدر القضاة احكامهم بموجبها، فحتمت على الدعاة اثابة المحسن وزجر المخالف والعفو عنه الاّ انها رسمت العقوبة التي تقع على اهل الدعوة بالتأديب، ومن هذه العقوبات التي سنَّت لتربية المؤمنين وتأديبهم اقصاء المعاقب وهجره بحيث يهجره الداعي، ويهجره اخوانه من الاسماعيلية المستجيبين، فيبقى مهجوراً في قومه، مبعداً في اهله وخاصته، وتغريمه الاموال، او الحكم عليه بالاشغال الشاقة... ومن وسائل تأديب المدعوين، بتكبيت الداعي وتوبيخه على مسمع من الجميع وجلده او سجنه، وان استحق القتل امر الداعي بقتله، ومن الملاحظ ان رئاسة الدعوة تركت للدعاة الحرية في اختيار العقوبة التي تتناسب مع ذنب المدعو

وهكذا كان للاسماعيلية في البلاد التي يدعون فيها لمذهبهم تشريع خاص في معاملتهم اهالي هذه البلاد كما كانت لهم ثقافة متميزة، ولا غرو فان كل اسماعيلي مهما بعدت دياره، كان يحن الى الدولة الفاطمية ويسعى الى ارضاء قيمها، وتلبية ما يفرضه، لانه يعتقد انه الامام الحق الواجب عليه طاعته، كما كان عليه تأدية خمس ما يملكه تمشياً مع الوصية القائلة:

فما كسب احدكم من كسب، او افاد من فائدة، فليخرج خمسه في وقت وصوله اليه فيرفعه الى امامه.

ومن الوصايا التي كان الدعاة يسيرون على هديها ما ذكره القاضي النعمان ابن حيّون لهم في (التعاليم الامامية):

متى ناظرك من ترى انه ألحن بالحجة منك، فاستتر بالباطن يعني ان يقطع كلامه، ويومىء الى ان في ذلك باطناً لا يتهيأ له ذكره، ولا يتمادى في الكلام الى ان يظهر عليه مخاصمه، فيكون ذلك فتنة، وداعياً الى الاصرار على ما هو عليه، ولكن يبقيه على شبهة من امره، ان كان قد وجل في مناظرته، وان علم انه ألحن منه قبل المناظرة، لم يناظره، واستتر كذلك في الباطن منه ما امكنه، لان احتجاج المبطلين ربما شبهوا به، وخيلوا للسامعين انه الحق.

وقد لخّص الامام الخليفة المعز لدين الله كل هذا بكتاب اذاعه على الدعاة.. وهذا هو كما ورد في المصادر الفاطمية:

عليهم ان يبدأوا بصلاح انفسهم... فهم احق الناس بالورع والصلاح والتقوى والعفاف، والعمل بكل صالحة واجتناب كل مكروه، وهذا باب يدخل في جماعة المؤمنين... لقول الصادق جعفر بن محمد: كونوا لنا دعاة صامتين ثم بين ذلك وأخبرهم انهم اذا عملوا صالحاً علم الناس انهم خير فدخلوا في جملتهم وكانوا دعاتهم باعمالهم لا بألسنتهم، وكل مؤمن يعمل الخير فهو داعٍ الى الائمة ولكن سبيله ما حدَّ له. لا ينبغي له ان يتجاوزه ولا يقصر عنه، فرأس امر الدعاة الى اولياء الله وسيد اعمالهم وقطب امورهم. صلاح انفسهم بالدين الصادق والورع الحاجز والدعاة بالحكمة البالغة والمواعظ الحسنة.

ثم ينبغي للداعي اختيار امر من يدعوه، وتعرف احوالهم رجلا رجلا، وتميز كل امرىءٍ منهم، ومعرفة ما يصلح له ان يؤتي اليه، ويحمله من امر الله وأمر اوليائه ومقدار ما يحمله من ذلك. ومدى قوته وطاقته. ومتى يوصل ذلك اليه وكيف يغذوه به وامتحان الرجال. وتعرف الاحوال. ومقدار القوى. ومبلغ الطاقات. وعلم ذلك هو افضل ما يحتاج اليه الدعاة

في باب السياسيات والرياضيات. فكثير ما افسد امر الداعي من جهله بهذا الباب وفسدت دعوته منه، وقد يعترف من يجوز عليه التضييع من الدعاة وينفق عنده منهم وتجوز عليه الحيل من الفساد في امره والخلل في دعوته، ما يطول القول بذكره.

فينبغي للداعي ان يحكم امر هذا الوجه من نفسه ويكون اسبق اهل دعوته به وأقربهم منه وأحقهم بفوائده من حسنت نيته وصفت طويته ودقّ ذهنه وصحَّ اعتقاده وجاء عقله وملك سره وقام بفرض ما كان مماً كثر او قل... شرف عند الناس من كانت هذه حاله او انحط لديهم او صغر او كبر عندهم، الاّ ان يحتاج الداعي الى استمالة الاشراف في حال ما يستميلهم كما تستمال المؤلفة قلوبهم على مقدار احوالهم... فان التقريب على الدين والتفضيل به، والترفيع لأهله اقرب الى اغتباط الناس به ودخولهم فيه.

وينبغي للداعي ان يتهيب عند اهل دعوته، وان لا يعودهم الجرأة عليه، ولا يبسطهم كل البسط لديه فيهون عندهم ويصغر امره لديهم، فأنه كلما كان اهيب عندهم، كانوا اكثر انتفاعاً به وأحرى عنده، وليكن تهيبه ذلك بحسن الصمت وخفض الجناح ولين الجانب وحسن العشرة وجميل المخالفة من غير تجبر عليهم ولا تكبر في امره عليهم، بل يكون التواضع سياه والوقار همته.

وقد جاء عن الصادق جعفر بن محمد انه قال: اطلبوا العلم وتزينوا معه بالوقار والحلم وتواضعوا لمن تتعلمون منه ولمن تعلمونه، ولا تكونوا علماء جبارين فيذهب باطلكم بحقكم.. وقال: من طلب العلم ليدافع به العلماء ويجاري به السفهاء او ليصرف به وجوه الناس اليه ويتكبر عليهم فليتبوأ مقعده من النار. ان الرئاسة لا تصلح الاّ لاهلها.

فينبغي للداعي ان يكون مهيباً في غير تكبر ولا صلف. متواضعاً لا لمهانة ولا لضعف، فان اجتمع له امره واستحكم، واتصل له مراده، وانتظم

وعده في اهل دعوته وعظم فليحسن الى محسنهم ويقربهم على درجاتهم وينزلهم على طبقات اعمالهم ولا يهمل امرهم، فيدع عقوبتهم على ما يتضح له من ذنوبهم، ويصح له من اساءتهم فقد كان من استحكم امره من الدعاة يؤدب من ادب من اهل دعوته بصنوف من الادب فيقضي بعضهم ويهجره ويأمر المؤمنين ان يهجروه فلا يكلمه احد منهم ولا يدانيه، فيبقى مهجوراً في قومه مبعداً في اهله وخاصته حتى تضيق الارض عليه برحبها ويتطارح عليه في التوبة وقبولها ويمتحنه بما شاء ان يمتحنه في نفسه او في ماله او فيما رآه من احواله بعد المدة الطويلة والنكاية الشديدة، ومنهم من يبكته على رؤوس الملأ ومنهم من يذله ويوبخه في الخلأ ومنهم من يأمر بجلده، ومنهم من يحضي العقوبة في قتله ويمتحن بذلك اقرب الناس اليه، فيأمر الأخ بقتل اخيه، والحميم بقتل حميمه فيقتله، ويكون ذلك محنة القاتل في نفسه وعزاء في وليه اذا لم يل امره غيره. وصلاحاً في ان يسلم من الحقد قلبه فيعاقب كل امرءٍ منهم بقدر ذنبه ويجعل العقوبة له بحبسه، ولم يكن يهمل شيئاً من امرهم فاستفاقت لذلك ارادته منهم.

وقد قال علي: ان الله جل ذكره ادَّب هذه الامة بالسيف والسوط ليس عند الامام فيها هوادة ولو علم الله جل ثناؤه: ان عباده يصلحهم التجاوز عنهم لأمرية ولكنه حدَّ حدود الذنب بهم اذا علم لا تبريك له ان بها صلاحهم، فجعل حد القاتل في العمد القتل، وفي السارق بالقطع، وفي المحارب بالصلب او النفي وقطع اليد والرجل والقاذف بالجلد، وفي الشارب بالحد في حدود فصَّلها وأحكام افترضها وأجرها. وطبقات الدعاة والولاة ينبغي لهم التأدب بكل ما جرى ذكره في هذا الكتاب والتخلق به واعتقاده تحولاً وعملا ودنياً ونيَّة ولذلك اجريت ذكرهم فيه وهم اخص بالائمة صلوات الله عليهم من كثير ممن قدمنا ذكرهم، فاذا تأدب المبتديء بها بها اولاً فأولاً واستعملها باباً باباً، صار الى درجة هؤلاء ودخل في جملتهم.

بهذا كله نستطيع ان نقول:

ان الخلفاء الفاطميين وجهوا الدعوة الاسماعيلية توجيهاً علمياً صحيحاً سواء اكان ذلك في حاضرة خلافتهم ام في البلاد التابعة لهم، او بين الاسماعيليين في البلاد الاخرى خارج حدود دولهم. وكان من اثر هذه الدعاية العلمية المنظمة ان انتشرت الدعوة، وذاعت في مصر وفارس والعراق واليمن والشام، وفي عموم البلدان الخاضعة للدولة العباسية، ومن ناحية اخرى فهذا هو اقصى ما تستطيع ان تقوم به دولة شيعية تحكم اغلبية من السنيين فتبشر بمبدأ الامامة والنظريات المتفرعة منها وخاصة ما كان منها يتركز حول تقديس شخص الامام، والوصول الى مرتبة النبوة، وليست نظرية التعليم من الامام الاسماعيلي - الظاهر والمستور - ويقين الامام بالنص، وغيرها من النظريات الاسماعيلية الاّ صدًى لتلك المبادىء.

والذي يلفت النظر حقاً ان هذه التعليمات المذهبية، هي التي تصدى لذكرها المؤرخون، اماً المبادىء السرية والدعوة الباطنية فلم يتناولها احد في البحث، وفي حال تناولها من قبل احدهم، فانها جاءت على غير حقيقتها، لان نهضة الدعوة الباطنية في عهد الفاطميين عامة نمت نمواً مطردا وانجبت الاعلام والفلاسفة الذين استطاعوا ان يحققوا الانتصارات الرائعة والتفوق في ميادين العلوم والثقافة، وان يفتحوا الفتوحات الفكرية في شتى الاقطار الاسلامية.

ولم يكن عهد الحاكم بامر الله الاّ نسخة طبق الاصل عن العهود الفاطمية التي سبقته، وقد يكون امتاز عنها وسبقها في مجالات كثيرة.

ففي عهده بلغت الدعوة الاسماعيلية «الباطنية» او قل الدعوة الامامية درجة عليا من الازدهار والانتشار في مصر والشام والمغرب وبلاد المشرق عامة، فهرع الكثير من الراغبين الى الانتساب اليها، والدخول في صفوفها، والانتهال من ينابيع فلسفتها الدافقة بالعلوم والفلسفة والاداب، وكل ذلك بفضل النظام السائد الذي عزّزه وسهر عليه ورعاه الحاكم بامر الله مضافاً

الى ذلك براعة الدعاة وتفوقهم في مجالات العلم، ودعم الدولة للمؤسسة الاسماعيلية التي كانت تسير في مضمار التفوق والسمو، ولكن بالرغم من كل هذا، فان الايدي الغريبة المتربصة التي كانت تضمر الحقد والبغضاء وتهيء الاسباب لضربها، واشغال الخلافة في قضايا داخلية جانبية تعوقها عن مجابهة الاخطار الخارجية والتورات التي كانت تنبعث من حين لآخر في انحاء الدولة الفاطمية.

اجل.. وعلى حين غرة تسرّب الى داخل مصر، والى القاهرة المعزيّة بعض المتسبين الغرباء الذين تدربوا خارج مصر، وفي ايديهم معاول الهدم والتدمير فأعلنوا عن مذهبهم «الجديد» القائل بالوهية الحاكم بامر الله موقع الرضى والقبول، وانه يقربهم ويضعهم في اعلى درجة، وتبع هذا الفريق بعض الناس.

فماذا كان موقف الحاكم بامر الله من هذه الدعوة الجديدة؟

المصادر التاريخية سواء الفاطمية او الاسلامية الاخرى اجمعت على ان الحاكم بامر الله انبهم ونهاهم وهددهم، وأمر بقتل البعض منهم، ولكنهم لمّا يرتدعوا وظلّوا على اصرارهم وجنونهم، فأحضر اليهم الدعاة من مصر ومن المشرق ومن كل مكان فتولوا نصحهم وارشادهم وقدموا لهم وأخروا، ولكنهم ظلواً على غيهم ينفثون سموم الكفر والالحاد، ويقولون بالحاكم بامر الله اقوالاً لم يسبق لاحد من ابائه وأجداده ان سمعها من قبل.

وهنا نرى من واجبنا ان نتساءل ونقول:

من اين جاءت هذه الفئة، وما هو اصلها، ولماذا اعتنقت هذه الافكار المغايرة والمخالفة للمباديء الفاطمية في ذلك الوقت بالذات؟

الجواب: انهم فئة من الغرباء الشعوبيين الذين وفدوا الى مصر من بلاد اجنبية بعيدة حاملين معاول الهدم والتخريب وتشويه سمعة الائمة الفاطميين ودعوتهم وعقيدتهم.

وقال قائل: انهم «الموحدون»... ولكنها كلمة لا تنطبق على واقع، ولا تقرها الحقيقة.

انني هنا... وفي هذا الكتاب لا اتحامل على احد، ولا اتهجم على الاديان .. وليس من مبدأي التعرض للمذاهب، او التصدي لانتقادها، او اتباع سبيل التعصب الذميم الذي كان وما زال من اشرس الاعداء للانسانية، وفي الوقت ذاته ليعلم القاريء الكريم بأني لا اتزلف الى احد، ولا استجدي العطف من احد، وكل ما ارمي اليه هو الحقيقة، ولا شيء غيرها.

ان فرقة الغلاة «التألهيين» التي ظهرت بعهد الحاكم بأمر الله، ونادت بالوهيته لم تعش طويلاً كان لها جولة ثم اضمحلت، كما اضمحل غيرها من الفرق الخارجة على النظام السماوي والقانون الالهي، فالمعلومات التي لديّ تفيد بانها ابيدت في عصر الحاكم بامر الله، وبعهد ولده الظاهر لاعزاز دين الله... وانتهى امرها.

اماً الموحدون الدروز، فهي الفرقة التي انشقت عن الاسماعيلية الام، وتوقفت عن الركب الامامي عند الامام الحاكم بامر الله، وقالت بعودته، واني لا ارى اي مأخذ يمكن ان يؤخذ عليها في اجتهاداتها.... الم تتوقف الشيعة قبلها عند الامام الثاني عشر؟ ثم الم تتوقف الاسماعيلية المستعلية فيما بعد عند الامام الطيب، وهكذا الفرقة المؤمنية النزارية؟

لقد قرأت بعض كتب هذه الفرقة، واطلعت على العديد من مخطوطاتها، وعرفت الكثير من رجالاتها وشيوخها، وفيهم علماء وادباء ورجال وطنية لهم جولات وخدمات عربية واسلامية... والحقيقة ليس في كتبها واعتقاداتها ما يصح ان نسميه خروجاً على المألوف، وانها في كل ادوارها كانت تتبع التعاليم الفاطميّة الصحيحة التي تحارب الانحراف والغلو والشرك والتطرف، وقد ورد كل هذا في رسائل اخوان الصفاء والرسالة الجامعة التي نبهّت ودعت الى التمسك باهداب الاسلام والقرآن ولكن عن

طريق العلم والعقل والمنطق، وقد اسيء فهم كل هذا، وكان خطأ النقّاد بعدم فهمهم للرموز وللاسماء وللحدود التي وردت في كتبهم.

ففي كتبهم تطالعنا اقوال دعاتهم التي تنص:

على ان الله هو الواحد الأحد، الفرد الصمد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً احد... فهو المنزه عن الاسماء والصفات... لا يتجانس، ولا يحد، ولا يتشاكل، ولا تبصره الابصار.

ثم قالوا:

بان الحاكم بامر الله هو امام وحارس الشريعة ومصدر القوانين، وانه ممثول العقل الفعّال في عالم الطبيعة، كما قالوا بالحدود العلوية كالامر والكلمة والعقل والنفس... الخ وطبقوها على حدود العالمين الجرماني والطبيعي، والجسم، ورتبوا العقول العشرة، وآمنوا بالتأويل الذي يفسّر المعاني الباطنية، وكل هذا لا يختلف عماً لدى الاسماعيلية الاّ ببعض الاجتهادات والنظريات والفروع.

ومهما يكن من امر فكل هذا قد ورد في كتاب «اصل الموحدين الدروز» لمؤلفه امين طليع، وهذا الكتاب قرَّظه مشائخ العقل، وأقروا ما جاء فيه، وباركوا عمل مؤلفه. ففي الصفحات «٦٤ و ٦٥» قال ما نصَّه الحرفي:

كان بعضهم يخاطبونه بسيدنا، ومولانا... فمنهم من ذلك، على ان يكتفوا بلقب امير المؤمنين وأباح دم كل من خالف ذلك. ومن اوامره:

ان لا يقبل احد له الارض، ولا يقبل ركابه، ولا يده عند السلام عليه في المواكب، وان لا يزاد على قولهم:

السلام على امير المؤمنين ورحمة الله وبركاته... ولم يقل الخطباء يوم الجمعة سوى:

اللهّم صلّ على محمد (ﷺ) المصطفى، وسلم على امير المؤمنين علي

المرتضى... اللهّم سلّم على امراء المؤمنين اباء امير المؤمنين... اللهم واجعل افضل سلامك على عبدك وخليفتك.

وجاء في كتاب: مذهب الموحدين الدروز صفحة /١٥٠/ ما يلي:

حكم /٢٥/ عاماً من سنة ٢٨٦ هـ. حتى سنة ٤١١ هـ. فلم نجد في اثنائها لا في سيرته، ولا في اقواله انحرافاً عن الاسلام، وليس لدينا ما هو منسوب اليه، او صادر عنه ما يدل على دعوى الالوهية، او يخالف شروط الخلافة وأحكام الاسلام.

واخيراً: لا بد من التوضيح بان مذهب الدروز الذي قرأنا عنه هو مذهب توحيدي قائم على العقل، وعلى دعائم من الفلسفة، وقد ذكرنا بانهم يقولون بالتوحيد ورفض كل شرك، وبأن الله هو احد فرد صمد، والى جانب ذلك توجد قاعدة التأويل، واعتقد بان هذا المبدأ بحاجة الى توضيح وخاصة بالنسبة للعامة ومن جهة ثانية فان الكتب التي وقعت في ايدي الغرباء عن المذهب اسيء فهمها، وربما ادخلوا عليها، وان عباراتها ورموزها وبعض اصطلاحاتها لا يعرف معناها الاّ اصحابها، ومن هنا انطلقت الاقوال وراج سوق الاتهامات ودخلت دعوتهم في دنيا القصص والاساطير.

وكم يطيب لنا في هذه الصفحات ان نأتي على موجز لدعاة الموحدين، وذلك تتمة للموضوع الذي نعالجه واعني به الحاكم بامر الله.

١ ـ حمزة بن علي بن احمد الزوزني:

ولد سنة ٣٧٥ هـ. وتخرج من جامعة «جند يسابور» بفارس. كان عالماً كبيراً فاق اقرانه في العلوم الدينية، والفلسفة الالهية. التحق بدار الحكمة في القاهرة المعزّية، وتقرّب من الخليفة الحاكم بامر الله، وحظي عنده بمكانة مرموقة. لقبه العقل وهادي المستجيبين.

٢ ـ اسماعيل بن محمد بن حامد التميمي :

كان عالماً وقائداً وشاعراً، قاد جيوش الحاكم بامر الله في كثير من الميادين. كان اليد اليمنى لحمزة... كتب مجموعة من الرسائل الفلسفية القيمة... لقب بالنفس الكليَّة، والشيخ المجتبي، وهرمس الهرامسة، وأخنوخ الزمان، والحجة الصفيَّة الرضيَّة.

٣ ـ محمد بن وهب القرشي :

ينتسب لآل البيت النبوي الكريم... كان عالماً وصادقاً... لقب بالكلمة والشيخ المرتضى، وسفير القدرة، وفخر الموحدين، وعماد المستجيبين، والكلمة العليا... ذكر انه له عدداً من المؤلفات والرسائل.

٤ ـ سلامة بن عبد الوهاب السامري :

لقب بالسابق تكريماً واجلالاً، وسمي الشيخ المصطفى، ونظام المستجيبين، وعز الموحدين، والجناح الأيمن.

٥ ـ علي بن احمد السموقي :

كان غزير المادة، ومجتهداً ودؤوباً على الدرس والعمل، كتب اكثر رسائل التوحيد وظلَّ يكافح حتى سنة ٤٣٤ هـ. وهو التاريخ الذي تمَّ بخلاله اغلاق باب الدعوة التوحيدية تقيةً وتفادياً من الجور والظلم والتشريد والتنكيل والقتل الجماعي الذي نزل بالموحدين في مصر والشام على ايدي حاكمها صالح بن مرداس الكندي.

لقبه الشيخ المجتبى وبهاء الدين، ولسان المؤمنين، وسند الموحدين، والناصح لكافة الخلق اجمعين.

في خاتمة المطاف لا بد من القول:

بان ما ذكرناه باختصار عن الموحدين الدروز كان بدافع الغيرة على ايراد الحقائق المجردة ووضع الامور في نصابها، بعد ان شوّه المخربون تاريخنا العربي والاسلامي، واعملوا فيه هدماً وتخريباً.

فما احرانا وقد انقضت عصور الظلام... ان نعود الى ضمائرنا وعقولنا نستمد منها الحقائق المجردة، ونستوحي منها الفضائل والاخاء والتآلف، وننبذ الاحقاد القديمة والرواسب الدينية ونبعد التعصب الطائفي الذميم الذي هو اعدى اعداء الانسانية.

ان تاريخ الدولة الفاطمية لا يزال تكتنفه سحابة من الغموض حجبت الحقيقة وطمست الكثير من الاعمال الجبّارة والخدمات الانسانية التي اضطلع بها الخلفاء الفاطميون في ذلك العصر الزاهر والتي كان لها الفضل الأكبر على الحضارة الاسلامية، واحياء العلوم والفلسفة العربية والآداب والفنون بالرغم من العقبات وموجات الفساد واضطراب حبل الدولة في بعض الاوقات.

نهاية الحاكم بامر الله العجيبة:

نهاية الحاكم بامر الله، واختفاؤه امر عجيب وسر رهيب لم يستطع العقل تصوره او حل رموزه، او الوصول الى نتيجة تنير السبيل، وتلقي الاضواء على تفاصيله واسراره.... نهاية الحاكم بامر الله قضية معقدة من قضايا التاريخ الكبرى، التي فتحت الابواب للتكهنات، وأفسحت المجال للافتراضات وصياغة القصص والاساطير... نهاية الحاكم بامر الله العجيبة تستدعي حقاً التساؤل والاهتمام والتوقف والتأمل.... فالحاكم بامر الله بدأ لغزاً صعب الحل، وانتهى سراً لم يتمكن احد من الوصول الى استجلائه، وهكذا بقي وسيبقى لغز الدهر وسر الزمن الى ما لا نهاية. امّا اقوال المؤرخين، وامّا الروايات والأساطير فكلها جاءت دونما دليل، وكانت في

جملتها مضطربة لا تشفي عليل ولا تروي غليل.

وكل هذا يزيد في الاعتقاد بان جريمة الاغتيال واخفاء الجثة دبرت من قبل رؤوس كبيرة في الدولة لهم سوابق في اقتراف الجرائم، وماضٍ عريق في اعمال القتل والاغتيالات، وربما كانوا ممن نجوا من سيفه، وفروا الى بلاد بعيدة، ثم عادوا متنكرين وبأيديهم الخناجر مدفوعين من عناصر او دول معادية، وربما كانوا ممن نال احد اقربائهم الاذى، او لعلهم ممن كانوا يحملون للحاكم بامر الله الحقد الديني - وهؤلاء كانوا كما مرَّ معنا يحلون مسبته على منابر المساجد اثناء صلواتهم ... وليس بعيداً ان يكونوا من الاقباط اليعاقبة الذين كانوا يخوضون حرباً عنيفة ضد الاقباط الملكيين اخوال الحاكم وهؤلاء كانوا مشمولين بعطفه ورعايته ومحسوبين في كل ما يبدر منهم عليه. وليس هناك اغرب واتفه من اتهام شقيقة الحاكم الاميرة ست الملك بانها كانت وراء الجريمة. ونحن هنا ملزمين بترديد ما ذكرته المصادر، بالرغم من اننا لا نقرها ولا نؤمن بصدقها... فهذه المصادر ذكرت:

بان ست الملك استعانت باحد قوّاد الجيش المسمّى «حسين بن دوّاس» وهو مغربي من شيوخ كتامة، فذهبت اليه متنكرة ليلاً، فاستحلفته، وبعد ان وثقت منه قالت له:

انت تعلم ما يقصده اخي منك... فهو يريد قتلك... وفوق هذا لقد ادَّعى الالوهية، وهتك ناموس الشريعة الاسلامية، وناموس ابائه وأجداده، وزاد جنونه... وذكروا:

ان الاميرة ست الملك وعدته بان تجعله القائد الأعلى للجيش والبلاد، كما وعدته بالاموال والاقطاعات. فقبل ابن دوّاس العرض، وباشر بتنفيذ الجريمة بان ارسل عبدين من عبيده... حيث نفذا عملية الاغتيال بسهولة... لان الحاكم بامر الله كان مولعاً بالخروج الى جبل المقطّم في الليل حيث يتفرّغ للانقطاع والعزلة ومراقبة حركات النجوم ورصد

الكواكب، وكان من عادته ايضاً ان يستبقي بعض الخدم بانتظاره كل ليلة عند باب القصر، فاذا ركب ركبوا معه، وعندما يصل الى الجبل كان يردهم ما عدا الركَّابي اي حارسه الخاص، وممَّا ذكروه ايضاً :

ان الاميرة ست الملك راقبت أخاها من قصرها الذي كان قريباً من قصر اخيها . . . فلمَّا خرج ارسلت وراء العبدين وزودتها بخنجرين حادين، فلحقا به الى الجبل، وهناك اجهزا عليه، كما قتلا الركَّابي ثم حملا جثة الحاكم بامر الله الى ابن دوَّاس فحملها الى ست الملك حيث عملت على اخفائها . وزاد المؤرخون على هذه القصة بان قالوا :

ان الاميرة ست الملك عمدت فيما بعد الى قتل ابن دوَّاس والعبدين، وذلك اخفاءً للجريمة .

وهناك رواية اخرى تقول :

ان الحاكم بامر الله ليلة خروجه الى المقطَّم، وكان يرافقه الركَّابي حارسه الخاص وحده، اعترضه سبعة رجال من البدو، والتمسوا منه العطاء بجفاء وغلظة فأجابهم: بانه لا يحمل مالاً يدفعه لهم، ولكنه يرسلهم الى متولي بيت المال، وكان حينئذٍ ابن بدوس ليدفع لهم خمسة الاف درهم فقالوا : انهم لا يمضون اليه لانه لا يدفع لهم شيئاً، واشتد الجدل بينهم وبينه، واخيراً طلبوا اليه ان يرسل معهم الركَّابي لينجز لهم ما وعد به من عطاء، فأمر الحاكم بامر الله الركَّابي بمرافقتهم، وسار مع اربعة منهم صوب المدينة وتخلَّف الثلاثة الآخرون، ثم ان الركَّابي عاد بعد ان ادَّى مهمته، فلم يجد سيده في المكان الذي تركه فيه، وطال بحثه دون جدوى حتى لقيه احد الرجال فسأله: وذكر له صفة الحاكم بامر الله وصفة حماره، فأخبره انه رأى الحمار في طريقه معرقباً، ثم اخذه وسار به الى الموضع. وفي صباح اليوم التالي سارت الاميرة ست الملك وجميع الامراء والوزراء والقوَّاد الى الجبل يتتبعون اثر الحاكم بامر الله حتى وصلوا الى « دير القصير » وهناك بحثوا في الدير، وفي جميع المواضع التي كان من عادته ان يرتادها، فلم

يقفوا له على اثر، ولكنهم عثروا بعد ذلك على ثيابه، وفيها اثار الطعنات والدماء، ولكنهم لم يجدوا الجثة، فاستدلوا من ذلك على ان البدو الثلاثة الذين تخلفوا عن رفاقهم هم الذين قتلوه، وأخفوا اثره في الجبل.

وذكر مؤرخ آخر:

بان الحاكم بامر الله لمّا سار في طريقه الى المقطّم، وبعث الركّابي مع نفر من بني قرّة الدين اعترضوا طريقه، صرفوا الركّابي عند قبر الفقاعي في وسط القرافة الكبرى، ولمّا لم يعد الحاكم كعادته في صباح اليوم التالي، خرج القضاة والاشراف والوزراء والقواد الى الجبل، فبحثوا عن الحاكم بامر الله حتى آخر النهار، ولكنهم لم يعثروا له على اثر، وكرروا الذهاب على هذا النحو ثلاثة ايام دون جدوى، وفي اليوم الخامس خرج مظفّر صاحب المظلة، ونسيم صاحب الستر، وابن مسكين صاحب الرمح، وعدة اخرين من رجال الدولة وتوغلوا في شعب المقطّم حتى بلغوا دير القصير على مقربة من حلوان، وهناك عكفوا على البحث والتنقيب حتى عثروا على الحمار الأشهب وقد قطعت ساقاه الاماميتان، وعليه سرجه ولجامه، فتتبعوا الاثر، واذا هناك اثر راجل خلف اثر الحمار، وأثر رجل آخر امامه، فتتبعوا ذلك الاثر وما زالوا حتى وصلوا الى البركة الواقعة شرقي حلوان، فنزلها البعض، حيث عثروا على ثياب الحاكم بامر الله وهي سبع جباب مزرّرة لم تحل ازرارها، وفيها اثر الطعنات... وعندئذٍ ايقن الناس بقتله.

وهناك رواية اخرى تقول:

قبض على رجل من «بني حسين» فأقرّ بانه قتل الحاكم بامر الله في جملة اربعة رجال تفرقوا في البلاد.... وحينما سأل عن الدوافع والاسباب؟ اجاب:

غيرتي على الاسلام.

ومهما يكن من امر فان الامير المسبحي كان برأيي مؤرخاً كبيراً وثقة

بايراد الوقائع وحوادث التاريخ، وبالاضافة الى كل ذلك كان من معاصري الحاكم بامر الله نفسه، والمرجح انه وقف بنفسه على كثير من التدابير التي اتخذت عقب اختفاء الحاكم وسمع من المصادر الوثيقة كثيراً من الأحاديث التي ذاعت حول مصرعه، وليس ثمة شك في روايته للواقعة التي ينقلها الينا عن ذلك الرجل المقبوض عليه، ولكنه يتساءل بقوله: هل نطق ذلك الرجل بالحقيقة؟ وهل كان في حقيقته من قتلة الحاكم بامر الله؟ هذا هو موضع الشك، ومن الصعب ان نصدق ان رجلاً او رجالاً من العامة يستطيعون ان يدبروا، وان ينفّذوا وحدهم مثل هذه الجريمة المروعة في مثل هذا الخفاء والإحكام؟ اللهمَّ الاَّ اذا كانوا مأمورين ومستأجرين ويعملون لحساب رؤوس كبيرة او دول عظمى لها الحول والطول والقوة... والظاهر ان الرجل كان من المتحمسين جداً او من المعتوهين، او انه اراد ان يجعل من نفسه بطلاً اسطورياً يدخل التاريخ الى جانب الحاكم بامر الله.

والمهم في رواية الأمير المسبحي هذه انها تبريء الاميرة ست الملك من تبعة الجريمة، وهذه التبرئة يؤيدها ايضاً المؤرخ المقريزي، ولكنها تتفق وتؤكد في ان الحاكم بامر الله ذهب ضحية الجريمة والمؤآمرة، وانه توفي قتيلاً، وان جثته اختفت ولم يعثر لها على اي اثر.

وهناك مصدر آخر ينفي عن الاميرة ست الملك قتلها لأخيها، ويرجح قتله ولأسباب شخصية وثأرية على يد ابن دوّاس كما ذكرنا سابقاً. فمن المعروف ان الحاكم بامر الله كان يريد قتله، فهرب ابن دوّاس واختبأ في مكان مجهول حيث عكف على تدبير قتل الحاكم بالاتفاق مع جماعة من اهل البوادي في مصر ممن كانوا قد ثاروا على الدولة الفاطمية والتحقوا بأبي ركوة... وبعد ذلك ندم على فعلته، وآوى الى منزله لا يرى احداً ولا يخرج... ولكن الاميرة ست الملك تحايلت عليه، وجاءت به الى القصر حيث اودعته السجن، وبعد ذلك ارسلت من فتش منزله فوجدوا في بعض صناديقه السكين التي كان يحملها الحاكم بامر الله في كمه، وعندئذٍ تحقق انه

القاتل وانه كان وراء الجريمة، ويدلل المصدر على صدق الرواية بقوله:

ان ابن دوّاس كان من شيوخ كتامة المغربية، وأنّه عين مكان الحسن بن عمار بعيد مقتله، وانه كان مسيطراً على المغاربة، ولمّا كان الحاكم بامر الله قد عامل المغاربة معاملة قاسية سواء ايام ثورة أبي ركوة او قبل ذلك كما مر معنا، فيكون قد نقم عليه وأراد التخلص منه تأراً لابناء قومه.

وهناك رواية اخرى عن مقتل الحاكم بامر الله تذكر:

ان القتلة من قبيلة المصامدة المغربية، وانهم اقترفوا الجريمة بدافع من الامويين الاندلسيين، وذكر احدهم: بانهم من السويديين المنتسبين الى زعامة سويد بن الحارث.

ومهما يكن من امر فكل هذا لا يقاس بشيء ازاء اتهام الاميرة ست الملك بقتل شقيقها الحاكم بامر الله والحقيقة فهذا الزعم يشغل البال ويفسح المجال للتساؤل.

لماذا قتلت الاميرة ست الملك اخاها الحاكم بامر الله. وما هي الفوائد التي جنتها من ارتكاب مثل هذه الجريمة الشنعاء؟... وهي الأميرة القوية النابهة التي كانت ساهرة ويقظة على مصير الدولة، وعلى توطيد دعائمها وتوجيه شؤونها بفطنة وبراعة.

اجل... لماذا تقدم الاميرة ست الملك على اقتراف مثل هذه الجريمة، وهي تعيش آمنة مطمئنة برغد وهناء في قصرها الغربي الذي بناه والدها العزيز بالله، وحولها مئات من الجواري... يغمرها المال والجواهر والرياش والتحف... فضلاً عن مئات الجنود الذين انيطت بهم حراسة قصرها وخدمتها وتوفير الامن لها... ويجب ان لا ننسى بان الوزراء والقواد والاعيان وكبار رجال الدولة كانوا يتهافتون على قصرها لنيل تأييدها وعطفها، فضلاً عن آخرين كانوا يطمعون بواسطتها الى الوصول للمراكز والتقرب من الخليفة، ومن جهة اخرى فانّا لم نسمع بان الحاكم

بامر الله عاكسها او حجر عليها او منعها من التدخل بسياسة الدولة، بل بالعكس كان يستشيرها ويولي اراءها ونصائحها كل قبول وتقدير. كما انَّا قد لمسنا في مواقف كثيرة بانها كانت موضع عطف الحاكم بامر الله وانها كانت تبادله العطف، فتسهر على سلامته وتوجهه صغيراً وكبيراً وتمده بالاراء الحصيفة، وقد وصفها بعض المؤرخين الصادقين بقوله:

انها كانت اعقل امرأة عرفها التاريخ وأحزمهن... وليس في تاريخها ما يشين.. بل على العكس اجمعت المصادر التاريخية على مدحها والاشادة بحزمها وعقلها وكياستها، وكل هذا يضاف الى ما ذكره المقريزي والامير المسبحي وغيرهما من المؤرخين وقولهم:

بانه من المشكوك فيه جداً ان تنحدر هذه الاميرة الفطنة الى مثل هذا المسلك المشين.

هذا ومن جهة اخرى فلا ادري كيف اصدق الروايات واقتنع بصحتها وحقيقتها، وهي تذهب بعيداً في عالم الاساطير ودنيا السخافات... اجل انه لم المستغرب جداً ان نصدق قول بعضهم:

بانه عند البحث عن الحاكم بامر الله، لم يجدوا الاَّ حماره الاشهب مقطوع القوائم، وعليه سرجه ولجامه كما وجدوا جبَّات الحاكم وعددها سبعة وهي من الصوف، وكانت مزررة بحالها، ولكن فيها اثر السكاكين.

كلنا يعلم ان مصر بلاد حارة، وان الصقيع والثلج لا يقع الاَّ نادراً، واني لا ادري كيف كان الحاكم بامر الله يطيق لباس سبع جبَّات من الصوف فوق بعضها البعض، وكيف كان يتحملها؟

كم اتمنى ان انال جواباً مقنعاً، يقرب اليّ الواقع، ويبعد عني الهواجس والافكار والظنون وانا في مثل هذا الواقع المؤلم.؟

في الحقيقة:

ان مقتل الخليفة الحاكم بامر الله يعتبر مأساة من مآسي التاريخ، وانه

اللغز الذي لم يهتد احد حتى الآن الى معرفة ما كمن ويكمن وراءه...
ولكن كل شيء يمكن تحليله ودراسته والوصول الى حقيقته عندما يكون العقل والضمير هو الرائد والدليل .

واخيراً :

فان مقتل الحاكم بامر الله تمَّ على ايدي الفئة الغريبة التي غالت فيه، ووضعته في مصاف الالهة ... وقد فعلت ذلك لتدعم اعتقاداتها بان الحاكم دخل في كهف الاستتار، وانه سيعود يوماً ما ليملأ الارض عدلاً كما ملئت جوراً وظلماً، وهذه الفرقة جاءت من فارس وكان اكثرها على مذهب المجوسية، ومن المعلوم ان الحاكم حاربها وحكم على رجالاتها بالموت حتى لم يبق لها اثر .

واني اجل الاسماعيلية او شقيقتها الدرزية الموحّدة عن متل هذه الادوار القبيحة تمثلها مع امامها وخليفتها ومعلمها الحاكم بامر الله .

ولاية العهد :

ينتسب الحاكم بامر الله الى الرسول الكريم محمد (ﷺ) عن طريق ابنته فاطمة الزهراء، والى الامام علي بن ابي طالب ابن عم الرسول وزوج ابنته فاطمة .

فهو فاطمي لانه من سلالة فاطمة، وعلوي لانه ينحدر من علي، وقد اشتهر افراد اسرته بالكفاح في سبيل زعامة المسلمين ـ اي الخلافة والامامة ـ لان الامام علي وابناءه من بعده كانوا يرون انهم احق من سواهم بالخلافة والامامة، ولهذا قامت الحروب بينهم وبين الامويين والعباسيين، حتى قام الاسماعيلية بدعوتهم حول منتصف القرن الثاني للهجرة، فتكللت جهودهم وتمكنوا من اقامة الدولة الفاطمية في المغرب سنة ٢٩٦ هـ

وبقيام الدولة الفاطمية المذكورة انتهى اخطر دور مرَّ على الاسرة

الفاطمية، فانقضى دور الستر، وجاء دور الظهور او بعبارة اصح انتهى دور المحن والكوارث وحلّ محله دور العمل والبناء والاستقرار .

واذا كانت الدولة الفاطمية قد قامت في المغرب على يد امام مستودع ووصي على الامام المستقر الأصيل، واعني به = عبيد الله المهدي = ووصايته على القائم بامر الله، فليس معنى هذا ان الدعوة الاسماعيلية قد تخطت الحدود، ووقعت في محنة او اضطراب داخلي، لان قوانين وانظمة هده الدعوة تجيز للامام المستقر الاصيل الاستتار، وتكليف احد الحجج الكبار بان يكون اماماً مستودعاً متمتعاً بكل صلاحيات الامامة في حياته، ولا يصح له ان يورثها لغيره، بل عليه ان يعيدها الى صاحبها الاصيل عند الحاجة، وعند زوال الاسباب، ويشترط في هذا الامام المستودع الوكيل ان يكون من الاسرة الفاطمية نفسها .

وهكذا فيكون عبيد الله المهدي هو الامام المستودع، والوصي على القائم بامر الله ووالده الروحي اي مربيه، ومن المؤكد والمعروف ان الامامة والخلافة الفاطمية في المغرب آلت الى القائم بامر الله مباشرة بعد ان زالت الاسباب، واصبح الامام الصغير قادراً على القيام باعباء الامامة .

وللدلالة على صحة هذا القول نذكر:

بان احدى نساء عبيد الله المهدي كانت تقول لاولاد المهدي بعد وفاة والدهم:

والله . . . لقد خرج هدا الامر من هذا القصر يعني قصر عبد الله فلا يعود اليه ابداً، وصار الى ذلك القصر يعني قصر القائم بامر الله، فلا يزال في ذرية صاحبه ما بقيت الدنيا .

وهذا معناه ان اولاد المهدي هم غير ابناء القائم، وان كانوا ابناء عمومة .

ان تربية اولاد العهود والمرشحين للامامة في الدعوة الفاطمية وطريقة

تعهدهم وتوجيههم ناحية جديرة بالاهتمام والدراسة، فقد ذكرت المصادر الفاطمية:

ان الجد لا الأب كان يتعهد ولي العهد، وقد ذكرنا في مناسبات نقلاً عن المصادر الفاطمية ان عبيد الله المهدي اهتمَّ بتربية المنصور بالله اكثر من اهتمام ابيه القائم بامر الله، كما ان القائم بامر الله اهتمَّ بتربية المعز لدين الله اهتماماً فاق اهتمام والده المنصور بالله، وهكذا دواليك.

ويبدو ان الخلفاء الفاطميين كانوا يعدون اولياء العهود اعداداً مذهبياً دينياً فيحتمون عليهم البحث في كتب الباطن والتأويل، ويشجعونهم على الامعان في دراستها وفهمها.

هذا من جهة ومن جهة اخرى، فان يقين الامام بالنص كان امراً مسلماً به عند الفاطميين فقد ذكرت المصادر الفاطمية ان الخليفة الثالث المنصور بالله قال لولي عهده المعز لدين الله حين عهد اليه بالامامة:

والله ما انا آترتك بما اترتك به، بل الله آترك واختصك وأعطاك واجتباك...... والله لو ملكت من الدنيا درهما فما فوقه من غير هذا الوجه لما استجزت ان احص به احداً من ولدي دون احد. فأمَّا ما خولني الله من الكرامة واصطفاني به من الامامة، فانما هو متاع عندي وعارية في يدي الى انقضاء المدة وتمام العدة؛ ثم هو لك بحكم الله وامره واعطائه لا عن امري وحكمي واختياري واختصاصي اياك به. مضافاً الى ذلك انه كان يتحتم على الامام ان يستغل تجاربه في تثقيف ولي عهده، فنرى المنصور بالله يوصي ولي عهده المعز لدين الله بقوله:

اني اجمع لك الوصايا كلها في كلمة واحدة... فانظر... فما كنت رأيتني افعله فافعله، وما كنت رأيتني تركته فاتركه، واصنع بعد وفاتي ما كنت رأيتني اصنع في حياتي.... فنعم السلف انا لك.

ومهما يكن من امر، فان الخلافة كانت مقصورة على امراء البيت

الفاطمي، ويشترط فيمن يليها ان يكون اماماً ـ مستودعاً او مستقراً ـ فلا يليها ائمة من غير سلالة اسماعيل بن جعفر كما لا تنتقل اليه الخلافة الاَّ بنص من الامام السابق، كما لا يستطيع ان يعهد لأكثر من واحد، وبعبارة اخرى فانه لا يقع النص بالخلافة الاَّ على امام واحد .

وهذا ما يميز ولاية العهد عند الفاطميين عن ولاية العهد عند غيرهم كالأمويين والعباسيين، فان الامويين كانوا يعهدون بالخلافة لأكثر من واحد، وقد اسرف العباسيون في ذلك فعهدوا بالخلافة من بعدهم الى ثلاثة اشخاص، ممّا ادىَّ الى قيام المنافسة بين افراد البيت المالك .

والحقيقة :

فان نظام ولاية العهد عند الفاطميين، يؤلف فصلاً رائعاً ممتعاً في تاريخ الخلافة الفاطمية وخاصة في الدور المغربي. لان انتقال الامامة من الخليفة الأولى عبيد الله المهدي الى الخليفة القائم بامر الله... كان معناه رد الوديعة الى صاحبها الشرعي، فقد ادَّى المهدي الى القائم امانته وسلَّم اليه رتبته واعطاه وديعته التي استودعها الله اياه له، فلم يجعل لسائر اولاده فيها نصيباً، بل اقرَّ الحق في مقره وجعله في مستقره .

ومن ثَمَّ لم يكن بد من يضع ائمة الاستقرار الأصيلين الذين يبدأون في الحقيقة بالخليفة الفاطمي الثاني القائم بامر الله نظاماً لانتقال الامامة والخلافة معاً من شخص الى آخر، وهذا النظام سار عليه كافة الخلفاء، فكان على الامام ان يعين خليفته قبل ان يدفن سلفه بيده، وان يشهد على هذا التعيين اخلص الناس اليه .

ان ولاية العهد في الدولة الفاطمية، هي من اكبر المناصب واخطرها، وأنها كانت تخضع لقوانين وأحكام واصول كان الخلفاء الفاطميون يحرصون على تطبيقها بمنتهى الدقة، ويلتزمون بسننها ومموادها حتى يكون مستقبل الامامة والخلافة مضموناً، وغير مفتوح للطامعين والراغبين .

فقد مرَّ معنا ان بعض الخلفاء كانوا يضطرون في مناسبات عديدة، وعندما تقتضي الظروف الى اقامة اوصياء او مربين على اطفالهم المرشحين للخلافة، ولم يكن هؤلاء من الغرباء عن الاسرة الفاطمية .

وسار الحاكم بامر الله على هذا النهج عندما اختار قريبه « عبد الرحيم بن الياس بن احمد علي المهدي بالله » وهو من نسل عُبيد الله المهدي الخليفة الفاطمي الأول في المغرب، ومعنى هذا انه اختاره ليكون كفيلاً لولده الظاهر لاعزاز دين الله حتى حين بلوغه سن الرشد . وهذا الدور سبق ان اضطلع به جده عبيد الله المهدي عندما تسلَّم الوصاية على الامام القائم بامر الله، واعتبر اماماً مستودعاً وأباً روحياً .

واننا نلاحظ ان الحاكم بامر الله اعطاه رتبة ولاية العهد وكالةً بدليل انه سمَّاه: ولي عهد المسلمين، بينما احتفظ لابنه الظاهر لاعزاز دين الله باسم ولي عهد المؤمنين . . . ومعنى الأول الاستيداع، بينما التاني الاستقرار . وكل هذا قد خفي على المؤرخين، ولم يصلوا الى معرفته بالرغم من انهم افردوا له الصفحات الطوال، ونسجوا حوله الروايات والأساطير .

هذا ومن الجدير بالذكر ان اولاد عبيد الله المهدي، بعد وفاة والدهم حدثتهم نفسهم بالخلافة وساءهم ان تذهب من بيتهم، ففكروا القيام بانتفاضة ومعارضة على القائم بامر الله، وحجتهم ان والدهم عبيد الله هو المؤسس الفعلي للدولة، وانهم احق بوراثتها من غيرهم، ولكنهم لم يجدوا اذناً صاغية، لان وصية والدهم قبل موته اذيعت على كل الناس . . . وهكذا لم تجد محاولاتهم اية نتيجة، وكان ان نقم عليهم القائم بامر الله واخذ يرصد تحركاتهم ونشاطاتهم، وافترض عليهم اخيراً الاقامة الجبرية ممَّا اضطر بعضهم الى الهرب من المغرب، وحدثنا جوذر الكاتب وهو احد المخلصين للبيت الفاطمي بان المعز لدين الله كثيراً ما كان يوكل اليه امر مراقبة ابناء عبيد الله المهدي .

امَّا عبد الرحيم هذا فالمصادر الفاطمية تذكر: انه جاء من المغرب

واستقرَّ في مصر بعد ان تمَّ فتحها من قبل القائد جوهر الصقلي بعهد الامام المعز لدين الله، وظلَّ فيها حتى وفاة هذا الخليفة، وبعد استلام العزيز بالله جاء به وقرَّبه وأناط به بعض المسؤوليات، وحينما تسلَّم الحاكم بامر الله شؤون الخلافة ازداد منه تقرباً، ولمّا كان ولي عهده الظاهر لاعزاز دين الله صغيراً فانه اناط به ولاية العهد بالوكالة وذلك ليقوم بالدور الذي قام به جده عبيد الله المهدي في المغرب بالنسبة للقائم بامر الله.

ذكرت بعض المصادر التاريخية الموتوقة:

ان الحاكم بامر الله منح «عبد الرحيم» كافة الصلاحيات التي تمنح لأولياء العهود خاصة باستثناء «المظلّة» وذكر انه بعد ان اخذ له البيعة من جميع رجال الدولة، وألبسه الثياب الخاصة قرأ سجل تعيينه على منابر المساجد في عموم انحاء الدولة، وأمر الناس بالسلام عليه والقول:

«السلام على ابن عم امير المؤمنين، وولي عهد المسلمين».

وممّا تحدر الاشارة اليه انه اشركه في امور الدولة، ومنحه صلاحيات النظر في الادارة وفي المظالم، والنيابة عنه في الخطبة والصلاة بالناس في ايام الجمع والاعياد، واخيراً عهد اليه بولاية الشام بعدما رأى من حسن ادارته وبعد نظره، وخبرته بالادارة والسياسة.

وبعد وفاة الحاكم بامر الله كان الظاهر لاعزاز دين الله قد بلغ السابعة عشرة من عمره فخرجت الاميرة ست الملك، ودعت وزراء الدولة والقوّاد والقضاة، وساعدها في ذلك الوزير عمّار بن محمد فبايعوا الظاهر في الخلافة، كما اعلنوا الحداد على الحاكم بامر الله في جميع انحاء الدولة، وهذا التدبير اقتضته مصلحة الدولة والاسرة الفاطمية معاً بحيث لم يعد هناك اي مجال للقيل وللقال... وبعد ذلك ارسلت الى الشام من استدعى عبد الرحيم للمثول امام الخليفة الجديد ومبايعته بالامامة والخلافة، ولكنه رفض الطلب وحدثته نفسه بالعصيان والاستئثار ببلاد الشام... فما كان من الاميرة ست

الملك الآ ان ارسلت احد القواد، فقبض على عبد الرحيم وساقه الى مصر، وعندما وصل الى الفرما صدر الامر بسجنه في سجن تينس، وبعد فترة ارسل من سجنه يعلن توبته وندمه، واستعداده للمبايعة وخدمة الدولة والخليفة الجديد، وهنا.... ارسلت الاميرة ست الملك من جاء به الى القاهرة وعندئذٍ افرد له جناح خاص في قصر الخلافة، وظلّ محوطاً بعطف ورعاية الخليفة الظاهر لاعزاز دين الله، حتى ادركته الوفاة، وقيل انه مات مسموماً، ولكنَّ المصادر الفاطمية تنفي ذلك امَّا ولده احمد فقد آثر الذهاب الى بلاد الشام حيث اقام فيها، وبعد ذلك طمست اخباره. ومهما يكن من امر فانني احتفظ لنفسي بسر ولاية العهد التي منحها الحاكم بامر الله لعبد الرحيم، بالرغم من وجود ابنه الظاهر لاعزاز دين الله فهذه الناحية من القضايا الخطيرة والاسرار العميقة في الاعتقادات الاسماعلية، واعتقد انها سابقة خطيرة لم نشهد مثلها في تاريخ الدعوة الاسماعيلية. امّا الافصاح عنها فسوف نخصص له بحثاً مستقلاً.

حريق القاهرة:

ذكرنا في الصفحات الاولى من هذا الكتاب ان الحاكم بامر الله كان مشغوفاً بالطواف يحب التنقل في انحاء وضواحي العاصمة، سواء اكان ذلك في الليل او في النهار، وغالباً ما يقصد المقطم وحلوان حيث انشأ له فيها منزلاً ريفياً منفرداً يخلو فيه الى نفسه، هائماً في افكاره وتصوراته، وكان لديه مرصداً يرصد فيه النجوم ويستطلعها، وربما ذهب بعد ذلك الى بعض الحدائق والبساتين والمواقع المنعزلة، ثم يعود الى الجبل ليجوب الفضاء الواسع.

وكان كما ذكرنا يخرج دونما موكب او زينة او حراسة، مرتدياً الثياب البسيطة التي لا تميزه عن الناس الآخرين، فيحادث الناس في الطريق، ويستمع الى ظلامات المتظلمين، ويفصل فيها لوقته، او يحيلها الى جهة

الاختصاص وكانت تنهال عليه الرقاع والعرائض فيحملها معه حيث يبت فيها بعد ساعات قلائل .

ما هذا الحاكم العادل؟ بل ما هذا الانسان الغريب الاطوار يكرس نفسه وحياته لخدمة رعيته والسهر على قضاياها وراحتها . . . كم نحن بحاجة الى امثاله من الحكام العادلين الذين يأتون الى هذه الدنيا وليس لديهم الاَّ هدف خدمة الانسانية والسير بها نحو حياة افضل .

اليس من الظلم والتجني ان يتهم الحاكم بامر الله بانه فكَّر في احد الايام ان يحرق القاهرة ، المدينة التي تحمل طابع اسرته الفاطمية . . . ولماذا يحرقها ، ونحن لم نقرأ عنه او نسمع انه حاول في كل ادوار حياته ان يتقمص شخصية نيرون . وكيف يحرق الحاكم بامر الله مدينة جده المعز لدين الله ، وهو يرتدي ثياب الفيلسوف المتصوف القديس المؤمن بالله ، والذي كرَّس حياته لاعمال الخير والبر والاحسان ؟

اجل . . . كيف يحرق الحاكم بامر الله القاهرة المعزَّية ، وهو لأيام خلت كان يوجه جهوده في سبيل عمرانها وازدهارها وجعلها من اعظم عواصم العالم ؟

اليس في القاهرة قبور ابائه واجداده ، اليس في ربوعها الجامع الأزهر وجامع الحاكم ودار العلم والحكمة ؟ واين يذهب بقصوره ، ومكتبات ابائه واجداده وتراثه الفاطمي ؟ .

ما أقسى التاريخ في حكمه . . . وما اعنف رواياته حينما يتجرد من الحقيقة والصدق والامانة ، وحينما ينحدر واضعوه الى مهاوي التعصب والجهالة السحيقة . . . وليتهم وقفوا عند هذا الحد . . . فقد اتهموه ايضاً بحرق كنائس النصارى ، وكأنما هذا الخليفة ما جاء الاَّ ليحرق الناس ويحولهم الى رماد .

وكيف نصدق ذلك وأمامنا « عهده » الذي اعطاه للنصارى . . وها نحن

نبسطه كما ورد :

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾

﴿الحمد لله رب العالمين .﴾

هذا كتاب من عبد الله، ووليه المنصور ابي علي الحاكم بامر الله امير المؤمنين ابن الامام العزيز بالله امير المؤمنين .

الى جماعة النصارى بمصر .

عندما انهوا اليه الخوف الذي لحقهم، والجزع الذي هالهم فأقلقهم واستذرأهم بظل الدولة، وتحرّمهم بحضور الحضرة بما رآه وأمر به من تكميل النعمة عليه، بتوخيه لهم ذمة الاسلام وشرعه من تصيَّرهم تحت كنفه، بحيث تصفو لهم موارد الطمأنينة، وتضفو عليه ملابس السكون والدعة، واجابتهم الى ما سألوا فيه من كتب امان لهم يخلّدِ حكمه على الاحقاب ويتوارثه الاخلاف منهم والاعقاب .

فأنتم جميعاً آمنون بأمان الله عز وجل، وأمان نبيه محمد (ﷺ) خاتم النبيين، وسيد المرسلين وعلى آله الطاهرين، وأمان امير المؤمنين علي بن ابي طالب سلام الله عليه، وأمان الائمة من اباء امير المؤمنين سلام الله عليهم .

هذا على نفوسكم ودمائكم وأولادكم وأموالكم وأحوالكم واملاككم، وما تحويه ايديكم امانا « صريحا » ثابتاً، وعقداً صحيحاً باقياً . فثقوا به واسكنوا اليه وتحققوا ان لكم جميل رأي امير المؤمنين، وعاطفته، ونصرته تحميكم، وعصمته تقيكم، لا يقدم عليكم بسوء احد، ولا تتطاول اليكم بحضرة يدٌ الاّ كانت زواجر امير المؤمنين مقصرة من باعه وعظيم افكاره مضيقاً فيه من ذراعه .

والله عون امير المؤمنين على ما تعتقدونه من صلاح واصلاح لسكان اقطار مملكته، ومدَّله وسيلة الثواء في كنف دولته، وأياه يستشهد على ما امضاه من امانة لكم، وعهده الذي يشرفه طرفكم . وكفى بالله شهيداً . . .

وليقرر في ايديهم حجة بما اسبغ من النعم عليهم، ان شاء الله .

« كتب في شهر شعبان سنة احدى عشرة واربعمائة »

واتهموه بالالحاد، وتعطيل الشريعة، وادعاء الالوهية. في وقت يشهد التاريخ بانه كان يبني المساجد ويصلي بالناس، ويعتكف في الامكنة الخالية للعبادة والتأمل والانقطاع... ولهؤلاء نوجه ما اورده ـ الفيلسوف الكرماني المعروف بحجة العراقين في رسالته « الواعظة » التي نصّ موادها عليه كما ذكر الحاكم بامر الله وذلك اثناء وجوده اي الكرماني في القاهرة المعزّية:

وامّا قول اصحابك... ان المعبود تعالى هو امير المؤمنين سلام الله عليه، فقول كفر تكاد السموات يتفطرن منه، وتنشق الارض وتخرُّ الجبال. هذا ان دعوا للاله المعبود غيراً .

فيا للجسارة على الله حين جعلوا له تعالى شريكاً... ما اعظمها، ويا لجرأة على الله تعالى حين جعلوا المعبود غيره تعالى .

ما افظعها... ولقد قالوا عظيماً، وافتروا اثماً مبيناً، وانَّ ذلك الاّ كفر محض، فما امير المؤمنين عليه السلام الاّ عبد لله خاضع، وله طائع، يسجد بوجهه الكريم، ويعظمه غاية التعظيم وباسمه يستفتح، وعليه في اموره يتوكل، وامره اليه يفوض، والله تعالى قد فضّله على خلقه، وجعله من جهة رسول محمد صلّى الله عليه خليفة له في ارضه، ووسيلة لعباده الى جنته، وأوجب طاعته على عباده... وهو سلام الله عليه، يتبرأ الى الله تعالى ممن يعتقد ذلك فيه .

وكيف يكون معبوداً، وهو جسم ذو ابعاض مؤلفة، ونفس ذات قوى مكلفة... يأكل ويمشي وينام ويستيقظ وتنطوي عليه الاحوال المتضادة، من رضا وسخط وغم ومسرة وسقم وصحة كغيره من البشر .

وهو سلام الله عليه ينفي ما تنسبه انت وأصحابك اليه عن نفسه.. كلاَّ ان المعبود ليس الاّ الإله الذي يسجد له امير المؤمنين سلام الله عليه،

ويوحده ويسبحه وعن النعوت والصفات يقدسه، وله سجد من البنيين والأوصياء والائمة المتقين وتابعيهم، وأياه يعبد وله يسجد من يخرج الى الكون منهم، ما دام عقل، وفاض عدل.. الذي خلق السموات بافلاكها والنجوم بانوارها والأركان بطبائعها والمواليد باجناسها.

﴿لاَ تسجُدُوا لِلْشَمْسِ وَلاَ لِلْقَمَرِ واسْجدُوا لِلّهِ الذي خَلَقَهُنَّ إنْ كُنتُمْ اياَّهُ تَعْبُدُونَ﴾

والى هؤلاء ايضاً نوجه ما ذكره الخليفة الفاطمي المعز لدين الله... قال:

ينتهي الينا اخبار عن بعض من يزعم انه يتولاَّنا، وبعض من يدعي انه يدعو الينا من الغلو فينا... والقول بما لم نقله في انفسنا وبما لم يسمعه احد منَّا، حتىَّ كأنهم اعلم منَّا بما يقولونه فينا.

ونحن نبرأ الى الله من كذبهم علينا، وتقولهم فينا، ونحن عباد من عباد الله، مخلوقون مربوبون، لا علم لنا الاَّ ما علمنا، وصار الينا عن نبيّه جدنا محمد (ﷺ) ممّا اودعه الله ايّاه وأورثنا ممن بعده، وأودعناه، لا نحيط علماً من علمه الاَّ بما شاء، ولا من غيبه الاَّ ما اطلع عليه منَّا من ارتضاء، وكيف احب وشاء.

لا ندعي النبوة والرسالة، بل نحن المستحفظون على الامامة... حلالنا من كتاب الله وحرامنا منه، وطاعتنا مفروضة على عباد الله بحكمته. من عرفنا فقد عرف الله، ومن جهلنا فقد جهله.

نحن الدالون بحكمه عليه، والقائمون بامره على عباده. نحن دون ما يقول الغالون، وفوق ما يظن الجاهلون. انمّا اراد من نحلنا علم الغيب، ونسب الينا تنزل الوحي، ممن يدعو بزعمه الينا، ان يجعل ذلك مقدمة لنفاقه علينا. فاذا اراد ذلك قال لمن دعاه:

لم ادعكم الاَّ ممن وصفت لكم فيه ما وضعت، فيصدهم بذلك عنَّا لعن

الله الصادين عنّا، فانهم عن الله يصدون، وبدينه يتلاعبون. ارادوا الدنيا، وعسر عليهم طلبها من وجوهها، فالتمسوا بوجه الدين، لينالوا من حكامها ما هو عن قليل منهم زائل، وهم به مطالبون، وقد سعد من اخذ عنَّا ما نعطيه، واقتصر عليه، ولم يقل بغيره، ولا تكلف من القول ما لا يعلمه.

لقد انتهى اليَّ عن بعضهم انه قال:

رددت انه لو سئلت عمَّا لا يكون... فأجبت عنه، فرأى عند نفسه، ومن سمع ذلك ممن يصدقه، انه قد جاء بما ابان به من علمه، وافتخر بدلك له، فلو تدبر هذا القول من وفق للصواب، لوضح له من أخطائه ان ما لا يكون... فلا يكون عنه جواب، لانه سيكون.

نهاية المطاف:

لقد كتبنا ما فيه الكفاية عن هذا الخليفة العظيم، ولم نترك شاردة او واردة الاَّ وأشرنا اليها واشبعناها درساً وتحليلاً، في الوقت الذي لم تكن الكتابة عنه متيسرة خاصة بعد ان كتب عنه اعداؤه المزيد من القصص الخيالية، والاساطير المذهلة، بعد ان ضمنوها عبارات التهجم الظاهر، والتعصب الذميم، والتشويه للحقائق ممَّا لم يعرف له مثيل في اي تاريخ من تواريخ العالم.

ان الصورة الواضحة للخليفة الفاطمي السادس الحاكم بامر الله التي علقت باذهان الناس كما عرضها بعض المؤرخين لم تكن بالفعل هي صورة الحاكم بامر الله الحقيقية، فشخصية الحاكم قمة في السمو والاخلاق وتتميز بالصوفية والزهد والكرم ونكران الذات والسعي وراء الواجب، والعمل لاسعاد الشعب الذي ولاَّه امره، والابقاء على سيادة الشرع والاخلاق والدين.

لقد كان الحاكم بامر الله يحظى بتقدير واحترام الشعب المصري خاصة

في ذلك العصر البعيد نظراً لما يمتلكه من صفات عالية، وقد ذكر تاريخ مصر ان بعض القوّاد قدموا انفسهم قرابين في سبيله واعتقدوا فيه بانه خير من حكم بلادهم وسهر على راحة شعبها .

امّا عقيدته الدينية فقد وصفها « حجة العراقين » الفيلسوف الكبير الكرماني بقوله:

انه امام مؤمن بالله وبرسوله . . . وانه كرّس نفسه لعمل الخير . . . وتعشق المثل وهام بجلائل الاعمال .

لقد ذكروا صفاته واخلاقه في كتب عديدة، ولكن ضاع اثرها . . . ويعتبر مؤرخ عصره الامير المسبحي احسن من كتب عنه، واليه يعود الفضل بكثير من الحقائق، وسار على اثره المؤرخ الثقة المقريزي الذي انصف الحاكم بامر الله وصوّره على حقيقته .

واخيراً:

تتمة للفائدة رأينا ان نضع في هذه الصفحات صورة طبق الاصل عن البيان الذي اذاعه الحاكم بامر الله على رعيته قبل وفاته، وعندما اضطربت الدعوة وعصفت فيها رياح الانقسام ممّا ادّى به الى اغلاق ابوابها، وتوقيف نشاطها . وهذا هو البيان:

﴿بسم الله الرحمن الرحيم .﴾

والعاقبة لمن يتقظ من وسن الغافلين، وانتقل عن جهل الجاهلين، وأخلص منه اليقين فبادر بالتوبة الى الله تعالى، والى وليه وحجته على العالمين، وخليفته في ارضه، وامينه على خلقه امير المؤمنين، واغتنم الفوز مع المتطهرين والمتقين، ولم يكذب بيوم الدين، وكان بالغيب من المصدقين به والمؤمنين والمتقدمين .

ان الساعة آتية بغتةً لا ريب فيها، وان الله لا يضيع اجر المحسنين، ولا عدوان الاّ على الظالمين المردة الشياطين الفسقة المارقين وكل حلاّف

مهين . الناكثين الباغين المفسدين الطاغين اهل الخلاف والمنافقين، المكذبين بيوم الدين المغضوب عليهم ولا الضالين .

والحمد لله حمد الشاكرين حمداً لانفاد لآخره ابد الآبدين... وصلّى الله على سيد المرسلين محمد المبعوث بالفرق الى الخلق اجمعين، ومبشراً ونذيراً بائمة من ذريته هادين مهديين كرام كاتبين شهداء على العالمين ليبينوا للناس ما هم فيه مختلفون وعنه يتساءلون ويرشدهم الى النبأ العظيم والصراط المستقيم، سلام الله السني السامي عليهم الى يوم الدين .

امَّا بعد ايها الناس فقد سبق اليكم من الوعد والوعظ والوعيد من ولي امركم وامام عصركم وخلف انبيائكم وحجة بارئكم وخليفته الشاهد عليكم بموبقاتكم وجميع ما اقترفتم فيه من الاعذار والانذار ما فيه بلاغ لمن سمع وأطاع واهتدى، وجاهد نفسه عن الهوى، وآثر الآخرة على الدنيا، وانتم مع ذلك في وادي الجهالة تسبحون، وفي تيه الضلالة تخوضون وتلعبون حتى تلاقوا يومكم الذي كنتم به توعدون، كلاَّ سوف تعلمون كلاَّ لو تعلمون علم اليقين لترون الجحيم ثم لترونها عين اليقين، وقد علمتم معشر الكافة ان جميع ما ورثه الله تعالى لوليه وخليفته في ارضه امير المؤمنين سلام الله عليه من النعم الظاهرة والباطنة قد خوَّله امام عصركم لشريفكم ومشروفكم من خاصتكم وعامتكم من ظاهر ذلك وباطنه على الاكثار والامكان بفضله وكرمه حسبما رأى سلام الله عليه، ولم ينجل بجزيل عطائه منّةً منه مع ذلك ما اوجبه الله تعالى له عليكم في كتابه من الحق فيما ملكته ايمانكم ولم يشاركم في شيء من احوال هذه الدنيا نزاهة عنها ورفضاً منه لها على مقداره ومكنته لأمر سبق في حكمته، وهو سلام الله عليه اعلم به فأصبحتم وقد حزتم من فضله وجزيل عطائه ما لم ينل مثله بشر من الماضين من اسلافهم، ولا ادرك قوة انبأ عنها احد من الامم الذين خلوا من قبلكم في متقدم الازمان والاعصار، ولم تنالوا ذلك من ولي الله باستحقاق ولا بعمل عامل منكم من ذكر وانثى بل منّة منه عليكم ولطفاً بكم ورأفة ورحمة

واختياراً ليبلوكم ايكم احسن عملاً ولتعرفوا قدر ما خصصكم به في عصره من نقمته وحسن منته وجميل لطفه وعظيم فضله واحسانه دون من قد سلف من قبلكم .

فاشكروا الله ووليكم كثيراً على ما خولكم من فضله ولعلكم تشكرون وتعملون عملاً يرضي ويضاهي اعمال الامم السابقة السالفين اضعافاً حسبما ضاعفه لكم ولي الله في عصره من نعمه الظاهرة الجليلة من القناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسوّمة والانعام الى غير ذلك من الارزاق والاقطاع والضياع وغيرها من اغراض الدنيا على اختلاف اصناف الاحسان ورقي خاصتكم وعامتكم الى الدرجات العليّة والرتب السنيّة لتقفوا مسالك اولي الالباب، وأمركم وشرفكم بأحسن الألقاب وملّككم في الارض مشرقاً ومغرباً سهلاً وجبلاً وبراً وبحراً فأنتم ملوكها وسلاطينها وجباة اموالها تفك لكم بمادة ولي الله الرقاب وتنقاد اليكم الوفود والاحزاب، وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها، فعشتم في فضل امير المؤمنين سلام الله عليه رغداً بغير عمل وترجون من بعد ذلك حسن مآب، ومن نعمه الباطنة عليكم تمسككم في ظاهر امركم بموالاته تعتزون بها في دنياكم وترجون بها نجاتكم والفوز في اخرتكم، فقد تمنون على الله وعلى وليه بايمانكم، بل الله يمن عليكم ان هداكم للايمان فانتم متظاهرون بالطاعة متمسكون بالمعصية ولو استقمتم على الطريقة الوسطى لأسقاكم الله ماءً غدقاً، ثم من نعمه الباطنة عليكم احياؤه لسنن الايمان التي هي الدين عند الله، وبه شرفتم وطهرتم في عصره على جميع المذاهب والاديان، وميزكم عن عبدة الأوثان وأبانهم عنكم بالذلة والحرمان وهدم هياكلهم ومعالم اديانهم وقد كانت قديمة من قدم الازمان، وانقادت الذمة اليكم طوعاً وكرهاً، فدخلوا في دين الله افواجاً وبنى الجوامع وشيدها وعمّر المساجد وزخرفها وأقام الصلاة في اوقاتها والزكاة في حقها وواجباتها، وأقام الحج والجهاد وعمّر بيت الله الحرام وأقام دعائم الاسلام وفتح بيوت امواله وأنفق في سبيله ورافق الحاج بعساكره وحفر

الآبار وأمَّن السبيل والاقطار وعمَّر السقايات وأخرج على الكافة الصدقات وستر العورات وترك الظلامات ورفع عن خاصتكم وعامتكم الرسوم الواجبات التي جعلها الله نعالى له عليكم من المفترضات، وقسمَّ الارض على الكافة شبراً شبراً وداولها بين الناس احياناً ودهراً وفتح لكم ابواب دعوته وايدكم بما حصه من حكمته ليهديكم بها الى رحمته ويحثكم بها على طاعته وطاعة رسوله وأوليائه عليهم السلام لتبلغوا مبالغ الصالحين فشنئتم العلم والحكمة وكفرتم الفضل والنعمة ونبذتم ذلك وراء ظهوركم وآثرتم علبه الدنيا كما آثرها قبلكم بنو اسرائيل في قصة موسى عليه السلام، فلم يجبركم ولي الله عليه السلام وفنح باب دعوته وأظهر لكم الحكمة، وفتح لكم في خارج قصره دار علمٍ حوت من جمع علوم الدين وآدابه وفقه الكتاب في الحلال والحرام والقضايا والاحكام ممَّا هو في صحف الأولين صحف ابراهيم وموسى صلوات الله عليهم اجمعين، وأمدكم بالاوراق والارزاق والحبر والاقلام لتدركوا بذلك ما تخطون وتكتبون وبه من الجهل تفوزون، وقد كنتم من قبل ذلك في طلب بعضه تجهدون فرفضتموه وقصرتم وعن جمبعه اعرضتم اعراض المضلين، ولم يزدكم ذلك الاَّ فراراً ومال بكم الهوى الى الموبقات ومكنتم من اكتساب السيئات ورفضتم العلم وأظهرتم الجهل وكثر بغبكم ومرحكم على الارض حتى كاد لها ان تضج الى الله تعالى فيكم من كثرة جوركم ومرحكم عليها، وولي الله سلام الله عليه مكافح لها فلكم رجاء ان تتيقظ خاصتكم وتستفيق من السكر والجهل عامتكم فما ازددتم الاَّ طغياناً وعصياناً واختلافاً تتناجون بالاثم والعدوان ومعصية الرسول، وعدو الله وعدو امير المؤمنين تحد قصر عن الفساد يده مخافة من سطوات ولي الله ورضي منه بالمسالمة والمهادنة حتى ليس لامير المؤمنين سلام الله عليه عدو يجاهده ولا ضد يعانده والكل من هيبته خائف وجل، وانتم معشر الخاص والعام بحضرته تضمكم دولته وتشملكم ولايته وتلزمكم طاعته وانتم مع ما تقدم ذكره من تعديد مساوئكم متعاندون متنابذون متزاحفون يجاهد بعضكم بعضاً

كالروم والخزر جرأة على الله بغير مخافة منه ولا ترقب، ولا ينهاكم عن سفك الدماء وهتك الحرم دين ولا وقار من امامكم ولا يقين. قد غلب عليكم الجهل فلن ترجوا الله وقاراً، ولن تقولوا ان امام عصركم واحد وان الاسلام والايمان قد شملكم وجمعكم تحت طاعة الله وطاعة رسوله وطاعة وليه امير المؤمنين سلام الله عليه، فإنّا لله وانّا اليه راجعون. فأية نازلة هي اكبر منها، واية شماتة للعدو ويلكم اعظم من مثلها لقد اصبتم معشر الناس في انفسكم وأديانكم واصيب فيكم ولي الله امير المؤمنين سلام الله عليه، فلا حول ولا قوة الاّ بالله العظيم.

أفأمنتم ايها الغافلون ان يصيبكم ما اصاب من كان قبلكم من اصحاب الايكة وقوم تبع، الم تسمعوا قول الله تعالى: ﴿الم ترَ كيف فعل ربك بعاد ارم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد وثمود الذين جابوا الصخر بالواد وفرعون ذي الأوتاد الذين طغوا في البلاد فأكثروا فيها الفساد، فصبَّ عليهم ربك سوط عذاب ان ربك لبالمرصاد..﴾ وقوله تعالى: ﴿الم نهلك الأولين ثم نتبعهم الآخرين كذلك نفعل بالمجرمين،﴾ ومثل هذا كثير في كتاب الله عز وجل ممّا اصاب اهل العناد والخلاف، والمنافقين والمفسدين في الارض، فقد غضب الله تعالى ووليه امير المؤمـ سلام الله عليه من عظم اسراف الكافة اجمعين، ولذلك خرج من اوساطكم علامة سخط ولي الله تدل على سخط الرب تبارك وتعالى.

ومن دلائل غضب الامام اغلاق باب دعوته ورفع مجالس حكمته ونقل جميع دواوين اوليائه وعبيده وقصره ومنعه عن الكافة سلامه، وقد كان يخرج اليهم من حضرته، ومنعه لهم عن الجلوس على مصاطب سقائف حرمه وامتناعه عن الصلاة بهم في الاعياد وفي شهر رمضان، ومنعه المؤذنين ان يسلموا عليه وقت الأذان، ولا يذكروه ومنعه جميع الناس ان يقولوا مولانا ولا يقبلوا له التراب وذلك مفترض له على جميع اهل طاعته، ونهيه جميعهم

عن الترجل له من ظهور الدواب، ثم لباسه الصوف على اصناف الوانه، وركوبه الاتان، ومنعه اولياءه وعبيده الركوب معه حسب العادة في موكبه وامتناعه اقامة الحدود على اهل عصره وأشياء كثيرة خفيت عن العالم وهم عن جميع ذلك في غمرة ساهون استحوذ عليهم الشيطان هم الخاسرون، فقد ترك ولي الله امير المؤمنين سلام الله عليه الخلق اجمعين يخوضون ويلعبون في التيه والعمى الذي آثروه على الهوى كما ترك موسى قومه حتى آن الهلاك ان يهجم عليهم وهم بين ذلك لا الى الحق يطيعون ولا الى ولي الله يرجعون.

ايها الناس...

كلام الله تعالى وعظ واعظ، والحاجة الى عفو الله تعالى وعفو وليه امير المؤمنين سلام الله عليه اعظم. فبالنسيان تكون الغفلة وبالغفلة تكون الفتنة وبالفتنة تكون الهلكة، وقد قال الله تبارك وتعالى: ﴿ولو انهم اذ ظلموا انفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحيما... ﴾ وقال عز من قائل: الاَّ من تاب وآمن وعمل صالحاً انَّ الله يحب التوابين والمتطهرين. وقال الله تبارك وتعالى: ﴿واذا سألك عبادي عني فأني قريب اجيب دعوة الداعِ اذا دعان... ﴾ فالبدار البدار معشر الناس ان وقفتم على براح من الارض يكون اول طريق سلكها امير المؤمنين سلام الله عليه وقت ان استتر نصب اعينكم وتجتمعوه فيها بانفسكم وأولادكم وطهروا قلوبكم وأخلصوا نياتكم لله رب العالمين وتوبوا اليه توبة نصوحاً، وتوسلوا اليه بأوجه الوسائل في الصفح عنكم والمغفرة لكم، وان يرحمكم بعودة وليه اليكم وبعطف قلبه عليكم، فهو رحمة عليكم.

فالحذر الحذر ان يقف احد منكم لأمير المؤمنين سلام الله عليه على اثر ولا يكشف له خبر ولا يبرح في اول الطريق يتوسل جميعكم، لذلك اطلت عليكم الرحمة فخرج ولي الله امامكم باختياره راضياً عنكم ظاهراً في اوساطكم. فواظبوا على ذلك ليلاً ونهاراً قبل ان تحق الحاقة وتقرع القارعة ويغلق باب

الرحمة ويحل باهل الخلاف والعناد النقمة. وقد اعذر من انذر ونصح من قبلكم نفسه وحذّر والخطاب لاولي الالباب منكم والتعيين عليهم والمشيئة لله تبارك وتعالى والتوفيق به، والسلام على من اتبع الهدى وخشي عواقب الردى وصدق بكلمات ربه الحسنىٰ.

« كتبه مولى دولة امير المؤمنين سلام الله عليه في شهر ذي العقدة سنة ٤١١ هـ. وصلّى الله على محمد سيد المرسلين وخاتم النبيين وسلّم على آله الطاهرين وحسبنا الله ونعم الوكيل ».

« الحاكم بامر الله »

الاعياد ـ والمواكب الفاطمية:

كان عصر الدولة الفاطمية في مصر، من ازهى عصور التاريخ، فقد اجتمع فيه الكثير من اسباب القوة والعظمة والبهاء.. فهذه الدولة كانت شامخة تمثل الزعامة والخلافة الاسلامية تمثيلاً صحيحاً في ظروف سياسية ودينية خاصة... ومن الواضح انها حافظت على تلك المميزات حرصاً على ان تطبع المجتمع بطابعها، وان تصوغ روح الشعب وعقليته وتفكيره وحياته العامة والخاصة، وفقاً لمناهجها ورسومها.

وانّا لنرى الحياة الاجتماعية في مصر الفاطمية تتخذ صوراً ومظاهر خاصة وتتقلب بين الوان من البذخ والترف والبهاء، قلّ ان نجدها في عصر آخر من عصور مصر الاسلامية، كما نراها احياناً تمتاز بالوان من التطرف والاغراق وقد كانت هذه الحياة مرآة للدولة الفاطمية تشع بخواص قوتها وفخامتها وبهائها ووحي مناهجها السياسية والدينية والعقلية.

وكانت اعياد الدولة ومواسمها الباهرة، ولياليها الساطعة مثار البهجة والمرح العام. فالاعياد والمواسم تتشح بالفخامة والبهاء، والرسوم تبدو بأثواب من الرونق والجمال.

وقد وصف لنا بعض المؤرخين هذه الاعياد والحفلات والمواكب،

ووضعوا امامنا صوراً واضحة بـراقـة عنهـا ، فظهـرت بمنتهـى الروعـة والفخامة ، ومن المؤكد ان عصر الحاكم بامر الله رغم اضطراب اوضاع دولته وقيام الانتفاضات والثورات والفساد فيها ، لم يخل من هذه المظاهر والمشاهد الفخمة ، ولا سيا قبل ان تصدر مراسيم الحاكم بامر الله بالتقليل من المظاهر الباذخة والابهة والعظمة .

اجل . . . لقد كانت المواكب والحفلات الفاطمية تبلغ ذروة البهاء والبذخ ايام الاعياد الرسمية والمواسم المعترف علىها في الدولة ـ وهي كثيرة في عهد الدولة الفاطمية وتبدأ :

برأس السنة الهجرية ، وليلة المولد النبوي الكريم ، وليلة اول رجب ، وليلة نصفه ، وليلة اول شعبان ، وليلة نصفه ، وغرة رمضان ، ويوم الفطر ، ويوم النحر « عيد الاضحى » . امّا الاعياد الخاصة بالفاطميين فهي :

مولد الامام علي بن ابي طالب ، ومولد الحسن والحسين وفاطمة ، ويوم عاشوراء اي عاشر محرَّم ، وهو اليوم الذي استشهد فيه الحسين بن علي في كربلاء . اما الاعياد المصرية الاجتماعية فهي :

عيد فتح الخليج ، ويوم النيروز ، وعيد الشهيد . وكان الخلفاء الفاطميون يحتفلون بهذه الاعياد في فيض من الروعة والبهاء والبذخ ، فينظم الركب « الخلافي » برسوم الابهة ومظاهر الفخامة ، فتقام المآدب ، والحفلات الشائعة ويكثر البذل والعطاء ، ويستقبل الشعب هـذه الايـام المشهـودة بـالـرقـص والافراح وتغمره البهجة والسعة والمرح .

امّا الاحتفال بالعيدين . . . . الفطر والاضحى . . . فكان من اعظم المشاهد ويعتبر موكب العيد من افخم مواكبها وأروعها . ففي ليلة عيد الفطر كان ينظم بالايوان الكبير الذي يواجه مجلس الخليفة سماط ضخم يبلغ طوله نحو ثلثمائة ذراع في عرض سبعة اذرع ، فتنثر عليه صنوف الحلوى والفطائر الشهية ممّا اعد في دار الفطرة الخلافية ، فاذا انتهى الخليفة من اداء صلاة الفجر عاد الى مجلسه ، وفتحت ابواب القصر والايوان على

مصاريعها، وهرع الناس من جميع الطبقات الى السماط، وتخاطفوا محتوياته بمشهد من الخليفة وحينما تبزغ الشمس يخرج الخليفة في موكبه الى الصلاة، ويكون خروجه من باب العيد الى المصلّى.

وهنا نكتفي بما ذكره مؤرخ العصر الأمير المسبحي في وصف هذا العيد:

وفي يوم العيد ركب الخليفة لصلاة العيد، وبين يديه الجنائب والقباب من الديباج بالحلي، والعسكر في زيه من الاتراك والديلم والعزيزية والاخشيدية والكافورية وأهل العراق، بالديباج المثقل والسيوف ومناطق الذهب، وعلى الجنائب السروج بالذهب والجوهر والعنبر، وبين يديه الفيلة وعليها الرجالة بالسلاح ..... وخرج بالمظلة التقيلة بالذهب، وبيده قضيب جده عليه السلام.

فاذا عاد الخليفة من الصلاة كان ثمة سماط آخر ابهى وأروع، فيجلس الخليفة في مجلسه وامامه مائدة من فضة، وعليها اواني من الذهب ايضاً غاصته بأفخم الالوان وأشهاها، وقبالة المائدة سماط ضخم يتسع لنحو خمسمائة مدعو، وقد نثرت عليه الازهار والرياحين، وصفّت على جانبيه الاطباق الحافلة بصنوف الشواء والطيور والحلوى الشهية. ويجلس اليه رجال الدولة والعظماء والاكابر من كل ضرب، فيأكل من شاء وعند الظهر ينفض المجلس، وينصرف الناس.

واماّ عيد الاضحى:

فكان يحتفل به بركوب الخليفة الى الصلاة على النحو المتبع في صلاة عيد الفطر ثم يخص بسماط حافل يقام في اول يوم منه. بيد انه يمتاز بركوب الخليفة فيه ثلاث مرات متواليات، في ايامه الثلاثة الاولى، ويمتاز خاصة باشتراك الخليفة نفسه في اجراءات النحر، وكان قيام الخليفة بهذا العمل من اروع المظاهر، والرسوم التي جرت عليها الخلافة الفاطمية في الاعياد العامة

فلنتصور امير المؤمنين متشحاً بثوب احمر قانٍ يسير في موكبه ماشياً الى دار النحر - وقد كانت تقوم في ركن خارجي من القصر - وبين يديه الوزير الأول وأكابر رجال الدولة ويكون قد اعدّ في المذبح برسم التضحية واحد وثلاثون فصيلاً وناقة امام مصطبة يعلوها الخليفة وحاشيته، وقد فرشت حافتها باغطية حمراء يتقي بها الدم، وحمل الجزارون كل بيده اناءً مبسوطاً يتلقى به دم الضحية، ثم تقدم رؤوس الاضاحي الى الخليفة واحدة بعد اخرى فيدنو منها وبيده حربة يمسك بها من الرأس، ويمسك القاضي باصل اسنانها ويجعله في عنق الدابة، فيطعنها به الخليفة، وتجر من بين يديه، وهكذا حتى يأتي عليها جميعاً، وكلما نحر الخليفة رأساً جهر المؤذنون بالتكبير، ويقدم لهم الضحية الاولى، ويفرق قطعاً صغيرة على الاولياء والمؤمنين، وفي اليوم التالي ينظم نفس الموكب الى المنحر، وينحر الخليفة سبعة وعشرين رأساً، وفي اليوم الثالث ينحر ثلاثة وعشرين ويجري توزيع لحم الاضحية خلال هذه الايام الثلاثة على ارباب الرسوم في اطباق خاصة للتبرك، ويخص دار الحكمة ودار العلم بقسط من هذه اللحوم.

وكانت ثمة اعياد رسمية، او قومية اخرى تقام احياناً في فيض من البذخ، والمرح واحياناً تفرض في اقامتها فروض معينة، وأحياناً تلغى، وذلك انها لم تكن اعياداً اسلامية.

امّا بالنسبة للحفلات الدينية الرسمية، وللأيام المشهودة فقد كانت تزين فيها المدينة اعظم زينة ويكثر الخليفة من الصلة والهبات، وكان يركب مرة او مرتين في الاسبوع للتنزه في البساتين والحدائق التابعة للقصور الملكية ولضواحي المدينة، وكان كما ذكرنا ينثر الصلات والصدقات، ولكن بعد حين الغى الحاكم بامر الله اكثر هذه المظاهر، واستعاض عنها بمنهج حياتي خاص سار عليه حتى آخر يوم من حياته.

ومهما يكن من امر فهكذا كانت الخلافة الفاطمية تحتفي باعيادها ومواسمها ولياليها في بذخ طائل، وهكذا كانت رسومها ومواكبها

ومظاهرها مثال الروعة والبهاء، او قل شذور تذكي الخيال الى الذروة...
ويقيناً ان الفاطميين كانوا يتوخون من كل هذا تثبيت هيبتهم الدينية، ومكانتهم الامامية بما يسبغوه من الخطورة والخشوع على بعض المظاهر والرسوم المذهبية.

من جهة اخرى كانت مخططاتهم ترمي الى ارضاء الشعب، وجعله تحت فيض من المسرات والمواكب الباهرة مضافة الى الحفلات والمآدب والاعياد. وكان عليهم ان يأسروه بمظاهر الكرم الوافر، والجود والسخاء لكسب ولائه وعرفانه وتأييده.

السجلاّت الحاكميّة:

اصدر الحاكم بامر الله سجلات عديدة، وهي مراسيم وقوانين اذاعها على الشعب، وبالنظر لأهمية بعضها التاريخية رأينا ان نبسط ما كان منها ذا اهمية. ونبدأه بالامان الذي اعطاه الحاكم بامر الله للقائد «الحسين بن جوهر الصقلي» عندما فرَّ من القاهرة والتحق بثورة ابي ركوة. ويستدل من هذا الامان ان الحاكم بامر الله رغب الى الحسين بان يعود الى ما كان عليه... ويبدو انه لم يستجب للامان، فكان من امره ما ذكرناه.

﴿بسم الله الرحمن الرحيم.﴾

امَّا بعد، فأنك بأمير المؤمنين ظهرت، وبسقيا نعمته نبت، واغصانها اقلتك، ودوحاتها أظلتك، وعهده تيمتك، وعقدها ذخرك وغنيمتك.. وكم لأباء امير المؤمنين على ابائك نعم امثاله وفيهم عوائدها وبواديها وأشكالها، فاشتروهم من التجار، وملكوهم ازمة الاحرار، واعطوهم اعنة الكبار، وجعلوا اعقابهم ملوك الاقطار واعلام الامصار. فصاروا رؤساء بعد ان كانوا اذناباً، وصدروا بعد ان كانوا اعقاباً، فقادوا العساكر، ورقوا رؤوس المنابر، وركبوا رقاب الدهر، وحكموا في الاموال والدماء بنافذ الامر، وابقى ذلك امير المؤمنين ووفرّه، وأفاض بسجاله وأدره، ولم يقتصر

بك على ذلك حتى جذب بصنيعك من مطارح العبيد، الى مطامع الاحرار الصيد، فعقد لك الوزارة والقيادة، وجللك رداء العز والسيادة، والقى اليك مقالبد الامر، وبسط يديك في البدء والحضر وأعطاك مالم تسم بك اليه همة، وحولك ما لم يبلغ بك اليه امنية، وفضلك على كثير من مواليه وعصبه وأدانيه وأقاربه، وعظم خطرك وقدرك وانفذ صيتك وذكرك.

تنهي ونأمر وتورد وتصدر، وتنفع وتضر وتسوء وتسر، وصرت بشدة امرك ورفعة قدرك جباراً عظيماً وسلطاناً قوياً تمضي ما شئته ولا تناقض، وتملك ما أردت ولا تعارض، ولا يدر ان متل احسانه اليك يكفر، ومثل متجره فيك يخسر، فبطرت عيشك، ونسيت امسك، وجهلت نفسك، وخنت ولي نعمتك، وعصيت مالك ناصيتك، فاستبدلت بشعار الطاعة جلباب المعصية، وركبت بمركب العبودية مركب الحرية، وأوضعت وأوجفت قائد الضلالة والجهالة، ونقضت العهد وحللت العقد وخيل اليك بسوء نيتك وسقم طويتك العذر الدي وليت عليه، فظننت ان امير المؤمنين - وبعض الظن اثم - قال عمَّا عاهدك، وبداله فيا عاقدك، وحاشاه من ذلك، وما عسى - غفر الله لك - ان تقول اذا تناقلت زلتك الالسن العادلة، وثبت حديثك الانديه الحافلة، وما عذرك اذا قيل لك لم خرجت عن الاوطان، وتطرحت في البلدان، وخليت دارك التي فيها درجت ومنها خرجت، وقلدت نفسك بما لا يدحضه الاعتذار، ولا يعفيه الليل والنهار، ولم يثلم لك مال، ولا يغير لك حال، ولم تبتذ ثوب الكرامة، ولم تسلب ظل السلامة. نعوذ بالله العظيم من نقمة تتعرّى عن جلبابها ومرهبة تسلخ من اهابها، ومع ذلك فتدعي انّا نبتغي لك الغوائل، وننصب لك الحبائل، ونقصد منك المقاتل، ونشره الى حيازة مالك، ونسارع الى استغافة حالك، لا عن دلالة تقيمها وتظهرها، ولا عن حجة تتدلى بها وتذكرها الا ارادة ان يتداول الناس دعواك ويتفاوضون شكواك فيخيل في نفوسهم، ويقرر في قلوبهم ان لك رخصة فيا ارتكبته، وفسحة فيا جنيته، ويا لله لو

كانت التهمة بنا واقعة لكانت طاعتك لنا ازين من مخالفتنا، كيف وعلام الخفايا والغيوب، والمطلع على الضمائر في القلوب يشهد عليك باستمالة ما تذكره، ويناقض ما تضمره، ولو كان امير المؤمنين يريد بك سوءاً، ويبغي لك مكروهاً، لكان مرامه ايسر وطريقه احضر، ولأخذك جهراً واسرك قهراً ولم يراقب فيك امرأً، فان الله تعالى قدره، ولله تعالى القدرة التي لو رام بها البحر لأغرقه او البحر لأحرقه او الجبل الراسي لدكدكه، والفلك الدوّار لأمسكه، فان نزلت عن مطية العصيان، وخلعت خلعة الطغيان واستقلت عثرتك، واستغفرت ذنبك، واتيت الى باب مولاك، ورجعت الى آخرتك وأولادك، وجدته عليك عطوفاً، وبك رؤوفاً، ولعذرك ممهداً، ولجريرتك متغمداً، فيسحب ذيله على ذنوبك، ويسيل ستره على عيوبك، ويشملك امانه الذي لابسه يوقّى النار، وتصرف عنه آفاق الليل والنهار، ويردك الى سبيل وفائك ويعيد الى ارضك صوب سمائك، ويعطف عليك بالحفظ والاستقامة اليك والشح عليك ورفع الظنة عنك والقاء لكلام الموشحين منك، فيرد اقطاعك ورسومك، ويراعي امورك وحقوقك فتشتد اواخيك وتحمي نواحيك، وتزاد على ما كنت تحويه، وتعطى اكثر ما ترومه وتبتغيه، وتكون في ايامه مرفهاً مجلاً وفي دولته معززاً ومفضلاً، مرفوعاً عن بذلة الخدمة، محمولاً على جلالة الحرمة مسامحاً فيما تطلبه وتهداه مسوعاً ما تقترحه وتتمناه، ومشفعاً فيما تلتمسه، مجاباً الى ما ترومه وتفعله، فان ابيت الاَّ الاباء والعلو والجماح، والعنف، فما اهون انتسافك، وما ايسر اختطافك، وما اقرب ما تلتفُ عليك الحبائل، وتحيط بك الغوائل، وتساورك المنية، وتحيط بك الدنية، وقد اعذر من انذر، والسلام على من ابصر وفكّر.

والحمد لله رب العالمين، وصلّى الله على محمد نبيه وآله الطاهرين.

« الحاكم بامر الله ».

وهذا مرسوم حاكمي بتولية الحسين بن علي بن النعمان القضاء في الدولة

الفاطمية وفيه تظهر مثالية الحاكم بامر الله وعدله وتعاليمه على المسؤولين
من عبد الله ووليه المنصور ابي علي الحاكم بامر الله امير المؤمنين الى
القاضي، حسين بن علي بن النعمان حين ولاّه الحكم في القاهرة المعزّية ومصر
والاسكندرية وأعمالها والحرمين حرسهما الله تعالى وأجناد الشام واعمال
المغرب، واعلاء المنابر وائمة المساجد الجامعة والقائمين عليها والمؤذنين بها
وسائر المتصرفين فيها وفي غيرها من المساجد، والنظر في مصالحها جميعاً،
ومشارفة دار الضرب وعيار الذهب والفضة مع ما اعتمده امير المؤمنين
وانتحاه وقصده وتوخاه من اقتفائه لآثاره وانتهائه الى ايثاره في كل علية
للدولة ينشرها ويحييها ودينة من اهل القبلة يدثرها ويعفيها، وما التوفيق
الاّ بالله ولي امير المؤمنين عليه توكله في الخيرة له ولسائر المؤمنين فيما قلده
اياه من امورهم وولاّه امره ان يتقي الله عز وجل حق التقوى في السر
والجهر والنجوى، ويعتصم بالثبات واليقين والنهى، وينفصم من الشبهات
والشكوك والهوى، فان تقوى الله تبارك وتعالى موئل لمن وئل اليها
حصين، ومعقل لمن اقتفاها امين، ومعول لمن عوّل عليها مكين، ووصية
الله التي اشاد بفضلها وزاد في سناها بما عهد انه من اهلها ... فقال تبارك
وتعالى:

﴿يآ ايها الّذينَ آمَنوُا اتَّقوُا اللّه وَكونوُا مَعَ الصَادِقينَ.﴾

وامره الاّ ينزل ما ولاّه امير المؤمنين اياه من الاحكام في الدماء
والاشعار والابشار والفروج والاموال عن منزلته العظمى من حقوق الله
المحرمة وحرماته المعظمة، وبياناته المبينة في آياته المحكمة، وان يجعل
كتاب الله عز وجل وسنة جدنا محمد (ﷺ) خاتم الانبياء، والمأثور عن
جدنا علي خير الأوصياء وآبائنا الائمة النجباء صلّى الله على رسوله وعليهم،
قبلة لوجهه اليها يتوجه، وعليها يكون المتجه، فيحكم بالحق ويقضي
بالقسط، ولا يحكّم الهوى على العقل، ولا القسط على العدل، ايثاراً لأمر الله
عز وجل حيث يقول:

فاحكم بين الناس بالحق، ولا تتبع الهوى، فيضلك عن سبيل الله، ان الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب ﴿ولا يجر منكم شنآن قوم على ان تعدلوا هو اقرب للتقوى، واتقوا الله ان الله خبير بما تعلمون.﴾ .

وأمره ان يقابل ما رسمه امير المؤمنين وحده لغلامه «برجوان» من اعزازه، والشد على يده، وتنفيذ احكامه وأقضيته، والقصر من عنان كل متطاول على الحكم، والقبض من شكائمه بالحق المفترض لله عز وجلّ ولأمير المؤمنين عليه، من ترك المجاملة فيه والمحاباة لذي رحم وقربى وولي للدولة او مولى، فالحكم لله ولخليفته في ارضه، والمستكين له لحكم الله وحكم وليه يستكين والمتطاول عليه، والمباين للاجابة اليه حقيق بالاذالة والنهوص... فليتق الله ان يستحي من احد في حق له «والله لا يستحي من الحق» .

وامره ان يجعل جلوسه للحكم في المواضع الضاحية للمتحاكمين، ويرفع عنه حجابه، ويفتح لهم ابوابه، ويحسن لهم انتصابه، ويقسم بينهم لحظه ولفظه، قسمة لا يحابى فيها قوياً لقوته، ولا يروى فيها ضعيفاً لضعفه، بل يميل مع الحق ويجنح الى جهته، ولا يكون الاّ مع الحق، وفي كفته، ويذكر بموقف الخصوم ومحاباتهم بين يديه موقفه ومحاباته بين يدي الحكم العادل الديأن:

«يوم تجد كل نفس ما عملت من خيرٍ محضرا، وما عملت من سوء تود لو ان بينها وبينه امداً بعيداً ويحذركم الله نفسه» .

وأمره ان ينعم النظر في الشهود الذين اليهم يرجع، وبهم يقطع في منافذ القضايا ومقاطع الاحكام، ويستشف احوالهم استشفافاً شافياً، ويتصرف دخائلهم تعرفاً كافياً، ويسأل عن مذاهبهم وتقلبهم في سرهم وجهرهم والجلي والخفي من امورهم. فمن وجده منهم في العدالة والامانة والنزاهة والصيانة وتحري الصدق والشهادة بالحق، على الشيمة الحسنى، والطريقة

المثلى «ابقاه» والاّ كان بالاسقاط للشهادة اولى، وان يطالع حضرة امير المؤمنين بما يبدو له فيمن يعد له ويرد شهادته ولا يقبله، ليكون في الامرين على ما يحد له ويمثله، ويأمن فيما هذه سبيله كل خلل يدخله، اذ كانت الشهادة اسس الاحكام، واليها يرجع الحكام، والنظر فيمن يؤهل لها احق شيء بالاحكام.

قال الله تقدست اسماؤه:

﴿يا ايها الذين آمنوا كونوا قوّامين بالقسط شهداء لله ولو على انفسكم او الوالدين والاقربين.﴾

وقال تعالى:

﴿والذين لا يشهدون الزور، واذا مرّوا باللغو مروا كراماً.﴾

وامره ان يعمل بامثلة امير المؤمنين له فيمن يلي اموال الايتام والوصايا وأولي الخلل في عقولهم، والعجز عن القيام باموالهم حتى يجوز امرها على ما يرضي الله ووليه من حياطتها وصيانتها من الامناء عليها، وحفظهم لها ولفظهم لما يحرم ولا يحل الله منها، فيتبوأ عند الله بعداً ومقتاً أكل الحرام والموكل له سحتاً.

قال الله تعالى:

﴿ان الذين يأكلون اموال اليتامى ظلماً... انما يأكلون في بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً.﴾

وأمره ان يشارف ائمة المساجد، والقومة عليها، والخطباء بها، والمؤذنين فيها وسائر المتصرفين في مصالحها، مشارفة لا يدخل معها خلل في شيء يلزم مثله من تطهير ساحتها وافنيتها والاستبدال بما تبذل من حصرها في احيائها وعمارتها بالمصابيح في اوقاتها والانذار بالصلوات في ساعاتها واقامتها لأوقاتها وتوقيتها حق ركوعها وسجودها مع المحافظة على رسومها وحدودها من غير اختراع ولا اختلاع لشيء منها:

﴿ان الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً .﴾

وامره ان يرعي دار الضرب وعيار الذهب والفضة بثقاة يحتاطون عليهما من كل لبس ولا يمكنون المتصرفين فيهما من سبب يدخل على العاملين بهما شيئاً من الوكس ، اذ كان بالعين والورق تتناول الرباع والضياع والمتاع، ويبتاعُ الرقيق وتنعقد المناكح وتتقاضى الحقوق ، فدخول الغش والدخل فيما هذه سبيله جرمة للدين وضرر على المسلمين يتبرأ الى الله منهما امير المؤمنين .

وأمره ان يستعين على اعمال الامصار التي لا يمكنه ان يشاهدها بأفضل ، وأعلم وأرشد واعمد من تمكنه الاستعانة به على ما طوقه امير المؤمنين في استعماله :

قال الله عز وجل :

﴿انَّا عرضنا الامانة على السموات والارض والجبال فأبين ان يحملنها وأشفقن منها وحملها الانسان انه كان ظلوماً جهولاً .﴾

هذا ما عهد امير المؤمنين به ، فاوفِ بعهده ، تهتدِ بهديه ، وترشد برشده ، وهذا اول امرة امرها لك ، فاعمل بها وحاسب نفسك قبل حسابها ، ولا تدع من عاجل النظر لها ان تنظر لما بها :

﴿يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها ، وتوفي كل نفس ما عملت وهم لا يظلمون .﴾

كتبت في يوم الاحد لسبع ليال من شهر صفَر سنة ٣٨٩ هـ .

« الحاكم بامر الله »

وهذا مرسوم وقفية الحاكم بامر الله على الجامع الازهر ودار الحكمة :

هذا كتاب اشهد قاضي القضاة مالك بن سعيد بن مالك الفارقي على جميع ما نسب اليه ممَّا ذكر، ووصف فيه من حضر من الشهود في مجلس

حكمه وقضائه بفسطاط مصر في شهر رمضان سنة اربعمائة . . . اشهدهم وهو يومئذٍ قاضي عبد الله ووليه المنصور ابي علي الحاكم بامر الله امير المؤمنين بن الامام العزيز بالله صلوات الله عليها .

على القاهرة المعزّية ومصر والاسكندرية والحرمين حرسها الله وأجناد الشام والرقة والرحبة ونواحي المغرب وسائر اعمالهن وما فتحه الله ويفتحه لأمير المؤمنين من بلاد الشرق والغرب بمحضر رجل متكلم . . . انه صحّت عنده معرفة المواضع الكاملة والحصص الشائعة التي يذكر جميع ذلك ويحدد هذا الكتاب .

انها كانت من املاك الحاكم بامر الله الى ان حبسها على الجامع الأزهر بالقاهرة المحروسة والجامع براشدة والجامع بالمقس اللذين امر بانشائها وتأسيس بنائها ، وعلى دار الحكمة بالقاهرة التي وقفها والكتب التي فيها قبل تاريخ هذا الكتاب منها ما يختص الجامع الازهر به والجامع براشدة ودار الحكمة بالقاهرة المحروسة مشاعاً جميع ذلك غير مقسوم ، ومنها ما يخص الجامع بالمقس على شرائط يجري ذكرها ، فمن ذلك ما تصدق به على الجامع الازهر بالقاهرة والجامع براشدة ودار الحكمة . وجميع الدار المعروفة بدار الضرب وجميع القيسارية المعروفة بقيسارية الصوف ، وجميع الدار المعروفة بدار الحزق الجديدة الذي كله بفسطاط مصر

ومن ذلك ما تصدق به على جامع المقس جميع اربعة الحوانيت والمنازل التي تعلوها ، والمخزنين الذي ذلك كله بمسطاط مصر بالراية في جانب الغرب من الدار المعروفة بدار الحزق ، وهاتان الداران المعروفتان بدار الحزق في الموضع المعروف بحمَّام الغار ، ومن ذلك جميع الحصص الشائعة من الأربعة حوانيت المتلاصقة التي بفسطاط مصر بالراية ايضاً بالموضع المعروف بحمام الغار ، وتعرف هذه الحوانيت بحصص القيسي . بحدود ذلك كله وارضه وبنائه وسفله وعلوه وغرفه ومرتفعاته وحوانيته وساحاته وطرقه وممراته ومجاري مياهه ؛ كل حق هو له داخل فيه وخارج عنه ، وجعل

ذلك كله صدقة موقوفة محرجة محبسة لا يجوز بيعها ولا هبتها ولا تمليكها باقية على شروطها جارية على سبلها المعروفة في هذا الكتاب لا يوهنها تقادم السنين، ولا تغير بحدوث حدث، ولا يستثنى فيها ولا يتأول ولا يستفتى بتجدد تحبيسها مدى الاوقات. وتستر شروطها على اختلاف الحالات حتى يرث الله الارض والسماوات.

على ان يؤجر ذلك في كل عصر من ينتهي اليه ولايتها، ويرجع اليه امرها بعد مراقبة الله واجتلاب ما يوفر منفعتها من اشهارها عند ذوي الرغبة في اجارة امثالها، فيبتدىء من ذلك بعمارة ذلك على حساب المصلحة، وبقاء العين ومرمته من غير اجحاف بما حبس ذلك عليه، وما فضل كان مقسوماً على ستين سهماً، فمن ذلك للجامع الازهر بالقاهرة المحروسة المذكور في هذا الاشهاد الخمس والثمن، ونصف السدس ونصف التسع يصرف ذلك فيما فيه عمارة له ومصلحة وهو من العين المعزّي الوازن الف دينار واحدة وسبعة وستون ديناراً ونصف دينار وثمن دينار من ذلك للخطيب بهذا الجامع اربعة وثمانون ديناراً، ومن ذلك التمن الف ذراع حصر «عبدانية» تكون عدة له بحيث لا ينقطع من حصره عند الحاجة الى ذلك، ومن ذلك التمن ثلاثة عشر الف ذراع حصر مظفورة لكسوة هذا الجامع في كل سنة عند الحاجة اليها مائة دينار واحدة وثمانية دنانير، ومن ذلك، الثمن ثلاثة قناطير زجاج، وفراخها اثنا عشر ديناراً ونصف وربع دينار، ومن ذلك الثمن عود هندي للبخور في شهر رمضان وأيام الجمع مع ثمن الكافور والمسك واجرة الصانع خمسة عشر ديناراً، ومن ذلك لنصف قنطار شمع «بالفلفلي» سبعة دنانير، ومن ذلك لكنس هذا الجامع ونقل التراب وخياطة الحصر وثمن الخيط واجرة الخياطة خمسة دنانير، ومن ذلك لثمن مشاقة لسرج القناديل عن خمسة وعشرين رطلاً بالرطل الفلفلي دينار واحد، ومن ذلك لثمن فحم للبخور عن قنطار واحد بالفلفلي نصف دينار، ومن ذلك لثمن اردبين ملحاً للقناديل ربع دينار، ومن ذلك ما قدر

لمؤونة الناس، والسلاسل والتنانير والقباب التي فوق سطح الجامع اربعة وعشرون ديناراً ، ومن ذلك لثمن سلب ليف، واربعة احبل وست ولاء أدم نصف دينار، ومن ذلك لثمن قنطارين خرقاً لمسح القناديل نصف دينار، ومن ذلك لثمن عشر قفاف للخدمة، وعشرة ارطال قنب لتعليق القناديل، ولتمن مائتي مكنسة لكنس هذا الجامع دينار واحد وربع الدينار، ومن ذلك لثمن ازيار فخار تنصب على المصنع ويصب فيها الماء مع اجرة حملها ثلاثة دنانير ، ومن ذلك لتمن زيت وقود هذا الجامع راتب السنة الف رطل ومائتا رطل مع اجرة الحمل سبعة وتلاثون ديناراً ونصف، ومن ذلك لارزاق المصلين يعني الأئمة وهم تلاثة وأربعة قومه، وخمسة عشر مؤذناً خمسمائة دينار وستة وخمسون ديناراً ونصف منها للمصلين ولكل رجل منهم ديناران في كل شهر، ومن ذلك للمشرف على هذا الجامع في كل سنة اربعة وعشرون ديناراً ، ومن ذلك لكنس المصنع بهذا الجامع ونقل ما يخرج منه من الطين والوسخ دينار واحد ، ومن ذلك لمرمة ما يحتاج اليه في هذا الجامع في سطحه واترابه وحيطانه، وغير ذلك مما قدر لكل سنة ستون ديناراً ، ومن ذلك لتمن مائة وثمانين حمل تبن ونصف حمل جارية لعلف راسي بقر للمصنع الذي لهذا الجامع ثمانية دنانير ونصف وثلث دينار، ومن ذلك للتبن لمخزن يوضع فيه في القاهرة اربعة دنانير ، ومن ذلك لثمن فدانين قراط لتربيع رأسي البقر المذكورين في السنة سبعة دنانير ، ومن ذلك لأجرة متولي العلف، واجرة السقّاء والحبال والقواديس وما يجري مجرى ذلك خمسة عشر ديناراً ونصف، ومن ذلك لاجرة قيم الميضأة ان عملت بهدا الجامع اتنا عشر ديناراً ، والى هذا انقضى حديث الجامع الأزهر.

وعن جامع راشدة ودار العلم وجامع المقس فقد ذكر:

ان تنانير وتسعة وثلاتين قنديلاً فضه. فللجامع الازهر تنوران وسبعة وعشرين قنديلاً ، ومنها لجامع راشدة تنور واثنا عشر قنديلا ، وشرط ان

تعلق في شهر رمضان، وتعاد الى مكان جرت عادتها ان تحفظ به، وسرط شروطاً كثيرة في الأوقاف منها :

انه اذا فضل شيء منها يشترى به ملك فان عاز شيئاً واستهدم لم يفِ الربع بعمارته بيع، وعمر به، واشياء كثيرة، وحبس فيه ايضاً عدة آدر وقياسر لا فائدة من ذكرها، فانها مما خربت في مصر

ونبسط بعد هذا مرسوم الحاكم بامر الله بتعيين « داعي الدعاة » وتحديد مهامه، وشرح صلاحياته.

﴿بسم الله الرحمن الرحيم.﴾

الحمد لله خالق ما وقع تحت القياس والحواس، والمتعالي عن ان تدركه البصائر بالاستدلال والابصار بالايناس، الدي اختار الاسلام فأظهره وعظمه واستخلص الايمان فأعزه وأكرمه وأوجب بهما الحجة على الخلائق الذين نصبهم في ارضه اعلاما، وجعلهم بين عباده حكاماً.

قال الله تعالى :

﴿وجعلناهم ائمة يهدون بأمرنا، وأوحينا اليهم فعل الخيرات، واقام الصلاة وايتاء الزكاة، وكانوا لنا عابدين.﴾

يحمده امير المؤمنين ان اصطفاه لخلافته، وخصه بلطائف حكمته، واقامه دليلاً على مناهج هدايته، وداعياً الى سبيل رحمته، ويسأله الصلاة والسلام على سيدنا محمد (ﷺ) الذي ابتعته رحمة للعالمين، فأوضح معالم الدين وشرع ظواهره للمسلمين، وأودع بواطنه لوصية سيد الوصيين علي بن ابي طالب امير المؤمنين، وفوّض اليه هداية المستجيبين، والتأليف بين قلوب المؤمنين، ففجّر ينابيع الرشاد، وغور ضلالات الالحاد، وقاتل على التأويل، كما قاتل على الرسل حتى انار وأوضح السبل، وحسر نقاب البيان، وأطلع شمس البرهان... صلّى الله عليهما، وعلى الائمة من ذريتهما مصابيح الاديان واعلام الايمان وخلفاء الرحمن... وسلّم عليهم ما تعاقب

الملوان وترادف الجديدان .

وان امير المؤمنين بما منحه الله تعالى من شرف الحكمة، وأورثه من منصب الامامة والائمة وفوّض اليه من التوقيف على حدود الدين، وتبصير من اعتصم بحبله من المؤمنين وتنوير بصائر من استمسك بعروقه من المستجيبين، يعلن باقامة الدعوة الهادية بين اوليائه، وسبوغ ظلها على اشياعه وخلصائه وتغذية افهامهم بلبانها وارهاق عقولهم ببيانها وتهذيب افكارهم بلطائفها، وانقاذهم من حيرة الشكوك بمعارفها، وتوقيفهم من علومها على ما يجلب لهم سبل الرضوان، ويفضي بهم الى روح الجنان وريح الحنان والخلود السرمدي في جوار الجواد المنّان، ما يزال نظره مصروفاً الى نوطها بنا شيء من حجرها، مفتدٍ بدرها سار في نورها عالم بسرائرها المدفونة وغوامضها المكنونة، موفراً على ذلك اختياره، وقاصية انتقاده، حتىّ ادّاه الاجتهاد اليك ووقفه الارتياد عليك، فأسندها منك الى كفئها وكافيها ومديرها المبرز فيها ولسانها المترجم عن حقائقها الخفيّة ودقائقها المطوّية، ثقة بوثاقة دينك وصحة يقينك وشهود هديك وهواك وفضل سيرتك في كل ما ولأّك، ومحض اخلاصك وقديم اختصاصك وأجراك على رسم هذه الخدمة في التشريف والحملان والتنويه ومضاعفة الاحسان .

فتقلّد ما قلّدك امير المؤمنين مستشعراً للتقوى، عادلاً عن الهوى، سالكاً سبيل الهدى، فان التقوى احصن الجنن وأزين الزين :

« وادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة، وجادلهم بالتي هي احسن » فالله تعالى يقول ايضاً :

﴿ومن يؤتِ الحكمة فقد اوتي خيراً كثيراً ... ﴾ وحضّ على ذلك بقوله سبحانه :

﴿ومن احسن قولاً ممن دعا الى الله وعمل صالحاً وقال انني من المسلمين .﴾

وخذ العهد على كل مستجيب راغب، وشد العقد على كل منقاد ظاهر... ومن يظهر لك اخلاصه ويقينه ويصح عندك عفافه ودينه. وحضهم على الوفاء بما تعاهدهم عليه.. فان الله تعالى يقول:

﴿واوفوا بالعهد ان العهد كان مسؤولاً....﴾ ويقول جلَّ من قائل:

﴿انَّ الذين يبايعونك انَّما يبايعون الله... يد الله فوق ايديهم فمن نكث فانما ينكث على نفسه.﴾

وكفَّ عن كافة اهل الخلاف والعناد وجادلهم باللطف والسداد، واقبل منهم من اقبل اليك بالطوع والانقياد، ولا تكره احداً على متابعتك والدخول في بيعتك، وان حملتك على ذلك الشفقة والرأفة والحنان والعاطفة، فان الله تعالى يقول لمن بعثه داعياً اليها باذنه محمد صلَّى الله عليه وسلم:

﴿وما اكثر الناس، ولو حرصت بمؤمنين.﴾

ولا تلق الوديعة الاَّ لحافظ الودائع، ولا تلق الحب الاَّ في مزرعة لا تكدى على الزارع وتوخَّ لفرسك اجل المفارس وتوردهم مشارع ماء الحياة المعين، وتقربهم بقربان المخلصين وتخرجهم من ظلم الشكوك والشبهات الى نور البراهين والآيات، واتلُ عليهم مجالس الحكم التي تخرج اليك في الحضرة على المؤمنين والمؤمنات - المستجيبين والمستجيبات - في قصور الخلافة الزاهرة والمسجد الجامع في القاهرة «المعزّية» وصن اسرار الحكم الاَّ عن اهلها، ولا تبدلها الاَّ لمستحقها ولا تكشف للمستضعفين ما يعجزون عن تحمله ولا تستقل افهامهم بتقلبه واجمع من التبصر بين ادلة الشرائع والعقول، ودلَّ على اتصال المثل بالممثول، فان الظواهر اجسام والبواطن اشباحها والبواطن انفس والظواهر ارواحها، وان لا قوام للاشباح الاَّ بالارواح، ولا قوام للارواح في هذه الدار الاَّ بالاشباح، ولو افترقا لفسد النظام وانتسخ الايجاد بالاعدام، واقتصر من البيان على ما يحرس في

النفوس صور الايمان ويصون المستضعفين من الافتتان، وانهم عن الاثم ظاهره وباطنه وكامنه وعالنه . . . فان الله تعالى يقول:

﴿وذروا ظاهر الاثم وباطنه .﴾

واتخذ كتاب الله مقتبساً تأخذ منه الانوار، ودليلاً تقتفي اثاره، واتله متبصراً وردده متذكراً وتأمله متفكراً وتدبر غوامض معانيه وانشر ما طوي من الحكم فيه، وتصرف مع ما حلله وحرمه ونقضه وأبرمه، فقد فصّله الله وأحكمه، واجعل مشرعه القويم الذي خصَّ به ذوي الالباب، وأودعه جوامع الصلوات ومحاسن الآداب سبباً تتبع جادته وتبلغ في الاحتجاج بحجته، وتمسك بظاهره وتأويله ومثله ولا تعدل عن منهجه وسبله، واضمم نشر المؤمنين واجمع شمل المستجيبين وارشدهم الى طاعة امير المؤمنين، وسوّي بينهم في الوعظ والارشاد . . والله تعالى يقول في بيته الحرام:

﴿سواء العاكف فيه والباد﴾ .

وزد لهم من الفوائد والمواد على حسب قواهم من القبول، وما يظهر لك من جودة المحصول ودرجهم بالعلم ووفِّ المؤمن حقه من الاحترام، ولا تعدم الجاهل عندك قولاً سلاماً كما علّم رب السلام. وتوخ رعاية المؤمنين وحماية المعاهدين، وميزهم من العامة بما ميزهم الله من فضل الايمان والدين، وألن لهم جانبك، واحن عليهم والطف، وابسط لهم وجهك، واقبل اليهم واعطف، فقد سمعت قول الله تعالى لسيد المرسلين:

﴿واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين .﴾

ولا تفسح لاحد منهم في التطاول بالدين، ولا الاضرار باحد من المعاهدين والذميين وميزهم بالتواضع الذي هو حلية المؤمنين،واذا البس عليك امر وأشكل، وصعب لديك مرام وأعضل، فانهِ الى مقام الامامة متبعاً قول الله تعالى:

﴿فاسألوا اهل الذكر ان كنتم لا تعلمون.﴾ وقوله:

﴿فان تنازعتم في شيء فردوه الى الله والرسول ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلاً.﴾

وليخرج اليك من بصائر توقيفها ومراشد تعريفها ما يقفك على مناهج الحقيقة، ويذهب بك في لاحب الطريقة، واقبض ما يحمله المؤمنون لك من الزكاة والنجوى والاخماس والقربات وما يجري هذا المجرى، وتقدم الى كاتب الدعوة باثبات اسماء اربابه، واحمله الى امير المؤمنين لينتفع مخرجوه بتنقيله له ووصوله اليه وتبرأ ذممهم عند الله منه، واستنب عنك في اعمال الدعوة من شيوخ علم الحكمة، ومن تثق بديانته وتسكن فيه الى وفور صناعته، واعهد اليهم كما عهد اليك، وخذ عليهم كما اخذ عليك، واستطلق لهم من فضل امير المؤمنين ما يعينهم على خدمته ويحمل ثقلهم عن اهل دعوته، واستخدم كاتباً دينياً اميناً مؤمناً بصيراً عارفاً حقيقاً بالاطلاع على اسرار الحكمة التي امر الله بصيانتها وكتمانها عن غير اهلها... نقياً حصيفاً لطيفاً ينزلهم في مجلسك بحسب مراتبهم من العلم والدين والفضل.

هذا عهد امير المؤمنين اليك فتدبره متبصراً، وراجعه متدبراً، وبه الوصايا تهدى وتسدد وتوفق وترشد، واستعن بالله يمدك بمعونته ويدم حظك من هدايته.. ان شاء الله تعالى.

ما بعد الحاكم بامر الله:

كان عمر الخليفة الفاطمي السابع الظاهر لاعزاز دين الله سبعة عشر عاماً عند وفاة والده الحاكم بامر الله، وذكرت المصادر التاريخية الفاطمية: بانه ولد للحاكم بامر الله عدا الظاهر ولداً ثانياً توفي في عهد والده سنة ٤٠٠ هـ، وكان يسمّى «الحارث ـ ابو الاشبال» وابنة صغرى هي: «ست مصر».

وبالنسبة للظاهر فان عمته «ست الملك» هي التي تولّت تربيته،

والاشراف على تعليمه وتثقيفه، ويبدو انها بذلت عناية كبرى في سبيل اعداده للملك وللخلافة، لهذا تخرّج وهو يحمل في طيات نفسه اكبر ثروة من المثالية والادب والخلق الرفيع والتهذيب، فكان الناس يتندرون بادبه وحلمه ويشبهونه بجده «المعز لدين الله».

اشتهر الظاهر لاعزاز دين الله بحبه للادب وللشعر، فكان يجنح الى الحلم والتواضع، ويكره مبدأ القتل والعنف، مع ميل ظاهر الى الفن واللهو والغناء والانقطاع الى الاصدقاء والخلاّن من رفاقه الشباب بعيداً عن اجواء السياسة والملك العقيم، وكان في الوقت ذاته قوي العزيمة لا يبالي بالصعاب... يقف امامها بعزم ثابت وصبر، ويتصدّى لها بعنف وهو واثق من النصر.

وكان رحب الصدر، كثير الحلم... محبّاً لعمل الخير... كريماً يعفو عند القدرة، ويستمع الى الرعية وشكاوي الفقراء والمظلومين بالاضافة الى تدينه وحرصه على تطبيق قواعد الدين الاسلامي والتمسك باهداب التعاليم الشرعية الصحيحة، مع رغبته الصادقة بالابقاء عليها بمنجاة من دعوات الشرك والغلو والالحاد، وكان دقيقاً وعنيفاً بإزالة كل ما علق بالافكار من تعاليم العقائد المخالفة والمنحرفة التي ابتدعتها فرقة «الغلاة» في عهد والده الامام الحاكم بامر الله... ومحو كل ما اتهم به البيت الفاطمي من اتهامات باطلة عن عطفهم على هذه الفئة وتشجيعها وتبني عقائدها... وفي هذا المجال كانت اوامره صارمة بابطال دعواهم والقضاء على مزاعمهم، وبالتالي ابادتهم في حال الاستمرار على الغواية، وكنا ذكرنا انه تمّ القضاء على هذه الفئة الغريبة بعهده، ولم يبق لها اي اثر.

اجل... تميّز عهد الظاهر لاعزاز دين الله بالسكينة والسلام والرفاه العام والرويّة والاعتدال في باديء الامر، ولكنه ساءَ اخيراً وتردّى. فذهبت هيبة الدولة، وضاع القانون، وأصبح الحكم للعصابات الخارجة على القانون والدولة، تسرح وتمرح دونما خوف، وتهدد حياة الآمنين.

اجل... اعطى الخليفة الظاهر لاعزاز دين الله الشباب حقه من الحرية والانطلاق والاستمتاع تاركاً لعمته الاميرة ست الملك ادارة شؤون الدولة. وبالفعل قامت بالمهمة خير قيام، وادارت دفة الامور بنباهة وذكاء وقوة وحزم... وفي تلك الفترة اصدر الظاهر مرسوماً سمَّاها فيه «نائبة التدبير» لم يستمر طويلاً اذ ان المنية فاجأتها سنة ٤١٤ هـ، عن عمر ناهز الخامسة والخمسين. وبعد وفاتها بدأت الاحوال العامة للدولة الفاطمية الداخلية والخارجية تتدهور، ممَّا ازعج الخليفة الشاب الطري العود، وجعله في وضع حائر مضطرب لا يجد على ساحة الدولة من يسد الفراغ.

ومهما يكن من امر... فالتاريخ الفاطمي ذكر: بان اعمال الخليفة الظاهر لاعزاز دين الله بدأت بمنحه الحرية التامة المطلقة لكافة الفرق والمذاهب بممارسة طقوسهم الدينية كما يشاؤن، كما الغى مراسيم عديدة كانت قد صدرت بعهد والده الحاكم بامر الله، وخاصة ما كان منها متعلقاً بالحالة الاقتصادية للدولة، فألغى الكثير من المنح والاقطاعات والعطايا والهبات والرواتب والمخصصات والارزاق التي قررها والده، والتي كانت تشكل عبئاً ثقيلاً على خزينة الدولة.

وأشاع العدل والقانون في جميع ارجاء الدولة، ممَّا اعاد الى الاذهان سيرة الخليفة الفاطمي الرابع «المعز لدين الله». من هنا فان غالبية الشعب المصري، وخاصة الطبقة المثقفة الراقية محضته ثقتها وأولته طاعتها، ودانت له تمام الادانة، ولكن كل هذا لم يقف امام تفاقم الاحداث وازدياد الاضطرابات، مضافاً الى ذلك تعرض البلاد الى سوء الاحوال الطبيعية والآفات السماوية.

من المعلوم ان الخليفة الفاطمي السابع الظاهر لاعزاز دين الله تسلَّم شوؤن الخلافة وهو في سن الشباب كما ذكرنا، فحمل الامانة مكرهاً، واضطلع بالمسوؤلية مجبراً، وكانت التركة ثقيلة جسيمة والايام حبلى بالاحداث والمفاجئات.

صحيح... ان عمته الاميرة ست الملك اخذت الحمل عنه، ولكن لفترةٍ قصيرة، فالقدر لم يمهلها وكان ان ماتت مأسوفاً على براعتها وحدبها وسهرها... ومّما لا ريب فيه ان الخليفة الظاهر لاعزاز دين الله مدين لهذه العمة البارة بالملك الذي حافظت عليه وسهرت لأجله ... وكأنَّ الله قيَّضها له بعد تلك الصدمة الاليمة التي المّت به اثر اختفاء والده... فكانت هذه الاميرة النابهة المدبرة هي التي تعهدته واشرفت على تربيته وتأديبه وايصاله الى الملك اخيراً ثم انها لم تتوقف فأخذت تسهر عليه وتوجه دفة الدولة وتدبر امورها بنباهة وجرأة واستحقاق حتى آخر نفس من حياتها.

ومّما تجدر الاشارة اليه ان عمّار بن محمد... رئيس الرؤساء او خطير الملك.. ساهم مساهمة مخلصة بايجاد المناخ الصالح لخلافة الظاهر، وكان وقت اختفاء الحاكم بامر الله يشغل وظيفة رئيس ديوان الانشاء والمشارقة والاتراك.

تزوّج الخليفة الظاهر لاعزاز دين الله امة سوداء كانت لاحد التجّار المسمّى «سهل بن هرون التُستري» فابتاعها منه وولدت له «المستنصر بالله» الذي تسلّمَ الخلافة بعد والده. امّا التستري هذا فقد ذكرت المصادر التاريخية: انه لعب دوراً عظيماً بعهد الخليفة الثامن المستنصر بالله مستغلاً صداقته وتربيته لوالدة الخليفة.

أوضاع المغرب بالنسبة للدولة الفاطمية:

كانت الاوضاع في المغرب في اواخر عهد الخليفة الحاكم بامر الله تسير في طريق مسدود وغامض، «فباديس بن بلكين بن زيري الصهناجي» بالرغم من بقائه على الولاء للفاطميين بالظاهر فانه في الباطن استأثر بكافة الصلاحيات بحيث لم يبق لهم الاّ الاسم على العملات، والخطب التي تذكرهم

في المساجد، وبعض التأييد لدى اتباعهم العقائديين الذين اعتنقوا المذهب الفاطمي.

وقد عرف الحاكم بامر الله كل هذا، ولكنه وهو في خضم الاحداث اراد الابقاء على العلاقة مع الزيريين ولو شكلياً رغم علمه ان هيبة الدولة الفاطمية ونفوذها لم يعد لها وجود في ديار المغرب، واذا كان قد ظلَّ حريصاً على ابقاء العلاقات الوديَّة، فلأنَّ الدولة لم تكن تتحمل الدخول في معارك بشأن المغرب خاصة في ذلك الوقت.

وعندما تسلمَّ الظاهر لاعزاز دين الله شؤون الخلافة، هبطت وفود عديدة من المغرب تمثل القبائل والهيئآت ذات الفعاليات والنفوذ، وكانت تحمل لخليفة مصر التهاني والمبايعة، ولكن ومع كل هذا فان الاعتقاد ظلَّ سائداً بان المغرب لم يعد البلد الذي يمتلكه الفاطميون او يحكمونه مباشرة.

اجل... عرف الحاكم بامر الله كل هذا في وقت لم تكن الظروف والاحداث الداخلية والمشرقيَّة تساعد على التفرغ لشؤون الاقطار المغربية... ومن الجلي الواضح ان التاريخ الفاطمي ذكر:

بان الحاكم قد خططً في اواخر ايامه للعودة الى المغرب وذلك بان يقيم فيها ستة اشهر وستة اشهر اخرى في القاهرة، ولكن الاجل لم يمهله، كما ان الاقدار لم تساعده على تطبيق هذا المشروع.

ومهما يكن من امر فان بلّكين بن زيري يعتبر اول نائب عن الخليفة في المغرب يفكر باستقلال المغرب عن الدولة الفاطمية، وقد مرَّ معنا ان ولده باديس مرَّ في القاهرة وكان في طريقه الى الحج، واجتمع الى الخليفة الحاكم بامر الله وتظاهر امامه بالابهة والعظمة والاستعلاء، ولكن الحاكم بامر الله قابله بتناسي المشهد المخصوص والسماح والرغبة في البقاء على ارتباطه ولو شكليًا برباط الود التقليدي بالدولة الفاطمية.

وعند العودة الى الحديث عن المغرب نقول:

بـان الاختلال الداخلي ذرّ بقـرنـه في المغـرب بين اسرة الزيـريين الحاكمة . . . فباديس شنّ حرباً على ابناء عمه الحمّاديين بسبب دعوتهم الى الاستقلال التام والارتباط بالعباسيين ، وكأن باديس قد تناسى نصيحة الخليفة المعز لدين الله لجده بلّكين يوم اقامه نائباً عنه على المغرب وقال له وهو يودعه وكان في طريقه الى مصر :

احذّرك بان لا تولي احداً من اسرة الزيريين اية وظيفة في الدولة . . . ولكن باديس خالف الوصية وعهد لعمه حمّاد بن بلكّين بالدفاع عن المغرب الأوسط ضد « البترزناتة » وذلك سنة ٣٨٦ هـ فقام ببناء القلاع والحصون والاستحكامات ، وبعد فترة اعلن الخروج عن طاعة ابن اخيه سنة ٤٠٥ هـ ، ونصّب نفسه اميراً على دولة مستقلة ثم اخذ يشجع زناتة في طرابلس الغرب على الخروج على باديس .

ومن الجدير بالذكر ان حمّاداً كان جباراً وسفّاحاً يقتل الاطفال والنساء والاسرى ، ويعيث فساداً في كل مكان يدخله ، ممّا دفع باديس للذهاب الى معاقبته ، ولكنه توفي سنة ٤٠٦ هـ قبل ان ينفّذ مهمته ، فخلفه ابنه « المعز » الذي بدأ عهده بعقد صلح مع حمّاد والابقاء على ما في يديه .

امّا بالنسبة للفاطميين ، فان عوامل الفتور بين الزيريين والفاطميين تبدو قديمة ، وقد بدأت في مستهل عهد المعز لدين الله ، عندما اخذ بعض الزيريين وتابعوهم ينقضون عهودهم ، ويعودون الى اعتناق المذهب السني ، بعد ان كانوا قد اعتنقوا المذهب الفاطمي .

ولكي نستقصي اسباب التحول عن مذهب الفاطميين ، يجدر بنا ان نعود الى عقيدة اهالي شمالي افريقيا قبل مجيء الفاطميين ، فمن الواضح ان هذا الاعتقاد القديم كان يقوم على مذهب ابي حنيفة ولكن « سحنون بن سعيد » الذي قدم القيروان سنة ١٩١ هـ . ألف كتاباً في المذهب المالكي ، دعا الناس فيه الى اعتناق هذا المذهب لانه يتفق وطبائع اهالي شمالي افريقيا ، وبالفعل لاقى الكتاب اعتباراً كبيراً وأثرّ في الافكار بحيث اعتبر فيما بعد

اساساً للعقائد الدينيّة السائدة في تلك البلاد .

ومهما يكن من امر: فان اهل افريقيا الشمالية ايّدوا الفاطميين لرغبتهم في التخلص من حكم الولاة العباسيين من جهة، ولابعاد الفوضى الضارية اطنابها في بلادهم من جهة اخرى . امّا بعد رحيل الفاطميين من المغرب الى الديار المصرية، فان الزيريين «نواب الفاطميين» اصبحوا وحدهم يمثلون المذهب الشيعي في عاصمتهم «المنصورية» . امّا في القيروان وغيرها من مدن المغرب، فقد كان المذهب المالكي هو السائد . ولا شك فان ضعف المذهب الفاطمي وصل الى الحد الاقصى من الانهيار بعد الثورتين المشهورتين: ثورة أبي يزيد الخارجي، وثورة ابي ركوة وقد ذكرنا عنهما في الصفحات السابقة ، كما يجب ان لا يغرب عن البال انقسام الزيريين على بعضهم البعض وانحياز الفريق الثاني الحمّاديين للسنة ، وتصديهم للشيعة حتى في عاصمة الفريق الأول ـ المنصورية .

امّا المعز بن باديس الذي تسلّم الامارة في المغرب، وهو ابن ثماني سنوات، فقد كان تحت سيطرة فقيه سني اسمه: الحسن بن علي بن ابي الزجّال الذي تمكنّ منه، وحوّله عن الفاطمية .

وتذكر المصادر التاريخية :

ان سبب الفتور، هو حدوث مصادمات بين الشيعة والسنة في المغرب . . . فقد ذكر ان الدم جرى غزيراً في شوارع القيروان، فكان السنيّون يهاجمون الشيعة في الاسواق وفي كل مكان، فيقتلون الاطفال والنساء والشيوخ دونما تمييز او رأفة ، وقد سارت اغلب مدن المغرب على هذه الخطة، فثار الأهلون على الشيعة وقتلوا منه اعداداً كثيرة، كما احرقوا منازلهم بالنار ونهبوها ، وأعملوا فيهم القتل عندما حاولوا الفرار الى صقليّة ، وكانوا يسمونهم المشارقة ، نسبة الى ابي عبد الله الشيعي الذي جاء من المشرق، وهناك رأي لا يبرىء المعز بن باديس من هذه الجريمة، فقد نذكر انه دعا الناس بالسر وشجعهم على القضاء على الفلول الشيعية،

بعد ان تجرأ على تغيير العملات، ونزع اسم الفاطميين عنها .

وبالرغم من كل هذا فان الفتور لم يصل الى احد القطيعة، لان الزيريين الفرع الاول كانوا سياسياً يعتمدون على تأييد العباسيين .

امّا الخليفة الحاكم بامر الله، فقد ازعجه ان تصل الامور في المغرب الى هذا الحد، فأرسل الى المعز بن باديس يسأله عن الاسباب التي ادّت الى سفك دماء الابرياء من الشيعة بهذا الشكل الوحشي؟ . . .

فأجابه: معتذراً عمّا وقع، والقى المسؤولية على العامة الذين لم يكن بالامكان كبح جماحهم . . . ومن جانب آخر نرى المعز يرسل الى الخليفة الحاكم بامر الله بشرى نهاية الدولة الاموية بالاندلس . . . فأرسل اليه الحاكم بامر الله سيفاً مرصعاً بالجواهر وخلعة من ثيابه . . وتبادلا رسائل الود .

الأحداث في المشرق:

في بلاط الدولة الفاطمية، وفي القاهرة المعزيّة، وفي ردهات قصر الخليفة الظاهر لاعزاز دين الله، ولدى الخاص والعام . . . وفي اوساط عائلة الخليفة . . . كان الاعتقاد سائداً بان مقتل الخليفة الحاكم بامر الله، واختفاء جثمانه تمّ على ايدي عصابة الغلاة الذين نادوا بألوهية الحاكم . . . وقد كان لهذا ابلغ الاثر في نفس الخليفة الظاهر لاعزاز دين الله، ويبدو انه ولّد لديه شعوراً غريباً ورغبة بالانتقام من هذه المجموعة الملحدة الخارجة . وكان ان اصدر اوامره المشددة بضرورة استئصال جذورها وابادتها وازالة كل اثر لها، وبالمناسبة اذاع سجلاً ومرسوماً صدر عن القصر الفاطمي سنة ٤١٤، وهذا بعض ما جاء فيه كما ورد في كتاب النجوم الزاهرة للصابي:

« وذهبت طائفة الى الغلو في ابينا امير المؤمنين علي بن ابي طالب . . . غالت وادّعت فيه ما لا يصدقه العقل، ونجمت عن هذه المجموعة الكفرة فرقة سخيفة العقول ضالّة بجهلها عن سواء السبيل، فغلوا فينا غلواً كبيراً،

وقالوا في ابائنا وأجدادنا منكراً من القول وزوراً .

نسبونا بغلوهم الأشنع وجهلهم المستفظع الى ما لا يليق بنا ذكره . . . وانّا لنبرأ الى الله تعالى من هؤلاء الجهلة الكفرة ونسأل الله ان يحسن معونتنا على اعزاز دينه وتوطيد قواعده وتمكينه والعمل بما امرنا به جدنا المصطفى وأبونا علي المرتضى وأسلافنا البررة اعلام الهدى.

وفي المرسوم يتبرأ الخليفة الفاطمي الظاهر لاعزاز دين الله من هذه المزاعم التي قيلت في ابيه وأسلافه ويؤكد اعترافه الى الله بانه واسلافه الماضين وأخلافه الباقين مخلوقون اقتداراً ومربوبون اقتساراً لا يملكون لأنفسهم موتاً ولا حياة، ولا يخرجون عن قبضة الله تعالى، وان من خرج منهم عليه لعنة الله .

وفي المرسوم ايضاً انذار يدعو هؤلاء الى التوبة لله من الكفر، وينذرهم بوضع السيف على رقاب من يصر على البقاء على الكفر، كما يعد التائبين والراجعين الى الصواب بالعفو .

لقد كنّا ذكرنا في اكثر من مكان من كتابنا بان تلك المجموعة لا تمت الى الدروز الموحدين بصلة ولا تربطها اية رابطة بهم .

اجل . . . هكذا بدأ الخليفة الظاهر لاعزاز دين الله عهده، فقد هاله ان يقوم بين رعيته من اعماهم الجهل، فينظرون اليه والى ابائه واجداده وكأنهم آلهة . . . فيا للكفر ويا للشرك ويا للألحاد .

ومهما يكن من امر، فان الخليفة الظاهر كان يعتقد اعتقاداً جازماً بان الفرقة الكافرة التي اعتقدت وقالت بالوهية الحاكم بامر الله هي نفسها التي دبرت مؤآمرة اغتياله واخفائه لكي تدعم اعتقادها بعودته ثانية هذا من جهة ومن جهة اخرى انتقاماً منه لقتلاها وضحاياها .

من هنا فان عقابه لهم كان قاسياً ومريراً، بحيث ان اوامره كانت من القسوة لدرجة انها تلزم الجنود الذين انطلقوا اليهم بان يحكموا السيف في

الرقاب دونما تمييز، وهكذا نفذت الأوامر بقتل الاطفال والنساء والشيوخ وتهديم المنازل على الرؤوس، فذهب الصالح بجريمة الطالح، ومات المذنب والبريء معاً .

امّا الذين سلموا فقد تفرقوا في المدن بعد ان خربت منازلهم وظلوا فيها ، واخيراً اندمجوا مع الاوساط التي عاشوا فيها وانتهى امرهم .

هذا بالنسبة للغلاة . . . امّا بالنسبة للأوضاع العامة في بلاد الشام، فقد مرَّ معنا ان هذه البلدان لم تعرف الاستقرار ولا الهدوء منذ ان حطَّ الفاطميون في ارجائها الرحال . ويذكر التاريخ انه في عهد الخليفة الظاهر لاعزاز دين الله وقعت فيها حوادث يمكن اختصارها فيما يلي :

ففي تلك الفترة من حكمه فكرَّ « فاتك الوحيد » عزيز الدولة وامير الامراء بالعصيان والاستقلال بحلب وما يتبعها مستغلاً بذلك غياب الحاكم بامر الله، وصغر سن الخليفة الظاهر لاعزاز دين الله، ولكن الاميرة « ست الملك » اغرت خادمه بدر فدبَّر موامرة قتله ، ونفَّذ المؤآمرة عندما كان سكراناً ، فتولَّى ولاية حلب مكانه مكافأة له، ولكنه مع كل اسف لم تستمر سوى بضعة ايام، لان ناصر بن صالح بن مرداس الذي كان سجيناً فرَّ من سجنه وظهر على مسرح الاحداث من جديد، وكان في اول امره على علاقة طيبة بالفاطميين، ولكنه عاد فنكث، ثم انه استولى فيما بعد على حلب ، وما يتبعها من القرى والبلدان .

والمرداسيون هم جماعة من الشيعة اقاموا امارتهم على انقاض الامارة الحمدانية فقد انطلقوا من مواطنهم وادي الفرات، وقاموا بحملتهم عندما انطفأ آخر شعاع للحمدانيين، فاستولوا على حلب ثم امتدوا بعد ذلك الى منبج والرقة والرحبة وحمص وحماه وصيدا وبعلبك وطرابلس .

ومن مآثرهم انهم انتصروا باحدى المعارك على ارمانس ملك الروم في معركة فاصلة وقعت في شمالي سورية، وقد عرف ان مؤسس امارتهم هو: صالح بن مرداس امّا ناصر فهو ولده وكان معاصراً للخليفة الظاهر

لاعزاز دين الله .

امّا بالنسبة للشام، فان حسّان بن جرّاح تغلّب على اكثر مدنها، ولم يستطع احد من عمّال الفاطميين او قوادهم المرابطين هناك صدّه او الوقوف بوجهه. وكل هذه بوادر تدل على ضعف الدولة الفاطمية التي كانت تجتاز مرحلة الازدهار والسمو الى مرحلة الانهيار والضياع .

في صقلية والداخل :

ممّا تؤكده المصادر التاريخية ان جزيرة صقلية ظلّت على ارتباطها بالدولة الفاطمية رغم الاحداث المتلاحقة، فلم يفكر القائمون عليها من اسرة الكلبيين التخلي ولو قيد انملة عن الوفاء والاخلاص للدولة التي رعتهم وأوجدتهم .

امّا بالنسبة للاحداث الداخلية، فيبدو كما دلّت الوقائع ان الخليفة الظاهر لاعزاز دين الله لم يستطع ان يضبط امور دولته الفاطمية، او يهدىء النفوس الشريرة التي استيقظت، وتجندت للعبث بالامن والاساءة الى المجتمع والدولة، فكان نشاطها في بداية عهدها سلسلة من الخراب والدمار قامت بتنفيذه عصابات اتخذت لنفسها مهنة القتل والتخريب... فكانت تقتل وتغدر وتسرق دونما اي خوف مستغلة بذلك وفاة الاميرة ست الملك التي كانت قابضة بيد من حديد على زمام الامور في الدولة داخلياً وخارجياً. وجاءت الاقدار لتزيد الامور سوءاً حينما ألقت الطبيعة جام غضبها على مصر، فأصابت شعبه بنقص في الارزاق والغذاء، وانخفاض مياه النيل، وتعطيل الزراعة، فهاجر الناس الى بلاد اخرى طلباً للرزق والعيش .

وهكذا شاءت الاقدار ان تضع العراقيل في وجه الخليفة الجديد، وتشل حركته وتضعف هيبته، وهكذا وقف امام الاحداث واجماً وحيداً .

ففي سنة ٤١١ هـ. افتتح عهده باقامة مأتم حافل لوالده الحاكم بامر

الله، فجلّل القصر الفاطمي بالسواد، واستمر البكاء والعويل والندب طوال ايام عديدة، كما اسبغ على المأساة الصفة الرسمية... وذكر انه بعد التولية التي حدثت في اول يوم من عيد الاضحى خرج للصلاة وعلى راسه المظلّة، فصلّى في الناس وعاد فكتب للعمال والولاة يعلمهم بخلافته. كما الغى العديد من القرارات التي تحتوي على التحريم الصارم التي صدرت بعهد والده الحاكم بامر الله، ثم عاد الى سياسة التسامح الفاطمية التي سار عليها الخليفة المعز لدين الله وابنه العزيز بالله.

وممّا تجدر الاشارة اليه انه عندما علم بموت «عبد الرحيم بن الياس» احضر شهوداً وقضاة فشهدوا على ان الوفاة حدثت بطريقة الانتحار... وكل هذا حتى يضع حداً للاشاعات التي انطلقت في الدولة وللاتهامات التي رددها بعض الاعداء. وقد ذكرنا ان عبد الرحيم هذا هو احد احفاد «عبيد الله المهدي» مؤسس الدولة الفاطمية في الغرب، وأول خليفة. والمعروف ان الحاكم بامر الله كان قد اوصى له بولاية العهد بالرغم من وجود الظاهر لاعزاز دين الله، وهذا السر الحاكمي لم تعرف الاسباب والدوافع اليه.

وفي سنة ٤١٤ هـ. ايضاً ارتفعت اسعار الحاجيات الضرورية والمواد الغذائية لدرجة لا تطاق كما تعذّر وجود الخبز.

وفي سنة ١٤٥ هـ. عيّن الخليفة الظاهر لاعزاز دين الله الخادم الأسود «معضاد» قائداً اعلى لجيوش الدولة ولقبّه «عز الدولة» وابا الفوارس، ومعضاد الظاهر... ومنع في هذا العام الناس من ذبح الابقار لقلتها، وعزّت الاقوات، وقلّت البهائم كلها حتى بيع الرأس من البقر بخمسين ديناراً، وكثر الخوف في ظاهر المدينة، وعمّت الاضطرابات، وفكرّ زعماء الدولة بمصادرة التجار، فاختلف بعضهم على بعض وتعالى عنقه، واشتدّ الغلاء ايضاً وفشت الامراض، وبرز الموت الى الارجاء، وفقد الحيوان الاهلي، فلم يعثر على دجاجة او فرخ حمام... وعزّ الماء لقلة الظهر... اي

لم تعد هناك حيوانات للنقل .

ومن الجدير بالذكر ان ركب الحجّاج خرجوا من القاهرة، فقطع عليهم الطريق بعد رحيلهم في «بركة الجبر» الواقعة في الجهة البحرية من القاهرة، واخذت اموالهم وقتل الكثير منهم وعاد من بقيَ منهم ولم يحج احد من اهل مصر، وتفاقم الامر من شدة الغلاء فقام الشعب بمظاهرة صاخبة فيها الى قصر الخليفة وكانوا ينادون:

الجوع... الجوع... يا امير المؤمنين... لم يصنع بنا هذا ابوك ولا جدك فالله... الله... في امرنا.

وانتشرت الامراض والاوبئة والموت بين الاطفال لعدم وجود الاقوات، وكثر الخوف من العصابات التي انتشرت في كل مكان تسرق وتنهب وتقتل في سبيل الكسب ومقاومة الجوع .

ومن الامور التي تسترعي الانتباه:

ان الخليفة الظاهر لاعزاز دين الله عمل سماطاً بمناسبة عيد الاضحى... فهجم العبيد على السماط وهم يصيحون: الجوع... الجوع... ثم انهم نهبوا والتهموا كل ما كان عليه. امّا الارياف فقد عمّها الاضطراب ايضاً، فتجنّد العبيد لنهبها وسلب كل ما كان فيها بالاضافة الى ارتكابهم اعمالاً موبقة واحتاجت الدولة الى اموال لسد العجز بعد ان صرفت اموال الجزية على شؤون التموين .

وفي تلك الفترة ايضاً اذاع الخليفة الظاهر لاعزاز دين الله امراً على الناس يقضي بقتل كل عبد يرونه في الطريق، كما انه جنّد فرقاً من الجيش لحفظ الامن والسهر على راحة الاهلين، ولكن العبيد لم يهدأوا او يستكينوا، فاستعدوا للقتال وحفروا الخنادق ورابضوا في الدروب والازقة والشوراع، فخرج اليهم قائد الجيش معضاد في عسكره وطردهم وقبض على الكثير منهم كما ضرب اعناق بعضهم، وقد عزا العبيد كل هذه التدابير الى

الوزير الجرجرائي وغيره من وجوه الدولة فهددوهم بالقتل، ممّا حمل المسؤولين على طلب المزيد من الحراسة، كما امتنع بعضهم في منازلهم، وفي هذا العام هاجمت عساكر ابن الجرّاح منطقة الفرما ففرّ اهلها الى القاهرة .

وفي سنة ٤١٧ هـ . ظهر بمصر مرض يسمّى « بالرعاف » اي سيلان الدم من الانف، فلم يستطع احد ان يجد له علاجاً، كما لم تعرف اسبابه؟ وسقط الخليفة الظاهر لاعزاز دين الله عن فرسه ولكنه لم يصب باذى، فتصدّق على الفقراء بمائة الف دينار، وفي هذا العام امر الخليفة بطرد فقهاء المالكية من مصر بعد ان توجه نشاطهم ضد الخليفة في خطابات كانوا يلقونها في المساجد .

وفي هذا العام ايضاً وقّع الخليفة الظاهر لاعزاز دين الله على معاهدة هدنة وصداقة مع امبراطور الروم قسطنطين الثامن، وهكذا خطب له في القسطنطينية واعيد جامعها الى ما كان عليه، وأرسل اليه من مصر اماماً ومؤذناً، وبالمقابل اعاد الظاهر لاعزاز دين الله للروم كنيسة القيامة بالقدس وكانت مغلقة .

وفي الفترة المذكورة وقعت فتنة كبرى بين المغاربة والاتراك قتل فيها خلق كثير من الفريقين فاضطربت احوال مصر والقاهرة من جرّاء ذلك، ولم يستطع الجيش ان يطفيء نار الفتنة او يعيد الامن الى نصابه .

وفي عام سنة ٤٢٠ هـ . ولد للظاهر لاعزاز دين الله من زوجته السوداء ولده البكر « المستنصر بالله » فاقيمت الاحتفالات في كل مكان ووزعت الهدايا على الناس، والاموال على الفقراء والمحتاجين، ومن الجدير بالذكر انه بعد ولادته بثمانية اشهر بايعوه بالخلافة، واقيمت الافراح والمباهج احتفالاً بهذه المناسبة .

وفي هذا العام عاد الغلاء من جديد، وهكذا النقص في المواد، وأخذت مياه النيل بالنقصان، ممّا اعاد الى الاذهان ذكريات السنين العجاف .

وفي سنة ٤٢٣ هـ. قتل الظاهر لاعزاز دين الله احد الدعاة الكبار الذي ادَّعى النبوة زوراً، فثار اتباعه، وكادت تقع فتنة كبرى، ولكن الخليفة سيطر اخيراً على الموقف وتمكَّن من اعتقال عدد كبير منهم.

وفي سنة ٤٢٥ هـ. ارسل الخليفة الظاهر لاعزاز دين الله دعاته الى بغداد وفارس، فاستجاب لهم خلق كثير، ولكن الأوبئة والامراض عادت في هذا العام لتفتك بالناس.

وفي سنة ٤٢٧ هـ. مات الخليفة الظاهر لاعزاز دين الله فجأةً، وكانت مدة خلافته خمسة عشر عاماً وثمانية اشهر. وصفه المؤرخون باوصاف الاطراء والمديح وزاد بعضهم بالقول:

بانه كان ميالاً الى اقتناء التحف والجواهر، وكان مغرماً بمراسلة الملوك وعظماء الرجال، ومن المشهور عنه عنايته الخاصة بحرسه حيث اشرف على تنظيمهم وتزويدهم بالسلاح والثياب الجميلة.

بعض ما قيل في نسب الفاطميين:

ذكر ان هناك مجلد كبير يشتمل على بضع وعشرين كراسة في الطعن على انساب الخلفاء الفاطميين من تأليف الشريف المعروف «بأخي محسن» وهو: «محمد بن علي بن الحسين بن احمد بن اسماعيل بن محمد بن جعفر الصادق» ويكنَّى بأبي الحسين، وهذا الرجل عاش في النصف التاني من القرن الرابع الهجري.

وقد ناقش هذا الكتاب وذكره «محمد بن اسحاق النديم» في كتاب الفهرست وعزاه الى «ابي عبد الله بن رزَّام الطائي الكوفي» الذي عاش في النصف الأول من القرن الرابع الهجري وذكر في كتابه انه ردَّ على الفاطميين فقال:

هؤلاء من «ديصان» التنوي الذي تنسب اليه الثنوية، وهي فرقة كانت تعتقد بوجود خالقين: احدهما يخلق النور، والآخر يخلق الظلمة. فولد لهذا

الرجل ولد سمي « ميمون القدّاح » واليه تنسب الميمونة وكان له مذهب في الغلو، وله ولد سمّاه عبد الله، وكان خبيثاً ماكراً اكثر من ابيه، فهو اعلم منه بالحيل، فعمل ابواباً كتيرة من المكر والخداع ضد الاسلام، وكان عارفاً بجميع السنن والشرائع وجميع علوم المذاهب كلها... وكان في الظاهر يدعو الى الامام « محمد بن اسماعيل بن جعفر الصادق ».

ومن المشهور عنه انه ادّعى مرة النبوءة فلم يصدقه احد. وأصله من الاهواز ثم انه نزل عسكر مكرّم وسكن « ساباط ابي نوح » فنال بعض المال، وكان يتستر بالعلم والتشيع، وصار له دعاة كثيرون، واظهر ما هو عليه من التعطيل والاباحة والمكر والخديعة، فثارت به الشيعة والمعتزلة ففرّ الى البصرة ومعه رجل من اصحابه يعرف « بالحسين الاهوازي » فادّعى انه من ولد« عقيل بن ابي طالب » وانه يدعو الى محمد بن اسماعيل بن جعفر الصادق، ثم اشتهر امره اخيراً، ففرّ هو والحسين والاهوازي الى « سلميَة » من ارض الشام ليخفي امره فولد له فيها ولداً سمّاه احمد.

وبعد موت عبد الله بن ميمون قام ولده احمد في ترتيب الدعوة، فبعث بالحسين الاهواري الى العراق، فلقي حمدان بن الاشعث المعروف بقرمط في سواد الكوفة... الخ... الخ..

هذه الاقوال المتناقضة السخيفة كتبها شيخ علوي متزمت كان يعيش على فتات خبز العباسيين في بغداد، فلا غرابة بعد ذلك اذا ما صدرت عنه متل هذه الاقوال السخيفة المستوحاة من اعدائهم العباسيين الذين كانوا يستأجرون الكتّاب بالاموال الطائلة ويدفعونهم للنيل من الفاطميين والطعن في انسابهم، ولعلّ الاموال التي دفعوها بسخاء هي التي حركت الضمائر القذرة لتزوير الحقائق سيما والعباسيين الذين امتلأت قلوبهم حقداً وضغينة كان يهمهم ان يتصدّى الاقرباء الى الطعن باقربائهم... وليست قصة الشاعر الشريف الرضي والوتيقة التي اجبر على التوقيع عليها ببعيدة.

لسنا في موقف الدفاع... ولكنها حقيقة يجب ان تقال.

الكلمة الاخيرة:

ان المصادر التاريخية عن حياة الخليفة الفاطمي السابع الظاهر لاعزاز دين الله قليلة ونادرة، وان المدة التي قضاها في مقعد الخلافة كانت قصيرة... لهذا جاءت الاخبار عن تلك الفترة قليلة وموجزة.

ومهما يكن من امر فنستطيع القول:

بان هذا الخليفة كان يمثل الاعتدال واللطف والروية، ولكنه كان قليل الحظ، ففي بدء حياته حُرم من والده، وعندما تسلّم شؤون الخلافة قيّض الله العمّة النابهة الاميرة ست الملك فعملت كل شيء في سبيل المحافظة عليه وعلى ملكه... ولكن ومع كل اسف لم تلبث ان ماتت تاركة الشاب وحده في الساحة يقارع الاحداث بمفرده ويصارع العوامل الطبيعيّة التي صبّت جام غضبها على اهل مصر.

اجل... لم يكن لديه أعوان يركن اليهم في الشدائد، لذلك وقعت الدولة في اتون جحيم من المصائب، فاختل الامن، واستيقظ العبيد، ونشط اللصوص، وقلّ الماء، وعزّ الغذاء وارتفعت الاسعار وعمت الفوضى مماً جعل الخليفة الشاب يفقد كل امل ورجاء.

والحقيقة:

فان الدولة الفاطمية في عهد الخليفة الظاهر لاعزاز دين الله كانت اشبه بجسم تعروه نوبات عصبية من حين لآخر، او شجرة هرمة تهب عليها العواصف كلما تلبدت السماء بالغيوم فتزعزعها وتهددها بالموت. وصاحب المرض عندما تطول عليه العلة وتعاوده النوبات يصبح جسمه في حالة قبول هذه النوبات، وقد يظن انها تفرج عنه، او انه سليم من كل خطر، على حين ان اكثر الآمة، والادوار العصبية هي اشد ظهوراً في الم الجسم، واذا تكررت على المصاب يصير الى العجز فلا يستطيع ان يدفع ضراً ولا ان يجلب خيراً.

لقد كان الناظر من بعيد للدولة الفاطمية في ذلك العهد يظن انها قوية ومتينة، ولكن من الواضح انها كانت الى الضعف اميل، وذلك لكثرة ما استحكم فيها من امراض عضالة. وساورها من اوجاع مؤلمة... انها كانت تعلو وتسفل وتطفو وترسب... فهي كريشةٍ في مهب الرياح... فجيشها وعمالها وشعبها جميعهم فقدوا الصواب وأصابهم الانحلال الخلقي... الجيش يتمرد على القواد، والزعماء يقعون في اتون المنازعات والمنافسات، والولاة في الاقاليم كان بينهم وبين شعوبهم اودية ودهاء وفواصل... بينما الوزراء في منازلهم يمرحون ويسرحون آمنين ولا شيء يعكر صفوهم، والمجتمع يسير في طريق مظلم يكمن فيه الجهل والغرور. وكل هذا باعتقادي يعطي الدليل على ان الدولة وصلت في تلك المرحلة الى حافة الشيخوخة.

اجل... كانت الدولة الفاطمية في عهد الخليفة الظاهر لاعزاز دين الله تمر في مرحلة الانتقال من عهد الشباب والازدهار الى عهد الشيخوخة والانهيار، فهذه الدولة التي نشأت صغيرة وتوسعت حتى اصبحت في طليعة دول العالم، هذه الدولة التي تولّى امرها منذ البدء خلفاء كان همهم اصلاح شؤون رعيتهم وترقيتهم فكرياً، والسير بهم في مضمار الرقي والتطور والحضارة... هذه الدولة وربما كانت العوامل مجتمعة قد استيقظت لتنهي امرها، وتقضي على معالمها، وتأتي بدولة اخرى تحل مكانها تكون اكثر حظاً وأوفر نشاطاً... فللدول اعمار كما للانسان.

لقد سار الفاطميون في حكمهم على قواعد منهاج متطور... كان فكرهم يخطط لضم الاقطار الاسلامية الى دولة واحدة، واعادة مجد العرب الى ما كان عليه في آخر عهد صاحب الرسالة المحمدية. ولكن العوائق برزت قاسية عنيفة، وهبّت العواصف عاتية هوجاء، فأثارت النفوس، وأيقظت الحروب والثورات ممّا جعل المنهاج يتوقف، والمشاريع تتعطل.

واخيراً:

زالت تلك الدولة سنة ٥٧٦ هـ. ولكن هل استطاعت الدول التي

جاءت بعدها ان تجاريها او تلحق بها، او تقدم للحضارة وللفن وللانسانية جزءاً ممَّا قدمته ؟.

المصادر التاريخية:

تاريخ الدولة الفاطمية
حسن ابراهيم حسن ١٩٥٨
الفاطميون في مصر واعمالهم السياسية والدينية
حسن ابراهيم حسن ١٩٣٢
تاريخ الاسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي
حسن ابراهيم حسن ١٩٤٦
النظم السياسية
حسن ابراهيم حسن وعلي ابراهيم حسن ١٩٣٩
عبيد الله المهدي
حسن ابراهيم حسن وطه احمد شرف ١٩٤٥
المعز لدين الله
حسن ابراهيم حسن وطه احمد شريف ١٩٤٧
كنوز الفاطميين
زكي محمد ١٩٣٧
تاريخ جوهر الصقلي
علي ابراهيم حسن ١٩٣٣
في ادب مصر الفاطمية
محمد كامل حسين ١٩٥٠
النفوذ الفاطمي في بلاد الشام والعراق
محمد جمال سرور ١٩٥٧
مصر في عهد الدولة الفاطمية
محمد جمال سرور ١٩٥٧

مجموعة الوثائق الفاطمية
جمال الدين الشيَّال ١٩٥٨
الحاكم بأمر الله واسرار الدعوة الفاطمية
محمد عبد الله عنان ١٩٣٧
نظم الفاطميين ورسوهم في مصر
عبد المنعم ماجد ١٩٣٧
السجلات المستنصرية
عبد المنعم ماجد ١٩٥٤
الامام المستنصر بالله الفاطمي
عبد المنعم ماجد ١٩٦١
الحاكم بامر الله ـ الخليفة المفترى عليه
عبد المنعم ماجد ١٩٦١
نظم الحكم في مصر الفاطمية
مصطفى عطيه مشرفة ١٩٤٨
سيرة جعفر الحاجب
و . ايڤانوف ١٩٣٠
كشف اسرار الباطنية واخبار القرامطة
الباقلاني ١٩٣٠
رسائل الحاكم بامر الله
(مخطوط) كتب سنة ٤٠٨ هـ .
عبقرية الفاطميين
محمد حسن الاعظمي ١٩٦٠
الصليحيون
حسين همذاني ١٩٥٥
افتتاح الدعوة
النعمان بن حيون

دعائم الاسلام
النعمان بن حيون
المجالس والمسايرات
النعمان بن حيون
الهمة في اداب اتباع الائمة
محمد كامل حسين ١٩٥٤
عيون الاخبار
ادريس عماد الدين
سيرة الاستاذ جوذر الكاتب
محمد كامل حسين ومحمد عبد الهادي شعيرة
نظام الوزارة في العصر الفاطمي
مقالة في مجلة الثقافة ـ جمال الدين الشيَّال ١٩٥١
اصل الذمة في العصر الفاطمي
مقالة في مجلة المقتطف ـ جمال الدين الشيَّال ١٩٥٤
ظهور خلافة الفاطميين وسقوطها في مصر
عبد المنعم ماجد ١٩٦٨
ابن الاثير
« الكامل في التاريخ »
ابن خلدون
« العبر وديوان المبتدأ والخبر »
ابن خلكان
« وفيات الاعيان وابناء الزمان »
الذهبي
كتاب دول الاسلام
السيوطي
حسن المحاضرة في اخبار مصر والقاهرة

الطبري
تاريخ الامم والملوك
ابن العبري
تاريخ مختصر الدول
ابن العديم
زبدة الحلب في تاريخ حلب
ابو الفداء
المختصر في اخبار البشر
المسعودي
مروج الذهب
المقريزي
« المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار »
المقريزي
اتعاظ الحنفا باخبار الأئمة الفاطميين الخلفا
النويري
نهاية الارب في فنون الادب
ياقوت الحموي
معجم الادباء
ياقوت الحموي
معجم البلدان
اخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم
ڤوندر ـ ليدن ١٩٢٧
سيرة المؤيد في الدين « داعي الدعاة »
محمد كامل حسين ١٩٤٨
ديوان المؤيد في الدين « داعي الدعاة »
محمد كامل حسين ١٩٥١

راحة العقل

محمد مصطفى حلمي ومحمد كامل حسين ١٩٥٤

المراجع الاجنبيَّة:

The history of Egypt in the middle ages
— London 1901 Lane poope
The Story of Cairo
London 1924
The Alleged Founder of Ismaïlism
—Bombay— W Ivanow 1946
The Origin of Ismaïlism
B. Luis
The Quaddahid Legend
A. Hamdani
Memoires sur les Quaramita de Bahrein et les Fatimites
— De Goeje — M.G — Loyden 1886
Polemics on the Origin of the Fatinides Caliphs
Prince — Mamour London — 1934.
Fatimide — Decrees —
STERN — S. M. London
Quelques Chroniques anciennes aux derniers Fatimites
1937
L'impérialisme des Fatimides et leur propagande
1942—1947
Essaie Sur L'histoire des Ismailiens de la perse
Defremery — M. G.
Fragments relatifs à la doctrine des Ismaïlis
Hamdani — Paris — 1874.
Studies in the early Persian Ismaïlism.
Leiden 1948
The Rise of the Fatimides —
Calcutta - India 1942

A guide to Ismaïli Literature - W. Ivanow 1937
A Short history of the Fatimide Caliphate
1923
Description du maghreb
Leyden 1860.
The letters of al Mustansir
«School of oriental» London 1934
Enquete aux pays du Levant
«Mauris – Barrès» 1924
Literary History of Persia
Brown – Edward – G. London 1909
The preaching of Islam.
Arnold: Thomas W. 1935.
Geschiche der Arabischer litterature.
Brockelman – 1898 – 1902
History of Mohammedanism and its Sect
Taylor London 1839
Les siecles obscurs du Maghreb.
Gautier – Paris 1927.
Le Dogme et la loi de L'Islam –
Goldziher Paris 1920.
Fragments relatifs à la Doctrine des Ismaïlieh
– Guyard Paris 1874
Essai sur l'histoire de LIsmaïlisme
Dozy Paris 1879
Histoire des musulmans d'Espagne
Leyden 1861
Supplément au Dictionnaires Arabes
– Defrèmery – Leyden 1881.
Cadi – an – Nu'man
(J – R – A – S) Fyzee 1934
The Ismaïlian Law of Mut'a
(J – B – R – A – S) 1929.
History of the Byzantine Empire
Fialy – London 1858
Etude sur la Conquête de L'afrique par les Arabes
Fournet – Paris 1881

Cairo — Jerusalem and Damascus
Margoliouth — Oxford 1907
Literary History of the Arabs
Nicholson —Cambridge 1930.
Histoire de l'ordre des Assassins
— Hammer Paris 1833
Some unknown Ismaïli Authors and their works
(J. R. A. S) H. Hamdani London 1933
Geschichte der FAtimiden Chalifen
wustenfeld — Gōhingen 1881
A Chronological List of the Imams and Daïs of the Mustal'ian ismâilis.
Journal of Bombay Branch of the(J — R — A — S —) 1934.
Histoire de L'europe au Moyen — age
Bemont Paris 1921.

موضوعات الكتاب:



AL - ḤĀKIM BI AMR ALLAH

KHALĪFAH, IMĀM, WA MUṢLIḤ

by

Dr. ʿĀRIF TĀMIR

الثمن : ١٥ ل.ل.